قصص التوراة والإنجيل

في ضوء القرآن والسنة

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان الأشقر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي هدانا للإيمان، وجعلنا من أتباع نبينا محمد ﷺ خير الأنام، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الأبرار، وصحبه الأخيار، وعلى من سلك سبيلهم، واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد بدأت منذ مدة في تفسير القرآن الكريم، فلفت نظري أثناء مراجعتي لبعض التفاسير أن من أصحابها من ينقل عن أهل الكتاب ما يجعله شرحاً لآيات الكتاب، وهذا نهج غير سديد، فما يذكره أهل الكتاب لا ندري مدى صحته، فلا يجوز الاعتماد عليه في تفسير النص القرآني.

والقرآن الكريم ليس به حاجة إلى التوراة والإنجيل والزبور، فالله أنزله وافياً كاملاً لا يحتاج إلى غيره من الشرائع، وكيف يحتاج إليها وقد نسخها الله بشريعة القرآن!! ثم كيف يحتاج إليها، وقد حُرِّفت وغُيِّرت وبُدِّلت.

والصواب من القول أن أهل الكتاب من قبلنا هم الذين يحتاجون إلى قرآننا ليحكم بينهم في أكثر ما هم فيه مختلفون ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل:٧٦].

وهذا الكتاب العظيم مصدق للكتب من قبله، كما هو مهيمن عليها ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]. إن مهمة علماء المسلمين ليس هو تفسير القرآن بالمنقول من التوراة والإنجيل، بل نقد

التوراة والإنجيل عبر النصوص القرآنية والحديثية الصحيحة، ولذلك عزمت على دراسة القصص في التوراة والإنجيل عبر النصوص القرآنية والحديثية.

لقد درست التوراة والإنجيل فوجدت فيهما حقاً يصدقه القرآن، ولكنني وجدت فيهما باطلاً كثيراً، وقد نص القرآن على بطلانه وضلاله، لقد زعموا في أكثر من موضع في التوراة أن الله خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، فتعب واستراح في اليوم السابع، وقد أكذب قرآننا هذه الفرية، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق:٣٨] واللغوب: التعب.

وكذَب الذين عبثوا في التوراة على نبي الله لوط، وهو العفيف الشريف، فزعموا أنه زنى بابنتيه، وأحبلهما، وكان سكراناً، وما كان لنبي الله لوط أن يسكر، وما كان له أن يزني، فالأنبياء معصومون من مثل هذا الضلال.

وكذب العابثون بالتوراة عندما زعموا أن نبي الله هارون هو الذي صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل، وبرّأ الله نبيه هارون من ذلك في أكثر من موضع في القرآن كما سيأتي في قصته.

وزعم محرفو التوراة أن نبي الله داود زنى بزوجة إحدى جنوده عندما كان ذلك الجندي يقاتل في الميدان، وكذبوا على هذا النبي الصالح الذي كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويصلي ثلث الليل، ولا يفر إذا لاقى.

ولم يقر الذين غيروا وبدلوا في التوراة بأن داود وابنه سليمان كانا نبيين، وزعموا أن زوجات نبي الله سليمان أملن قلبه، وأنه أشرك بالله تعالى، فبرأه الله مما افتروه عليه.

وامتلأ الإنجيل بالنصوص المحرفة التي تدّعي أن عيسى ابن مريم هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وأصبح الإنجيل الذي أنزله الله واحداً أربعة أناجيل، ووراء هذه الأناجيل العشرات من الأناجيل، وهي تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً.

ومع أن التوراة والإنجيل فيهما باطل كثير، إلا أن فيهما بعض الحق، فقد تحدثت التوراة عن أنبياء الله مثل نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، ويونس، وقد ذكرت وقائع صدقها القرآن مع ما فيه من وقفات وتعقيبات وزيادات وتصويبات، لقد ذكرت التوراة قصة يوسف ﷺ، وفيها بعض الحق الذي صدقه القرآن.

وحدثتنا التوراة عن قصة نوح، وعن الطوفان الذي وقع في عهده، وإنجاء الله له ولأهل بيته بركوبهم في السفينة التي صنعها، وفي القرآن تصويب لوقائع وقعت في تلك القصة، وفيها زيادات وإضافات ليست في التوراة.

وفي التوراة ذكر للتشريعات التي كلف الله بها بني إسرائيل، وقد جاء القرآن مصدقاً، ومصححاً، ومصوباً لما فيها.

ومع أن بعض ما جاء في التوراة والإنجيل صحيح، وبنو إسرائيل مكلفون به إلا أنهم تركوه وراءَهم، ولم يعملوا به، ففي عهد الرسول ﷺ تحاكم اليهود إلى رسولنا ﷺ في رجل وامرأة منهما زنيا، وأبوا أن يقروا أن حكم الله فيهما في التوراة الرجم، ولما جيء بالتوراة وضع قارئ التوراة منهم على يده حكم الرجم، فقيل له: ارفع يدك، فلما رفع يده إذا آية الرجم تلوح، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما، وقد أمر الله برجم الزاني المحصن في القرآن بمثل ما أمر الله في التوراة.

وقد أغرق بنو إسرائيل في الضلال، عندما ألف أحبارهم كتاباً كان حظه من الاتباع أكثر من حظ التوراة، فعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فاتبعوه، وتركوا التوراة» [حسنه الألباني، وعزاه في صحيح الجامع (١/ ٤٠٩) إلى الطبراني في الكبير، ومجمع الزوائد].

أما الأحاديث والأخبار والأحكام التي لا نجد في الكتاب والسنّة ما يصدقها ولا ما يكذبها، فلا يجوز لنا تصديقها، ولا تكذيبها، ويجوز أن نحدث بها، فعن

عبدالله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» [البخاري: ٣٤٦٢]، ولكن لا يجوز أن نشرح بها القرآن.

لقد عرضت للقصص الذي ورد في التوراة والإنجيل، وسلطت على تلك القصص الأضواء من الكتاب والسنّة النبوية، فأصبحنا على علم بها نأخذ وما ندع من التوراة، وأصبحنا نقف موقف المعلمين لأهل الكتاب، وأصبح أهل الكتاب ملزمين بالأخذ بما أعلمناهم إياه من كتابنا، ولو أخذوا بما عندنا فإنهم ينهون الخلاف الذي وقع بينهم في أمور كثيرة يتنازعون فيها.

لقد اقتصرت في هذا الكتاب على ذكر القصص التي وردت في التوراة أو الإنجيل كما وردت في القرآن، كقصة آدم وقصة ابني آدم، وقصة نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف وغيرها.

أما القصص التي ذكرت في التوراة أو الإنجيل ولم تذكر في القرآن، فلم أعرض لها كقصة صموئيل، وشمشون، ودانيال ونحوها.

ولم أعرض لما ذكر في القرآن من قصص خلت منها التوراة والإنجيل كقصة عاد وثمود وأصحاب الرس ونحوهم.

وقد اتبعت في دراستي هذه أربع خطوات في كلٍّ قصة في الأعم الأغلب، فابدأ بذكر مقدمة، تعدُّ مدخلاً للقصة، ثم أذكر القصة من التوراة أو الإنجيل، ثم أعقب على تلك القصة، وأنهي القصة بوضعها في الميزان.

لقد حاول بعض الغربيين نقد التوراة والإنجيل، ولكن بمنهج عقلي لا دليل معه ولا برهان، أما النقد الذي وجهته إلى قصص التوراة والإنجيل فمعي فيه دليل وبرهان، فقد حاكمت هذين الكتابين إلى كلام الذي أنزلها، وهو يعلم ما فيهما من حقٍّ وضلال.

وإنني أقترح على طلبة العلم في الدراسات العليا أن يقوموا بدراسات على هذا النسق الذي قمت به في موضوعات أخرى لها تعلق بالتوراة والإنجيل، كدراسة

الجانب العقدي في التوراة والإنجيل، أو الجانب التشريعي الذي له علاقة بالأحكام في ضوء الكتاب والسنّة، ودراسة ما ذكر القرآن أنه موجود في التوراة والإنجيل أو غير موجود فيهما، وأظن هذه الموضوعات وأمثالها لم تُخدم بعد.

إن هذه الدراسات الجادة تمثل أحد جوانب الصراع مع العدو اليهودي، وهذه الدراسات تظهر مدى الخلل الموجود في كتبهم وشريعتهم، وتجعلنا نقف منهم موقف المعلم المبين لباطلهم وضلالهم.

أسأل الله تعالى أن أكون قد سددت فيما قصدت، وأسأله تعالى أن يرزقني ثواب ما كتبته، وأن يجعل نيتي خالصة لوجهه، إنه نِعْمَ المولى ونِعْمَ المجيب.

عمر سليمان عبدالله الأشقر

عمان - الأردن

٢٥ من ربيع الثاني ١٤٣١هـ

١٠ من نيسان (إبريل) ٢٠١٠م

القصة الأولى
قصة آدم أبي البشر عليه السلام

أولا: تقديم

تتحدث هذه القصة عن آدم عليه السلام أبي البشر، وقد جاءت هذه القصة في التوراة مختصرة مضطربة، وجاءت في القرآن مطولة واضحة المعالم، وهي تحدثنا عن أصلنا الكريم الطيب الذي ترجع إليه البشرية جميعاً، وتبرئنا عن الأصل الدنيء القذر، فقد زعم بعض المأفونين من الغربيين أننا تطورنا في خلقنا من قرد أو فأر أو صرصور، وكل ذلك باطل من القول وزور.

ثانيا: قصة آدم في التوراة وتعقيب القرآن عليها

١- خلق الله آدم عليه السلام من تراب:

بعبارات قصيرة قليلة أخبرت التوراة بقصة خلق آدم «٧ وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ٧]. وهذا الذي ذكرته التوراة صدقه القرآن، فقد ذكر القرآن أن الله خلق آدم عليه السلام من تراب وقد صرحت به نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران:٥٩]. وبنو آدم عليه السلام مخلوقون من تراب، بخلق أبيهم آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج:٥].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب» [الترمذي: ٢٩٥٥. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وأخبرنا الله تعالى أن هذا التراب الذي خلق الله منه آدم أصبح طيناً قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون:١٢]، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة:٧].

ثم تحول هذا الطين إلى حمأ مسنون، ثم تحول إلى صلصال كالفخار، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر:٢٦]. وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن:١٤].

٢- الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام:

وأورد ابن كثير في [قصص الأنبياء: ص٤٦] ثلاثة أحاديث، تتحدث عن خلق آدم من تراب، فقال: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ خلقَ آدم من قبضةٍ قبضَها من جميعِ الأرض، فجاءَ بنو آدم على قدر الأرض، جاءَ منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسود وبينَ ذلك، والخبيثُ والطيبُ، والسهلُ والحزن وبينَ ذلك».

وكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه، من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محقق الكتاب: [رواه أحمد في المسند (٤/ ٤٠٠) ورقم (١٩٠٨٥)، و(٤/ ٤٠٦)، وأبو داود رقم (٤٦٩٣)، والترمذي رقم (٢٩٥٥) في التفسير. وابن

حبان رقم (٦١٦٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦١) و(٢٦٢)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

٢- إسكان الله آدم الجنة:

ورد في التوراة «٨وَغَرَسَ الرَّبُّ الإلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. ٩وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ٨-٩]. وما ذكرته التوراة من أن الله أسكن آدم الجنة صدقه القرآن، أما أنها جنة في الأرض، فغير صحيح، والصواب أنها جنة الخلد، ووصف الله للجنة التي أسكنها آدم يدل على أنها شجرة الخلد.

وأخبرهم أن في وسط الجنة شجرتين: شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، وهذا ليس بصحيح، فالحياة هبة من رب العباد، ولا تحصل بالأكل من شجرة بعينها، والملائكة أحياء عند ربهم، وهم لا يأكلون ولا يشربون، وآدم خلقه الله قابلاً لمعرفة الخير والشر، ودعوى التوراة أنَّ معرفة آدم بالخير والشر كان بعد أكله من الشجرة كذب على الله وكذب على آدم ﷺ، وتصديق للحية التي زعمت لحواء أنها ستكون عارفة بالخير والشر إن هي أكلت منها.

ولو كان هذا الذي زعمته التوراة المحرفة صحيحاً لنهى الله آدم عن الأكل من شجرة الحياة كما نهاه عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، فإن التوراة تزعم أن الله أهبطهما من الجنة، بعد أن صارا عارفين الخير والشر.

والنصوص القرآنية المصرحة بأن الله أسكن آدم شجرة الخلد بعد خلقه كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف:١٩] وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٧-١١٩].

وقد أبهم الله اسم الشجرة التي نهى آدم وزوجه عن الأكل منها، لأنه لا فائدة من وراء تعيينها، قال ابن كثير: «وقد أبهم الله ذكر هذه الشجرة وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود علينا لذكرها» [قصص الأنبياء: ص٢٦]، فلا ينبغي أن نغرق في البحث عمّا لا سبيل لمعرفته.

٤- الأنهار التي تخرج من الجنة:

ذكرت التوراة أن الجنة التي أسكن الله فيها آدم هي جنة في الأرض، وذكرت التوراة أنه «١٠كَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: ١١اِسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. ١٢وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. ١٣وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. ١٤وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابعُ الْفُرَاتُ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ١٠-١٤].

والزعم بأن هذه الأنهار كلها تخرج من مكان واحد هو الجنة التي سكنها آدم يدلّ على أن هذه الجنة ليس لها وجود في الأرض، فالفرات وهو أظهر الأنهار المذكورة يأتي إلى العراق من الشمال من تركيا، وفيشون ليس له وجود اليوم، ويقال إن بعض هذه الأنهار يصب في بحر قزوين [قاموس الكتاب المقدس: ٢٧٩] وأين بحر قزوين من العراق التي فيها الفرات؟!

وقد رأى رسولنا ﷺ في إسرائه نهران باطنان في الجنة، ونهران ظاهران وهما النيل والفرات [مسلم:١٦٤].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «سيحان وجيحان والفرات والنيل أنهار في الجنة» [مسلم: ٢٨٣٩].

وهذه أسماء أنهار موجودة في الجنة، وقد سمي بهذه الأسماء أنهار في أرضنا هذه، فلا تناقض بين إسكان آدم في جنة الخلد، وبين وجود أنهار في الجنة تسمى

الفرات والنيل وسيحان وجيحان. ومما يرد على دعواهم أن الجنة في الأرض أن إخراج آدم من الجنة ليس بعقوبة، فإن آدم يكون خرج من الأرض إلى الأرض.

٥- تحريم الله على آدم أن يأكل من شجرة من أشجار الجنة:

ورد في التوراة: «١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ١٥] وهذا غير صحيح، فلم يكن آدم مكلفاً بحفظ الجنة والعمل فيها، قال تعالى لآدم عندما أسكنه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٨-١١٩].

وذكرت التوراة أن الله أباح لآدم أن يأكل من جميع شجر الجنة إلا شجرة واحدة هي شجرة معرفة الخير والشر، وقال له: «١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» [التكوين، الإصحاح الثاني: ١٦-١٧].

وكون الله أباح لآدم جميع ما في الجنة من أشجار فهذا صحيح، قال الله لآدم: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة:٣٥].

أما كون الشجرة شجرة الخير والشر فلا وألف لا، فالله خلق الإنسان ليعرفه الخير والشر، لا ليحرمه من معرفة الخير والشر، وقد أرسل الرسل، وأنزل الكتب ليعرف الإنسان الخير والشر، ويعمل بالخير، ويبتعد عن الشر، وقد قال الله لآدم وإبليس عندما أهبطهما من الجنة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

وليس صحيحاً أن الله قال لآدم: إنه في اليوم الذي يأكل فيه من الشجرة فإنه موتاً يموت، وقد أدى هذا القول إلى الزعم بأن الله كاذب، فقد أكل آدم وزوجه من الشجرة، فأخرجهما الله من الجنة، ولم يموتا موتاً.

٦- خلق الله لآدم زوجه حواء من ضلع من أضلاعه:

ورد في التوراة «وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. ٢١ فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. ٢٢ وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣ فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». ٢٤ لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٢٥ وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ٢١-٢٥].

أما أنّ خلق الله حواء من ضلع آدم فهذا صحيح، دلّ عليه القرآن في الجملة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء:١] والنفس الواحدة التي خلق منها الخلق آدم عليه السلام، والزوج الذي خلقه من آدم حواء.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن المرأة مخلوقة من ضلع، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء» [البخاري: ٣٣٣١، ومسلم: ١٤٦٨].

وأما ما ذكرته التوراة من أن الرجل يلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً، فهذا ليس على الحقيقة، وإنما هو على المجاز، كما قال تعالى في القرآن: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة:١٨٧] وما ذكرته التوراة أنهما كانا عريانين وهما لا يدريان غير صحيح، بل كانت عوراتهما مستورة لا تحتاج إلى لباس لسترها، وبدت لهما عورتهما بعدما أكلا من الشجرة.

٧- علم الله آدم أسماء المخلوقات:

تذكر التوراة أن الله أتى بحيوانات البرية والطيور، وأحضرها لآدم ليرى ما يدعوها به، فدعى آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية.

[سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ١٩-٢٠]. وهذا الخبر الذي أخبرت به التوراة صحيح في الجملة، ولكنه ناقص، ويحتاج إلى توضيح، وقد أعلمنا الله في كتابه القرآن أنه أراد أن يبين للملائكة فضل آدم عليه السلام، فعرض على الملائكة المسميات من المخلوقات، وطلب منهم أن يضعوا لها الأسماء اللائقة بها فلم يستطيعوا، عند ذلك طلب من آدم أن يسميها، فقام بذلك على الوجه الكامل ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة:٣١-٣٣] لقد أرى الله الملائكة من آدم خاصية لا يملكونها، وهي جزء من المؤهلات التي يملكها ليكون في الأرض خليفة.

وقد ذكر أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» [البخاري: ٤٤٧٦، ومسلم: ١٩٣]. وهذا الحديث يدل على أن الله شرف آدم عليه السلام بأربعة أمور: خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا، وعلمه أسماء كل شيء.

٨- عصيان آدم وحواء بأكلهما من الشجرة التي نهاهما ربهما عن الأكل منها:

تذكر التوراة أن الحيّة التي هي أحيل حيوانات البرية أغوت آدم وحواء، وزينت لهما الأكل من الشجرة التي حرم الله عليهما الأكل منها، فأكلا، فأخرجهما ربهما من جنة عدن إلى هذه الأرض، جاء في التوراة:

«١وَكَانَتِ الحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ البَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الجَنَّةِ؟» ٢ فَقَالَتِ المَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الجَنَّةِ نَأْكُلُ، ٣ وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». ٤ فَقَالَتِ الحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! ٥ بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ

مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». ٦ فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ
جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا
وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. ٧ فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ.
فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. ٨ وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ
عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩
فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». ١٠ فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ
فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ١١ فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ
مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» ١٢ فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا
مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». ١٣ فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي
فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». ١٤ فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ
فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ
تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. ١٥ وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ
نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». ١٦ وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ:
«تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ
يَسُودُ عَلَيْكِ». ١٧ وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ
الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ
أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ١٨ وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ١٩ بِعَرَقِ
وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى
تُرَابٍ تَعُودُ». ٢٠ وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. ٢١ وَصَنَعَ الرَّبُّ
الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. ٢٢ وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ
قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ
أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». ٢٣ فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ
الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. ٢٤ فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ
مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثالث: ١-٢٤].

لقد أفسد الذين حرفوا التوراة الحقيقة التي ذكرت في هذه الواقعة، فآدم وزوجه حواء أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، والذي زين لهما الأكل من الشجرة هو إبليس، ولم تأت التوراة على ذكر إبليس بحال، وقد بيّن الله لنا في القرآن أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم عند نفخ الروح فيه، فعندما نفخت الروح في آدم سجد الملائكة كلهم أجمعون، وكان معهم إبليس، وليس منهم، فقد كان من الجن، فرفض السجود لآدم بدعوى أنه مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار أفضل من الطين.

قال رب العزة سبحانه مخبراً لنا عما كان من أمره الملائكة بالسجود لآدم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف:١١].

وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر:٢٨-٣١].

لقد فتح أبونا آدم عليه السلام عينيه بعد أن سرت فيه الروح، فوجد أعظم تكريم، وجد الملائكة جميعاً له ساجدين، ولكنه وجد بينهم واحداً أكل الحسد والحقد قلبه وأبى أن يكون مع الساجدين، وهو إبليس اللعين.

وإبليس هو الذي رفض السجود لآدم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف:٥] والجن مخلوقون من النار، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجنُّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم» [مسلم:٢٩٩٦].

تدعي التوراة المحرفة أن الحية هي التي زينت لآدم وزوجه الأكل من الشجرة المحرمة، وتدعي الأسطورة التي دونت في التوراة زوراً وكذباً، أن الحية كانت صادقة عندما دعت حواء إلى الأكل من الشجرة حتى تصبح هي وزوجها عارفين بالخير والشر، وفي هذا تصديق للشيطان، وتكذيب للرحمن.

لقد بيّن القرآن الكريم أن إبليس هو الذي دعا آدم وزوجه إلى الأكل من الشجرة، ولا يوجد في القرآن ذكر للحية التي تحدثت التوراة عنها، ويذكر القرآن أن إبليس زين هذا الفعل لآدم وزوجه، وأقسم لهما كاذباً أنهما إن أكلا من الشجرة يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين في جنات النعيم، وكان مراده أن يعريهما، وينزع عنهما لباسهما، وهذا يدل على كذب ما دُوّنَ في التوراة أنهما كانا عاريين، وهما لا يعلمان، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

وقال عز وجل في سورة طه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١٢٠-١٢١].

هذه هي الحقيقة التي صرح بها القرآن، وكشف القرآن ذلك البهتان الذي في التوراة المحرفة.

وما ذكرته التوراة أن الحية هي التي زينت لحواء الأكل من الشجرة، لا ذكر له في القرآن، أعني لا ذكر للحية في القرآن، وما ذكره الله في القرآن من أن إبليس هو الذي زين لآدم وحواء الأكل من الشجرة، لا ذكر له في التوراة أعني إبليس.

وقد صورت الأسطورة التوراتية الله إنساناً ينزل في الجنة ليمشي بين أشجارها، ويتنزه في بساتينها، وصورته بأنه كان جاهلاً بالمكان الذي فيه آدم

وحواء، ولم يعلم بأنهما أكلا من الشجرة حتى أعلماه بمكانهما، وأنهما أكلا من الشجرة.

٩ـ إخراج آدم وحواء من جنة الخلد إلى أرض الشقاء:

ذكرت التوراة أنه بعد أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها عاقب الحية، وقال لها: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. ١٥وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ» وكذلك عاقب حواء وآدم، وهو مذكور فيما أوردناه في نص التوراة.

وذكرت التوراة أن الله أخرج آدم وحواء من الجنة لأنهما صارا عارفين بالخير والشر، وخشي الرب أن يأكلا من شجرة الحياة، فيحيا إلى الأبد.

والقرآن يذكر هذه المسألة بتفصيل وبيان، ويوضح الانحراف والتحريف الذي في التوراة، ويذكر أن الله أنزل على آدم توبته، فآدم عليه السلام تلقى من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٧] وبيّن في موضع آخر الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه، فدعا بها، فتاب عليه ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]. وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه بعد أكل آدم من الشجرة تاب عليه وهدى ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه:١٢٢].

ومع توبة الله على عبده آدم فإنه أنزله هو وزوجه حواء إلى الأرض التي خلق منها، كما أنزل عدوه إلى تلك الأرض، لتدور رحى معركة طويلة بين الشيطان وبين ذرية آدم لا تتوقف حتى تقوم الساعة ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:٢٤-٢٥].

وقد أعلم الله آدم عليه السلام أنه سينزل هداه على رسله وأنبيائه، وأعلمه بما سيصير إليه حال الإنسان إن قَبِلَ هداه أو رفضه ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

هذا هو الحق في قصة آدم كما جاء به القرآن، وهو بهذا الوضوح يزيل ما أحاط بالقصة به من الغش واللبس الذي سطرته التوراة، وقصة القرآن قصة كاملة تامة متناسقة، أما قصة التوراة فقصة مبتسرة، اختلط فيها الحق بباطل كثير.

١٠ـ عمر آدم عليه السلام عند وفاته:

ذكرت التوراة أن «كُلُّ أَيَّامِ آدَمَ الَّتِي عَاشَهَا تِسْعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً» [سفر التكوين، الإصحاح الخامس: ٥].

وهذا الذي ذكرته التوراة غير صحيح، فقد أخبرنا الرسول الكريم أن آدم عليه السلام عاش ألف عام، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك.

فرأى رجلاً منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود، فقال: رب، كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت، فقال: أوَلَم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أوَلَم تُعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونُسِّيَ آدم، فنُسِّيت ذريته، وخَطِئَ آدم، فخَطِئت ذريته».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجهٍ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وروى الترمذي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم، ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملأ منهم جلوس - فقل: السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم.

فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترتُ يمين ربي، وكِلْتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها، فإذا فيه آدم وذريته، فقال: أي رب، ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو: من أضوئهم - قال: يا رب، من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قد كتبتُ له عمر أربعين سنة. قال: يا رب، زده في عمره، قال: ذاك الذي كتبتُ له، قال: أي رب، فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك.

قال: ثم أُسكن الجنة ما شاء الله، ثم أُهبِط منها، فكان آدم يعدُّ لنفسه. قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجَّلت، قد كُتب لي ألف سنة، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحد فجحدت ذريته، ونسي، فنسيت ذريته، قال: فمن يومئذ أُمر بالكتاب والشهود».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، من رواية زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. [والحديث الأول رواه الترمذي في سننه. وانظره في صحيح سنن الترمذي ورقمه: ٣٢٨٢. والحديث الثاني رواه الترمذي، وانظره في صحيح سنن الترمذي، ورقمه: ٣٦٠٧].

أمور أعلمنا الله بها عن آدم ﷺ ليس لها وجود في التوراة:

سنسوق هنا عدة أمور أعلمنا الله بها في القرآن، وليس لها وجود في التوراة، ولا الإنجيل.

١١ - إعلام الله ملائكته بإرادته خلق آدم قبل خلقه:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الله أعلم الملائكة بأنه يريد أن يوجد في الأرض خليفة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] وهذا الذي صرح الله به في القرآن لا وجود له في التوراة.

والمراد بالخليفة الذي يريد الله خلقه في الأرض آدم وذريته من بعده، والدليل أنّ الله أراد ذرية آدم معه أن الملائكة سألوا ربهم عندما أخبرهم بهذا الخبر عن الحكمة من خلقه مع أنه يقع منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠] ومعلوم أن آدم لم يقع منه إفساد ولا سفك للدماء، والذين وقع منهم ذلك هم ذريته.

وقد جعل الله آدم وذريته خلفاء الأرض، لأنه وهبهم خصائص تؤهلهم لهذا الدور الذي ناطهم به، والخلافة في الأرض تعني تسليطهم على الأرض يستعمرونها، ويعملون فيها، ولكن عليهم أن يفعلوا ذلك وفق منهج الله الذي سينزله عليهم، واشترط عليهم أن يُعَبِّدوا أنفسهم لله الواحد الأحد.

١٢ - خلق الله آدم عليه السلام بيده:

ومما ذكره الله في القرآن ولم يُذكَر في التوراة أن الله خلق آدم بيده دون بقية الخلق، ولذلك قال الله تعالى لإبليس عندما رفض السجود لآدم عليه السلام ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص:٧٥].

وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ : أن الناس يقولون لآدم في يوم القيامة عندما يطلبون شفاعته: «أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده» [البخاري: ٧٥١٠، ومسلم: ١٩٣].

١٣ـ السبب في عدم سجود إبليس لآدم عليه السلام:

وخاطب الله آدم عليه السلام محذراً إياه من هذا العدو اللعين الذي أبى أن يسجد له ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه:١١٧].

وقد سأل ربُّ العزة الشيطان عن السبب الذي دعاه إلى عدم السجود لآدم، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢]. وفي موضع آخر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر:٣٢-٣٣]، وفي موضع ثالث: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [ص:٧٥-٧٧].

لقد استكبر الشيطان واستعلى على أمر الله تعالى، أمره الله بالسجود لآدم، فأبى زاعماً أن آدم مخلوق من طين، وهو من النار، والنار أفضل من الطين، فلا يجوز له السجود له، لقد استعمل المقاييس العقلية في مواجهة الأمر الإلهي الرباني، وهذا الخبر ليس له ذكر في التوراة.

١٤ـ طرد الله لإبليس من رحمته وجنته:

الله تعالى هو السيد الملك الذي لا يُردُّ قوله، ولا يُخالف أمرُه، ولذا لم يناقش إبليس فيما ذكره وادّعاه، بل طرده من رحمته وجنته، ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٣]، و﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]. ولم تصرح التوراة بطرد الشيطان، ولكن يفقه من لعن الله للحية أنه طردها من الجنة.

١٥ـ ابليس يطلب من الله أن يبقيه حيا إلى يوم الدين، وتعهده باضلال بني آدم:

عندما طرد الله إبليس من رحمته وجنته طلب إبليس من رب العزة أن يبقيه حياً إلى يوم القيامة، كي يقوم بإضلال آدم وذريته ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ

فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٣-١٨]، وهذا الخبر لا وجود له في التوراة.

وقال في موضع آخر: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٤-٤٠].

لقد استجاب الله لطلب إبليس بإبقائه حياً إلى يوم الدين، وصرّح الشيطان لرب العزة بما سيفعله بعدوه الذي أُخرج بسببه من الجنة، فهو يريد أن يوردهم موارد الهلاك، بأن يزين لهم معصية الله والشرك به، حتى يدخلهم في النيران، وغضب الرحمن، إلا عباد الله المخلصين، فإنه لا سبيل للشيطان عليهم، ولذلك قال الشيطان ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر:٤٠] وقال الله للشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء:٦٤].

وقد أذن الله للشيطان أن يقوم بما عزم على القيام به، وأذن له أن يستعمل قواه الشخصية، وما لديه من إمكانات في ذلك الإضلال، قال الله لإبليس: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء:٦٤].

لقد اكتملت أطراف الصراع، فهناك آدم المعزز المكرم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وهناك إبليس الذي أكل الحسد والحقد قلبه، وهو عازم على إضلال آدم وبنيه، وهناك الجهود الشيطانية التي لا يستطيع الإنسان الوقوف في وجهها إلا إذا احتمى بالله، والتجأ إليه.

١٦- ذكر صفة خلق آدم واليوم الذي خلق فيه:

ذكر لنا رسولنا ﷺ صفة خلق آدم ، كما ذكر لنا اليوم الذي خلق فيه، وهذا ليس له وجود في التوراة.

روى أبو هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً» [البخاري: ٣٣٢٦، ومسلم: ٢٨٤١].

وروى أبو هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» [مسلم: ٨٥٤].

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ : «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة» [صححه الألباني، وعزاه في صحيح الجامع (١/ ٦٢٩) إلى أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وهو في صحيح أبي داود: ٩٦١، ١٠٢٤، وخرجه في إرواء الغليل: ٧٧٣].

١٧- تجهيز الملائكة آدم بعد موته وصلاتهم عليه ودفنه:

لم تخبرنا التوراة عن موت آدم ، وأخبرنا رسولنا ﷺ أن آدم مرض مرض الموت فاشتهى بعض ثمار الجنة، فذهب أبناؤه يبحثون عما طلبه أبوهم، فاستقبلتهم الملائكة فأخبروهم بمرادهم، فأخبروهم أن أباهم قد مات.

عن عتيّ [هو ابن ضمرة السعدي] قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه، فقالوا: هذا أُبيّ بن كعب، فقال: «إن آدم ، لما حضره الموت، قال لبنيه: أي بنيّ، إني أشتهي من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة، ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي، والمكاتل.

فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون؟ أو ما تريدون؟ وأين تذهبون؟ قالوا: أبونا مريض، فاشتهى من ثمار الجنة، قالوا لهم: ارجعوا فقد قُضي قضاء أبيكم.

فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك إليك عني، فإني إنما أُوتيت من قِبَلك، خلِّ بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى، فقبضوه، وغسّلوه، وكفّنوه، وحنّطوه، وحفروا له، وألحدوا له، وصلّوا عليه، ثم دخلوا قبره، فوضعوه في قبره، ووضعوا عليه اللَّبِن، ثم خرجوا من القبر، ثم حثوا عليه التراب، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنّتكم». [وروي هذا الحديث عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند: (٥/ ١٣٦). قال ابن كثير بعد سياقه للحديث: «إسناد صحيح إليه». أي إلى أبيّ بن كعب، البداية والنهاية: (١/ ٩٨). وقال الهيثمي فيه: «رواه عبدالله بن أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير عتيّ بن ضمرة، وهو ثقة» مجمع الزوائد: (٨/ ١٩٩). وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على أبيّ بن كعب، فإن له حكم المرفوع، فإنه مما لا يقال بالرأي].

ثالثاً: هذه القصة في الميزان

صدَّق القرآنُ التوراةَ في أصل هذه القصة، صدقها في أن الله خلق جسد آدم من تراب هذه الأرض، ولكنه فصَّل في خلقه بما لا ذكر له في التوراة، وصدق القرآن والأحاديث الصحيحة أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم، وصدق القرآن التوراة أن الله أسكن آدم وزوجه الجنة، ولكن الصواب من القول أن هذه الجنة هي جنة الخلد، وليست جنة في الدنيا، وأخبرت التوراة أن الله أعطى آدم الجنة ليعمل فيها، والصحيح أن لا عمل في الجنة لآدم عندما سكن الجنة.

وما ذكرته التوراة من أن الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها هي شجرة الخير والشر غير صحيح، فآدم كان عالماً بالخير والشر، والله خلقه ليعلم الخير والشر، ونهيه عن الشجرة التي نهاه عنها كان من باب الامتحان والاختبار، وما ذكرته التوراة أن الله أهبط آدم من الجنة خشية أن يأكل من شجرة الحياة غير صحيح، وإنما أهبطه، لأنه عصاه.

وما ذكرته التوراة من أن الحية هي التي أغوت آدم وحواء غير صحيح، والصواب أنه إبليس، وقد برأت التوراة الحية، وكذبت الرحمن، فالحية كانت صادقة

فيما أخبرت به حواء وآدم، والصواب الذي قرره القرآن أن إبليس زيّن لهما الشر والباطل في صورة مستحسنة.

وما ذكرته التوراة من تسمية آدم للمخلوقات التي عرضت عليه صحيح، ولكن فيه قصور يحتاج إلى استكمال.

وقد ذكر القرآن قضايا وتفصيلات في قصة آدم لا وجود لها في التوراة.

القصة الثانية
قصة ابني آدم عليه السلام هابيل وقابيل

أولا: تقديم

هذه القصة تحدثت عنها التوراة في موضع واحد، وتحدث عنها القرآن في موضع واحد، وسأوردها كما وردت في التوراة، ثم أعقب عليها عبر النص القرآني الذي تحدث عنها. وقد حدثتنا هذه القصة في التوراة عن ابني آدم، هابيل وقايين، وكان هابيل راعياً للغنم، وقايين فلاحاً يعمل في الأرض.

وتذكر التوراة أن الأخوين قرَّب كلٌّ واحد منهما لربه قرباناً، الفلاح قدم من ثمار الأرض، والآخر قدم من سمان غنمه، فتقبل الله قربان هابيل، ولم يقبل قربان قايين، فاغتاظ قايين، وقتل أخاه هابيل، وقرَّع الربُّ سبحانه الأخ القاتل بسبب قتله أخاه، فاعترف بما كان منه، وقال للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل، وقال لله: إنك قد طردتني من الأرض، ومن وجهك أختفي، وأكون تائهاً في الأرض، ويكون كلُّ من وجدني يقتلني.

فأخبره الله أنه لم يوجب على أحدٍ قتله، ومن قتله فيكون عقابه سبعة أضعاف، ينتقم منه، وأخبرت التوراة أن قايين سكن في أرض «نود» شرقي عدن.

وأخبرتنا التوراة أن قايين عاشر زوجته، وولدت له ابنه حنوك، وبنى مدينة سماها باسم ابنه حنوك، وذكرت التوراة الذرية التي تناسلت من ابنه حنوك.

ثانيا: نص هذا الخبر في التوراة

جاء في سفر التكوين، الإصحاح الرابع: ١-٢٤: «١ وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ
فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». ٢ ثُمَّ عَادَتْ
فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلاً فِي الأَرْضِ. ٣
وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، ٤ وَقَدَّمَ هَابِيلُ
أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، ٥ وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ
وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. ٦ فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا
اغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ ٧ إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ
خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا». ٨ وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ.
وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. ٩فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ:
«أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟» ١٠فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟
صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. ١١فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي
فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. ١٢مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ
قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ». ١٣فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ
يُحْتَمَلَ. ١٤إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ
تَائِهًا وَهَارِبًا فِي الأَرْضِ، فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي». ١٥فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «لِذلِكَ
كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلاَمَةً لِكَيْ لاَ
يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. ١٦فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ
عَدْنٍ. ١٧وَعَرَفَ قَايِينُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ حَنُوكَ. وَكَانَ يَبْنِي مَدِينَةً، فَدَعَا اسْمَ
الْمَدِينَةِ كَاسْمِ ابْنِهِ حَنُوكَ. ١٨وَوُلِدَ لِحَنُوكَ عِيرَادُ. وَعِيرَادُ وَلَدَ مَحُويَائِيلَ. وَمَحُويَائِيلُ
وَلَدَ مَتُوشَائِيلَ. وَمَتُوشَائِيلُ وَلَدَ لاَمَكَ. ١٩وَاتَّخَذَ لاَمَكُ لِنَفْسِهِ امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ
الْوَاحِدَةِ عَادَةُ، وَاسْمُ الأُخْرَى صِلَّةُ. ٢٠فَوَلَدَتْ عَادَةُ يَابَالَ الَّذِي كَانَ أَبًا لِسَاكِنِي
الْخِيَامِ وَرُعَاةِ الْمَوَاشِي. ٢١وَاسْمُ أَخِيهِ يُوبَالُ الَّذِي كَانَ أَبًا لِكُلِّ ضَارِبٍ بِالْعُودِ
وَالْمِزْمَارِ. ٢٢وَصِلَّةُ أَيْضًا وَلَدَتْ تُوبَالَ قَايِينَ الضَّارِبَ كُلَّ آلَةٍ مِنْ نُحَاسٍ وَحَدِيدٍ.

وَأُخْتُ تُوبَالَ قَايِينَ نَعْمَةُ. ٢٣وَقَالَ لاَمَكُ لامْرَأَتَيْهِ عَادَةَ وَصِلَّةَ: «اسْمَعَا قَوْلِي يَا امْرَأَتَيْ لاَمَكَ، وَأَصْغِيَا لِكَلاَمِي. فَإِنِّي قَتَلْتُ رَجُلاً لِجُرْحِي، وَفَتىً لِشَدْخِي. ٢٤إِنَّهُ يُنْتَقَمُ لِقَايِينَ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ، وَأَمَّا لِلاَمَكَ فَسَبْعَةً وَسَبْعِينَ».

ثالثاً: التعقيب على هذه القصة الواردة في التوراة:

هذا الخبر موجود في القرآن في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٣١].

وهذا النص صريح في أن الأخوين المتحدث عنهما هما ابنا آدم، وهذا مثبت في التوراة، وقد سمت التوراة اسمي الأخوين فهما هابيل وقايين، وحددت عمل كل واحد منهما، فالأول كان راعياً، والثاني كان فلاحاً يعمل في الأرض، ولم يلتفت القرآن لشيء من هذا الذي ذكرته التوراة.

وكثير من المفسرين يسمون الأخوين هابيل وقابيل، مع أنه لم يرد خبر لا في القرآن، ولا في صحيح السنّة يحدد اسميهما.

وصدَّق القرآن ما أخبرت به التوراة من أن كل واحد منهما قرب قرباناً، فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، ولم يعرض لماهية القربان الذي قدمه كلُّ واحد منهما. وذكر القرآن أن الذي لم يتقبل قربانه تهدد أخاه الذي تقبل قربانه بالقتل، فقال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧] وصرح له بأنه إذا هاجمه واعتدى عليه، فإنه لن يتعرض له بالأذى ولن يدافع عن نفسه، وهو في هذا يريد أن يبوء أخوه بإثمهما، فيكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

وصرح النص القرآني بأنه قتل أخاه، فأصبح من الخاسرين.

وصدق النص التوراة في أن أحدهما قتل أخاه، ولم يذكر النص القرآني ذلك الحوار الذي جرى بين القاتل وبين الرب، ولم يذكر أن الله قضى أن من يقتل قايين، فإنه يعاقب بسبعة أضعاف من العقوبة، ولم يذكر ما ذكرته التوراة من معاشرة قايين لزوجته، كما لم يذكر ما رزق قايين من الذرية، وإعماره مدينة حنوك.

رابعا: هذه القصة في الميزان

أظهر هذا النص عظم جريمة القتل العمد، فابن آدم الصالح عندما تهدده أخوه بالقتل، قال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة:٢٨].

والله سبحانه عقب على هذه الجريمة مبيناً عظمها قائلاً: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

ورسولنا ﷺ حذَّر من الاقتتال، وبيّن عظم جرم المتقاتلين، فعن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» [البخاري: ٣١، مسلم: ٢٨٨٨].

وعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل» [البخاري: ٣٣٣٥، مسلم: ١٦٧٧].

والمتأمل في خاتمة هذه القصة في التوراة، يجد أن الجزاء الذي ذكرته التوراة لا يتناسب مع الجريمة التي ارتكبها قايين، فقد أخبرت التوراة أن الله حفظ حياة قايين، وأثمرت ذريته، وتكاثرت، وعمّر الأرض، وهذا الذي ذكرته التوراة لا

يردع أمثاله من الذين يرتكبون مثل هذا الجرم الفظيع، انظر إلى هذا التعقيب الإلهي الرباني الذي عقب به القرآن على تلك الواقعة الشنيعة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

إن هذا التعقيب القرآني ليخلع قلوب الذين يريدون ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع، فالذي يقتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض حاله حال الذي قتل الناس جميعاً، والذي يحييها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وقد انفرد القرآن عن التوراة بأن القاتل لم يدر كيف يواري سوأة أخيه، وتحير في هذا الأمر، فبعث الله غراباً، فوارى غراباً ميتاً، بأن حفر في الأرض فوارى سوأة أخيه، فقال القاتل متندماً متحسراً: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغرب، فأواري سوأة أخي.

القصة الثالثة
قصة نبي الله نوح أول الرسل إلى أهل الأرض

أولا: تقديم

هذه القصة كقصة آدم موغلة في القدم، وهي تتحدث عن الطوفان العظيم الذي غطّى الأرض، وأهلك كل الأحياء الذين كانوا يعيشون فوق ظهر الأرض، من البشر والحيوانات والطيور، ولم يبقَ من الأحياء فوق ظهر الأرض إلا من كان مع نوح في السفينة، وليس عند البشر في موضوع الطوفان في غير التوراة والإنجيل إلا رؤىً غامضة، تكاد تشبه الأسطورة، اختلط فيها الحق بباطل كثير.

وجاءت التوراة في هذا الموضوع بحقٍّ كثير، ولكن فيه أخطاء صوبها القرآن، كما سيظهر لنا ذلك عندما نعرض هذه القصة.

ثانيا: قصة نوح في التوراة إلى ما قبل الطوفان

كان آدم عليه السلام أول من خلقه الله من البشر، وصاحب هذه القصة وهو نبي الله نوح أول من أرسل إلى أهل الأرض، وتذكر التوراة أن آدم عليه السلام هو الجدّ العاشر لنوح [سفر التكوين، الإصحاح الخامس].

ولم تذكر لنا التوراة من أخبار نوح قبل وقوع الطوفان إلا أن الناس كانوا قد فسدوا في ذلك الزمان، فأراد الله إهلاك البشر بسبب كثرة شرهم وفسادهم، وذكرت أن نوحاً كان باراً كاملاً في أجياله، وذكرت التوراة أنه ولد لنوح ثلاثة من الأولاد هم سام وحام ويافث.

وأمر الله نوحاً أن يصنع السفينة، لتكون مركب النجاة لنوح وزوجته وأولاده وأزواجهم، ووصف له صفة السفينة التي عليه أن يصنعها، وأخبره أنه سيهلك الناس كلهم إلا الذين يركبون السفينة.

جاء في التوراة: «١وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، ٢أَنَّ أَبْنَاءَ الله رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذلِكَ أَيْضًا إِذْ دَخَلَ بَنُو الله عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَدًا، هؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ. ٥وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. ٦فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ». ٨وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ. ٩هذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارًّا كَامِلاً فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ الله. ١٠وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلاَثَةَ بَنِينَ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ. ١١وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ الله، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا. ١٢وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ» [سفر التكوين، الإصحاح السادس: ١-١٢].

وفي هذا النص من التوراة ألفاظ لا يجوز نسبتها إلى ربِّ العزة، ومن ذلك قوله: «حزن الربُّ»، «وتأسف في قلبه»، «لأني حزنت» فإنه تبارك وتعالى لا يحزن، ولا يأسف، ولا يجوز إطلاق القلب على الله تعالى.

١- قصة نبي الله نوح في القرآن:

ما ذكرته فيما سبق هو كل ما ذكرته التوراة عن نوح حتى وقوع الطوفان، وهذا الذي ذكرته التوراة غيض من فيض مما ذكره القرآن، وعندما تقرأ قصة نوح في

القرآن تجده قد توسع كثيراً في الإخبار عنه، فقد مدحه الله في القرآن وأثنى عليه، وحدثنا ربنا في كتابه عن دعوة نوح لقومه، وأورد لنا كثيراً مما ذكّر به قومه، وذكر لنا كثيراً من المواجهات التي وقعت بين نوح وقومه، وحدثنا كيف طلب قومه منه أن يطرد من مجلسه ضعفاء المؤمنين، فأبى وامتنع.

وحدثنا كيف أن نوحاً بعد مئات السنين من دعوة قومه إلى الله يئس منهم، ودعا الله أن يهلكهم، وأخبرنا ربنا بالدعاء الذي دعا به نوح قومه، وكل هذا الذي حدثنا الله به في كتابنا لا وجود له في التوراة.

٢- فضل نوح وثناء الله - تبارك وتعالى - عليه:

أثنى الله على نوح وذكر فضله في مواضع من كتابنا، فأخبرنا أنه أحد أولي العزم من الرسل، وهم خمسة، وهم أفضل الرسل، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن نوحاً كان من المهديين ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الأنعام:٨٤]، وأخبرنا أيضاً أنه كان عبداً شكوراً فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

والشرعة التي جاء بها نوح هي الشريعة التي جاء بها الرسل والأنبياء من بعده ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾ [الشورى:١٣].

والدليل على أن نوحاً أول الرسل ما ورد في حديث الشفاعة، وفيه أن البشر يأتون نوحاً عليه السلام بعد أن يعتذر آدم عليه السلام عن الشفاعة، فيقولون له: «أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً» [البخاري: ٣٣٤٠، مسلم: ١٩٤].

وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام [عزاه ابن كثير في قصص الأنبياء إلى البخاري، وقال محققه: لم نجده فيه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال: على شرط البخاري]، والقرن - كما يقول ابن كثير - الجيل من الناس، أو المدة من الزمان.

وقد انتشرت عبادة الأصنام في قوم نوح، قال ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما (ودّ) كانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سُواعٌ) كانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتَنَسَّخ العلم عبدت» [البخاري: ٤٩٢٠].

وبعد الطوفان جعل الله جميع الأنبياء من بعد نوح من ذريته ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦].

٣- دعوة نوح قومه إلى عبادة الواحد الأحد:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الفترة التي عاشها نوح في قومه امتدت إلى تسعمائة وخمسين عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤]. وقد أطال الله تبارك وتعالى في الحديث عن هذه الفترة من عمر نوح، أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه أمر نوحاً أن ينذر قومه، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، فدعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح:١-٤].

وأخبرنا ربنا أن قوم نوح عبدوا الأصنام، وأخبرنا عن أسماء أصنامهم، وعن مدى استمساكهم بعبادتها ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح:٢٣-٢٤].

٤- **المواجهة بين نوح وقومه:**

وحدثنا ربنا في كتابه عن المواجهة التي جرت بين نوح وقومه، فعندما دعاهم إلى عبادة الله وحده، وصموه بأنه في ضلال مبين، فأجابهم إجابة بيّنة واضحة بأنه ليس في ضلالة، ولكنه رسول رب العالمين، يبلغهم رسالة الله، وينصح لهم، ويعلم من الله ما لا يعلمون: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٥٩-٦٢].

وأخبرنا ربنا سبحانه أنه عندما دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال زعماء قومه ورؤساؤهم: إنه يريد أن يترأس عليهم ويتفضل عليهم، وزعموا أن به جنون، ولذلك عليهم أن يتربصوا به لفترة من الزمان ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون:٢٣-٢٥].

وذكر اتهامهم له بالجنون في موضع آخر فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر:٩].

ورغّب نوح قومه بالعيش الهنيء إن هم استغفروا ربهم وتابوا إليه، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

ونوح مع أنه أول الرسل فقد كان متميزاً في عرض دعوته لقومه، وإقامة الحجج والبراهين الدالة على صحة ما جاءَهم به، وتبصيرهم بموحيات الدلائل الدالة على الله في الأرض والسماء، وفي ذوات أنفسهم، قال تعالى حاكياً قول نوح: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح:١٣-٢٠].

٥- قوم نوح يطلبون من نوح طرد المؤمنين لأنهم فقراء ضعفاء:

طلب قوم نوح من نوح أن يطرد المؤمنين معه كي يخالطوه ويجالسوه، فإن الذين آمنوا معه ضعفاء فقراء، ولا يليق بهم أن يخالطوهم ويجالسوهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء:١١١].

وقال في موضع آخر: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧] وبادي الرأي، أي اتبعوه سريعاً عندما دعاهم من غير نظر ولا رويّة، وقد رفض نوح عليه السلام طلب قومه في طرد الذين استجابوا له، وفي ذلك يقول: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء:١١٢-١١٥] وقال في موضع آخر: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٢٩-٣١].

٦- مدى ثبات نوح في مواجهة قومه:

كان نوح عليه السلام كالجبل الأشم في مواجهة قومه، وكان يعمل أنه وهو يدعو قومه إلى الله يأوي إلى ركن شديد، فهو يتوكل على الله، ولا يخاف قومه، ولا

شركاءهم، وهو قادر على الوقوف في مواجهتهم جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس:٧١].

ازداد حنق قوم نوح عليه، وطالبوه بأن يأتي بالعذاب الذي توعدهم به، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود:٣٢].

وبلغ بهم الحال أنه إذا وقف عليهم ليدعوهم أن يضعوا أصابعهم في آذانهم ويستغشوا ثيابهم ويصروا على كفرهم، ويستكبروا استكباراً، ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح:٧].

٧- يأس نوح من إيمان قومه ودعاؤه عليهم:

وأعلم الله نوحاً بأنه لن يؤمن أحد من قومه إلا من آمن ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود:٣٦].

عند ذلك دعا نوح على قومه بالهلاك، وطلب من الله أن يبيدهم، ويذهب بهم، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٦]، و ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨] وقال في موضع ثالث: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات:٧٥]. وقال: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر:١٠]، وقال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وقد استجاب الله دعاء نوح في قومه، فأهلكهم ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٥-٧٧].

٨ـ أرسل الله الطوفان على الكافرين وأنجى المؤمنين في السفينة:

أخبرتنا التوراة أن الله أهلك قوم نوح بالطوفان، وكان الطوفان عندما بلغ نوح ستمائة سنة من عمره، وهذا غير صحيح فنوح لبث في قومه تسع مائة وخمسين سنة، ثم جاء الطوفان، كما ذكر ذلك القرآن.

وقد أخبر الله نوحاً أنه مهلك جميع أهل الأرض، وأمره قبل الطوفان أن يصنع السفينة التي ستقله، وتقل المؤمنين معه، «١٣فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ. ١٤اِصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِنَ، وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِل وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ» [سفر التكوين، الإصحاح السادس: ١٣-١٤].

ووصف الله لنوح صفة صناعة السفينة، وكم يكون طولها وعرضها، وطبقات السفينة وأبوابها [سفر التكوين، الإصحاح السادس: ١٥-١٦].

وأخبره أن الطوفان سيأتي على الأرض، وسيهلك كل الأحياء، وأخبره أن الله سيقيم عهده مع نوح، وأمره أن يدخل السفينة عندما يأتي الطوفان، ويدخل معه امرأته وبنيه ونساء بنيه.

وأمره أن يدخل معه في السفينة عندما يأتي الطوفان اثنين اثنين من الطيور والحيوانات ودبابات الأرض، وأن يدخل السفينة من كل طعام يؤكل.

جاء في التوراة: «١٧فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ. ١٨وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. ١٩وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ

ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ تُدْخِلُ إِلَى الْفُلْكِ لاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى. ٢٠مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لاسْتِبْقَائِهَا. ٢١وَأَنْتَ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعْهُ عِنْدَكَ، فَيَكُونَ لَكَ وَلَهَا طَعَامًا». ٢٢فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللهُ. هكَذَا فَعَلَ» [سفر التكوين، الإصحاح السادس: ١٧-٢٢].

ثم عادت التوراة لتقول: «١وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: «ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ. ٢مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ اثْنَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى. ٣وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضًا سَبْعَةً سَبْعَةً» [سفر التكوين، الإصحاح السابع: ١-٣].

٩- قصة صناعة السفينة وركابها في القرآن والتوراة:

وقد صدق القرآن التوراة في أن الله أمر نوحاً بصناعة السفينة، ولم يعرض القرآن لطريقة صنعه لها، وإنما أخبرنا أن نوحاً كان يصنعها بوحي الله، قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود:٣٧] وذكر أن قومه كانوا يعجبون من صناعته السفينة، وكانوا إذا مرّوا به وهو يصنعها سخروا منه، ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود:٣٨].

وجعل الله لنوح علامة على وقوع الطوفان وهي فيضان تنور الخبز بالماء، عند ذلك عليه أن يدخل السفينة هو والذين آمنوا معه، وليس بصحيح ما ذكرته التوراة أن الذين دخلوا معه امرأته وأولاده وزوجات أولاده، فحسب. فقد أخبرنا ربنا أنه آمن معه قليل من قومه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود:٤٠].

ولم يحمل نوح معه كل أقاربه، وإنما حمل معه من آمن منهم، كما دلّ عليه النص القرآني الذي سبق ذكره ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠].

ومن الغارقين من أهل نوح ابنه كما أخبرنا ربنا، وسيأتي ذكر ذلك، ومنهم زوجته، فإن الله أخبرنا أنها كانت كافرة، فإذا كانت حية إلى يوم الطوفان، فتكون غرقت مع الغارقين، ويحتمل أنها كانت ماتت قبل الطوفان، وقال الله لنوح في موضع آخر: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

وليس بصحيح أن الله أمره أن يأخذ من الحيوانات الطاهرة سبعة أزواج، ومن الحيوانات النجسة اثنين اثنين، بل أخذ من جميع الحيوانات والطيور زوجين اثنين كما أخبر القرآن في النصوص التي سقتها من قبل، من غير تفريق بين الطاهر والنجس.

١٠- قصة الطوفان في التوراة:

وذكرت التوراة وقوع الطوفان على الأرض فقالت: «١٠وَحَدَثَ بَعْدَ السَّبْعَةِ الأَيَّامِ أَنَّ مِيَاهَ الطُّوفَانِ صَارَتْ عَلَى الأَرْضِ. ١١فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي الْيَوْمِ السَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ، وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ. ١٢وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. ١٣فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ دَخَلَ نُوحٌ، وَسَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ بَنُو نُوحٍ، وَامْرَأَةُ نُوحٍ، وَثَلاَثُ نِسَاءِ بَنِيهِ مَعَهُمْ إِلَى الْفُلْكِ. ١٤هُمْ وَكُلُّ الْوُحُوشِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا: كُلُّ عُصْفُورٍ، كُلُّ ذِي جَنَاحٍ. ١٥وَدَخَلَتْ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلْكِ، اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ. ١٦وَالدَّاخِلاَتُ دَخَلَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، كَمَا أَمَرَهُ اللهُ. وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ. ١٧وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ. وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ، فَارْتَفَعَ عَنِ الأَرْضِ. ١٨وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدًّا عَلَى الأَرْضِ، فَكَانَ الْفُلْكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. ١٩وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ

كَثِيرًا جِدًّا عَلَى الأَرْضِ، فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ. ٢٠خَمْسَ عَشَرَةَ ذِرَاعًا فِي الارْتِفَاعِ تَعَاظَمَتِ المِيَاهُ، فَتَغَطَّتِ الجِبَالُ. ٢١فَمَاتَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ كَانَ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الطُّيُورِ وَالبَهَائِمِ وَالوُحُوشِ، وَكُلُّ الزَّحَّافَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ، وَجَمِيعُ النَّاسِ. ٢٢كُلُّ مَا فِي أَنْفِهِ نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي اليَابِسَةِ مَاتَ. ٢٣فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ: النَّاسَ، وَالبَهَائِمَ، وَالدَّبَّابَاتِ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الفُلْكِ فَقَطْ. ٢٤وَتَعَاظَمَتِ المِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا» [سفر التكوين: الإصحاح السابع: ١٠-٢٤].

وقد ذكر القرآن الطوفان غاضاً النظر عن كثير من التفاصيل المذكورة في التوراة.

١١- قصة الطوفان في القرآن:

ذكر الله سبحانه وتعالى الطوفان في قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر:١٠-١٣]. وقال في موضع آخر واصفاً عظم الطوفان: ﴿ وَهِيَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:٤٢].

ومن التفاصيل الذي ذكرها القرآن ولم تذكرها التوراة، أن نوحاً أمر المؤمنين معه بركوب السفينة قائلاً ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود:٤١] وأمر الله نوحاً ومن معه أن يقولوا ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩].

وما طلبه نوح عليه السلام من المؤمنين معه أن يسموا، وأن يحمدوا الله عز وجل هو سنّة في هذه الأمة، فقد أرشدنا الله إذا ركبنا دابة أو سفينة أو سيارة أو طائرة أن نقوله، قال تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف:١٣-١٤].

١٢- غرق ابن نوح مع الغارقين:

ذكرت التوراة أن نوحاً نجا في السفينة مع زوجته وأولاده ونسائهم وذرياتهم، ولم تذكر التوراة أن واحداً من قوم نوح آمن بنوح، وقد نص القرآن كما سبق على أن المؤمنين مع نوح كانوا قليلين، وأن الله أمر نوحاً بإركاب المؤمنين في السفينة دون غيرهم من الكفار، ونصّ على أن أحد أولاده كان كافراً، فغرق مع الغارقين، وقد غرقت زوجة نوح مع الغارقين إن كانت لم تمت قبل الطوفان، لأنها كانت كافرة، وليس بصواب ما ذكرته التوراة أنها ركبت السفينة. وتذكر سورة هود غرق ابن نوح مع الهالكين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٢-٤٣].

وقد دعا نوح ربه ذاكراً أن ابنه من أهله ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥]، فأجاب الله نوحاً مذكِّراً إياه أن ابنه غير داخل في وعد الله، لأنه كان كافراً، ووعد الله خاص بالمؤمنين ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦] عند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧].

١٣- سفينة نوح كانت آية من آيات الله:

لقد كانت السفينة التي أقلت نوحاً والذين آمنوا معه، وحملت تلك الحيوانات والطيور آية من آيات الله العظيمة، فلا شك أنها كانت كبيرة واسعة، وسعت المؤمنين مع نوح عليه السلام، وحملت ذلك العدد الهائل من الحيوانات والطيور، فقد أخذ

نوح معه من كل زوجين اثنين من الحيوانات والطيور، وصدق الله تعالى في وصفه للسفينة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت:١٥] وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر:١٥]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة:١١-١٢] وقال الله فيها: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢] وأخبرنا ربنا أن نوحاً صنعها من الألواح الخشبية، والدسر، وهي المسامير ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر:١٣].

ولا شك أن هذه السفينة كانت مصنوعة صناعة متقنة، وبالقدر الذي يحتاج إليه، فإن نوحاً صنعها بوحي من الله ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧].

ولا شك أن نوحاً حمّل في السفينة ما يحتاج إليه من طعام وشراب، له وللمؤمنين معه، وللحيوانات والطيور التي كانت في السفينة.

ومما يتعجب منه أن الطيور والحيوانات التي كانت معه منها ما كان مفترساً كالأسد والنمر والذئب، وغير مفترسة، ولم تعتد المفترسة على بقية الحيوانات، والله قادر على كل شيء، وقد ذكرت لنا التوراة وصدقتها الأحاديث الصحيحة أن السلام عندما يوضع على الأرض بعد نزول عيسى ابن مريم، يأمن البشر، وتأمن الحيوانات، فيرعى الأسد مع النعام، ويلعب الطفل الصغير مع الثعبان الكبير، وتأكل الحيوانات العشب، وتأكل الأفعى التراب، والله قادر على ما يريده سبحانه.

١٤- توقف الطوفان وبلع الأرض ما عليها من ماء:

حدثتنا التوراة أن الطوفان توقف، وأخذت المياه تجف من فوق الأرض، جاء في التوراة: «١ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوُحُوشِ وَكُلَّ الْبَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ. وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ. ٢وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ. ٣وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعًا مُتَوَالِيًا. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا نَقَصَتِ الْمِيَاهُ، ٤وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابعَ عَشَرَ

مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ. ٥وَكَانَتِ المِيَاهُ تَنْقُصُ نَقْصًا مُتَوَالِيًا إِلَى الشَّهْرِ العَاشِرِ. وَفِي العَاشِرِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، ظَهَرَتْ رُؤُوسُ الجِبَالِ. ٦وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَنَّ نُوحًا فَتَحَ طَاقَةَ الفُلْكِ الَّتِي كَانَ قَدْ عَمِلَهَا ٧وَأَرْسَلَ الغُرَابَ، فَخَرَجَ مُتَرَدِّدًا حَتَّى نَشِفَتِ المِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ. ٨ثُمَّ أَرْسَلَ الحَمَامَةَ مِنْ عِنْدِهِ لِيَرَى هَلْ قَلَّتِ المِيَاهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، ٩فَلَمْ تَجِدِ الحَمَامَةُ مَقَرًّا لِرِجْلِهَا، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ إِلَى الفُلْكِ لأَنَّ مِيَاهًا كَانَتْ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ. فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهَا وَأَدْخَلَهَا عِنْدَهُ إِلَى الفُلْكِ. ١٠فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَادَ فَأَرْسَلَ الحَمَامَةَ مِنَ الفُلْكِ، ١١فَأَتَتْ إِلَيْهِ الحَمَامَةُ عِنْدَ المَسَاءِ، وَإِذَا وَرَقَةُ زَيْتُونٍ خَضْرَاءُ فِي فَمِهَا. فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ المِيَاهَ قَدْ قَلَّتْ عَنِ الأَرْضِ. ١٢فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَأَرْسَلَ الحَمَامَةَ فَلَمْ تَعُدْ تَرْجعُ إِلَيْهِ أَيْضًا. ١٣وَكَانَ فِي السَّنَةِ الوَاحِدَةِ وَالسِّتِّ مِئَةٍ، فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، أَنَّ المِيَاهَ نَشِفَتْ عَنِ الأَرْضِ. فَكَشَفَ نُوحٌ الغِطَاءَ عَنِ الفُلْكِ وَنَظَرَ، فَإِذَا وَجْهُ الأَرْضِ قَدْ نَشِفَ. ١٤وَفِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي اليَوْمِ السَّابعِ وَالعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، جَفَّتِ الأَرْضُ. ١٥وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا قَائِلاً: ١٦«اخْرُجْ مِنَ الفُلْكِ أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. ١٧وَكُلَّ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ: الطُّيُورِ، وَالبَهَائِمِ، وَكُلَّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، أَخْرِجْهَا مَعَكَ. وَلْتَتَوَالَدْ فِي الأَرْضِ وَتُثْمِرْ وَتَكْثُرْ عَلَى الأَرْضِ». ١٨فَخَرَجَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ. ١٩وَكُلُّ الحَيَوَانَاتِ، كُلُّ الدَّبَّابَاتِ، وَكُلُّ الطُّيُورِ، كُلُّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، كَأَنْوَاعِهَا خَرَجَتْ مِنَ الفُلْكِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثامن: ١-١٩].

١٥- أمر الله نوحا ومن معه أن يهبطوا من السفينة بعد جفاف الأرض:

بعد أن أهلك الله كلَّ الأحياء في الأرض بالطوفان أمر السماء أن تتوقف عن المطر، وأمر الأرض أن تبتلع ما عليها من ماء ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤].

وقد أخبرتنا التوراة أن الله أمر ركاب السفينة أن ينزلوا إلى الأرض وأمرهم أن يكثروا ويثمروا ويعمروا الأرض، وصدق القرآن التوراة، قال سبحانه وتعالى:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨]، أي: اهبط سالماً مباركاً عليك، وعلى أمم ممن معك، وأمم ستنشأ وتوجد من بعدك، وكل الأمم من بعد نوح كانت من نسله، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

١٦- الموضع الذي رست فيه سفينة نوح ﷺ:

ذكرت التوراة أن سفينة نوح استقرت بعد أن جفت المياه على جبال أراراط، والذي أخبر به القرآن أن السفينة استوت على الجودي، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

وجبل الجوديّ موجود في شمال العراق أو فيما جاورها من بلاد تركيا، وقد ذكر ابن كثير «أن الجودي جبل عظيم مشهور موجود في أرض الجزيرة» [قصص القرآن: ص٩٦].

وذكر ياقوت الحموي في [معجم البلدان: ٢/ ١٧٩] أن «الجوديّ بتشديد الياء، جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من نهر دجلة من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء».

وقد نقل البخاري رحمه الله عن قتادة تعليقاً من غير إسناد أن قتادة قال: «أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة» [البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر:١٤]. قبل حديث رقم (٤٨٦٩)، ووصله عبدالرزاق في (تفسيره) (٣/ ٢٦٠) ورقمه (٣٠٦٢)، وابن جرير في (تفسيره) (١١/ ٥٥٥)، ورقمه (٢٢٧٦٢)].

١٧- مصير قوم نوح في الآخرة:

رأينا كيف عذب الله قوم نوح بالطوفان العظيم في الدنيا، وأخبرنا ربنا أن مصيرهم في الآخرة النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح:٢٦].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن قوم نوح في يوم القيامة يكذبون نوحاً، ويدعون كاذبين أنه لم يبلغهم، وأخبرنا أننا نشهد لنوح بالبلاغ. فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءَنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣]» [البخاري:٣٣٣٩].

١٨- افتراء بني إسرائيل على نبي الله نوح عليه السلام:

افترى بنو إسرائيل على نبي الله نوح، فقد زعموا أنه شرب الخمر فسكر، فتعرى في داخل خبائه، فأبصر ولده حام أبو كنعان عورة أبيه، وخرج وأخبر أخويه بما كان منه، فدخل الولدان على أبيهما، وأخذا الرداء، ووضعاه على أكتافهما، ومشيا للخلف حتى لا يريا عورته، فلما وصلا إليه سترا عورته.

فلما استيقظ نوح وعلم بما فعله ابنه غضب عليه، وأخبر أن كنعان ابن حام وذريته سيكونون عبيداً لأبناء سام ويافث، وأخبر أنه سيكون عبد العبيد لإخوته، وبارك سام قائلاً: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع: ٢٦-٢٧].

وهذا الذي ذكروه عن نوح كذب وافتراء على نوح، فما يكون لنوح وهو من أولي العزم من الرسل، أن يشرب الخمر ويسكر، ويتعرى وتُرى عورته، وإذا كان الأمر كذلك، فما قيل عن حام كذب أيضاً.

١٩- وصية نوح ابنه عند وفاته:

قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم، قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن عمرو، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية، عليه

جبة سيجان[1] مَزْرُورَةٌ بالديباج، فقال: ألا إنَّ صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ورفع كل راعٍ ابن راعٍ، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته، وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل، ثم قال: إن نبي الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاصّ عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كِفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاةُ كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكِبر. قال: قلت أو قيل: يا رسول الله، هذا الشرك، قد عرفناه فما الكِبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا حُلّة يَلْبَسها؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا. قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قلت أو قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: سفه الحقِّ، وغمص الناس» وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه [البداية والنهاية: ١/ ١١٩].

ثالثا: هذه القصة في الميزان

ما ذكرته التوراة في قصة نوح كان ضامراً قليلاً إلى وقوع الطوفان، وقد توسع القرآن في ذكر قصة نوح في مجال دعوة نوح لقومه، وفيها وعظهم وذكرهم به، وذكر لنا القرآن صوراً من المواجهة التي واجه بها نوح قومه، وذكر لنا كيف طلب منه الزعماء والرؤساء من قومه أن يطرد المستضعفين من الذين آمنوا به فأبى عليهم، وذكر لنا كيف يئس نوح من إيمان قومه، فدعا عليهم بالهلاك، وقد ذكر الله شيئاً من فضل نوح وما حباه الله به.

(١) سيجان: جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر.

وصوب القرآن ما ذكرته التوراة من أن نوحاً مكث في قومه قبل الطوفان ستة مائة عام، وذكر أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وتوسعت التوراة في ذكر الطوفان، وبينت أن الله حدد لنوح موعداً لوقوعه، وذكرت صفة صنع السفينة، وحدد الله لنوح الذين يصعدهم في السفينة، وتحدثت عن مدة بقاء السفينة على وجه الماء.

وقد صحح القرآن ما جاء في التوراة المحرفة أن الله أمر نوحاً أن يصعد معه من الحيوانات الطاهرة سبعة سبعة، والصواب أنها زوجان زوجان، وصحح القرآن ما ذكرته التوراة أن نوحاً أخذ معه زوجته، وأولاده ونساءَهم، والصواب أنه أخذ معه المؤمنين من أهله، وغير أهله، وهم قليل، فقد غرق أحد أولاده، وكان كافراً.

وقد ذكر القرآن أموراً وقعت في الطوفان لم تذكرها التوراة، ومن ذلك ما أمر الله به نوحاً من دعائه ومن معه الله عند صعود السفينة وعند النزول منها.

وقد ذكر القرآن الكريم أن سفينة نوح كانت آية عظيمة من آيات الله، بناها نوح بوحي إلهي، وحشر فيها الأحياء الذين سيعمرون الأرض بعد الطوفان، ولم يغرق في التفصيلات الشكلية التي ذكرتها التوراة.

وذكرت التوراة الموضع الذي رست فيه السفينة، فقد ذكرت التوراة أنه جبل أرارات، والصواب أنه جبل الجودي، وهو جبل في شمال العراق.

القصة الرابعة
بلبلة الله لسان أهل الأرض

أولا: تقديم

ذكرت التوراة في سفر التكوين أن الأرض كانت لساناً واحداً ولغة واحدة، فأراد البشر أن يصنعوا من اللَّبِن المشوي مدينة وبرجاً، ويجعلون لأنفسهم اسماً كي لا يتفرقوا على وجه الأرض، فنزل الله لينظر المدينة والبرج اللذين كان الناس يبنونهما، فنزل الله فبلبل ألسنتهم، وفرقهم في بقاع الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، وسمي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل ألسنتهم، وفرقهم في مختلف بقاع الأرض.

ثانيا: نص هذا الخبر في التوراة

جاء في سفر التكوين: «١وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً.
٢وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. ٣وَقَالَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيًّا». فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ
لَهُمُ الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. ٤وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ.
وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ». ٥فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ
وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. ٦وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ
لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ.
٧هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». ٨فَبَدَّدَهُمُ

الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ المَدِينَةِ، ٩لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ» [سفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر، ١-٩].

ثالثا: نظرة في هذا الخبر من التوراة

هذا الخبر الذي أورده الذين عملوا على تحريف التوراة شبيه بالأسطورة والخرافة، وهي تصور أن الله يقف في وجه الذين يريدون إعمار الأرض واستثمارها، وصوروا أن الله وقف في مواجهة وحدة البشرية، ولا أدري كيف صور محرفو التوراة أن بناء الناس للمدينة والبرج سيحفظ وحدة اللغة عند البشر.

إن اختلاف ألسنة البشر ليس نقمة كما صورتها هذه الأسطورة، بل هو آية من آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم:٢٢].

إن القرآن مليء بالنصوص التي تخبر بأن الله أراد من عباده أن يعمروا هذه الأرض ويثمروها، ويبنوا مدنها وقراها، فإن فعلوا ذلك والتزموا الحق المنزل إليهم أرسل السماء عليهم مدراراً، وأمدهم بالأموال والبنين، وجعل لهم الجنات والأنهار، وإلا فإنهم يكونون من الهالكين.

القصة الخامسة
قصة خليل الرحمن نبي الله إبراهيم عليه السلام

أولا: تقديم

هذه قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، أحد أولي العزم من الرسل، وثاني الرسل في الفضل، وصفه الله بأنه كان صدِّيقاً نبياً، وجعله للناس إماماً، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وكل أنبياء بني إسرائيل من ذريته، ومن ذريته محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأفضل بني آدم أجمعين، وفي سيرته عبر وعظات، وقصته مسطورة في التوراة، وقد أطال القرآن في عرض قصته وأخباره بما لا مزيد عليه.

ثانيا: قصة إبراهيم في التوراة

ذكرت التوراة أن إبراهيم خليل الرحمن هو ابن تارح، وذكرت أنه من ذرية سام ابن نبي الله نوح، وذكرت أن نوحاً هو جد إبراهيم الثامن.

وحدثتنا التوراة طويلاً عن أخبار نبي الله إبراهيم عليه السلام ، فذكرت أن مولده كان في مدينة (أور) وهي مدينة كلدانية، وكان اسم إبراهيم أبرام، وتزوج من امرأة تدعى ساراي، وكانت ساراي عاقراً لا تلد، وتذكر التوراة أن والد إبراهيم وهو تارح أخذ ابنه إبراهيم وابن ابنه لوطاً وساراي زوجة ابنه إبراهيم أخذهم من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان، فأتوا حاران، وأقاموا هناك، وهناك توفي (تارح) والد إبراهيم [سفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر: ٢٨-٣١].

جاء في التوراة أن الله أمر إبراهيم أن يهاجر من أرض آبائه إلى الأرض التي يريه إياها، وهي الأرض المباركة فلسطين ووعده أن يجعله أمة عظيمة، ويباركه،

ويعظم اسمه، ويبارك مباركيه، ويلعن لاعنيه، وأن قبائل الأرض تتبارك به، فرحل أبرام من حاران، وهو ابن خمس وسبعين سنة، فأخذ إبراهيم زوجته وابن أخيه، فذهبوا إلى أرض كنعان، ووصل إبراهيم إلى مكان شكيم، وهي مدينة نابلس، وقال الله لإبراهيم لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى إبراهيم مذبحاً للرب تبارك وتعالى.

وذكرت التوراة «١وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. ٢فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ». ٤فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. ٥فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ٦وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. ٧وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ٨ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيل وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. ٩ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالاً مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر: ١-٩].

ثالثا: تعقيب القرآن على ما ورد في التوراة من شأن ابراهيم

١- والد إبراهيم لم يخرج مع ابراهيم إلى حاران:

اسم والد إبراهيم ليس (تارحاً) كما زعمته التوراة، بل اسمه (آزر) كما ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤].

ومن طالع قصة إبراهيم في القرآن فإنه يجزم بعدم خروج والد إبراهيم مع إبراهيم ولوط وسارة إلى أرض حاران، فإن العداء استحكم بين إبراهيم ووالده، حتى إن الوالد أمر ابنه إبراهيم بهجره، وعدم الدخول عليه، وتهدده بالرجم، وانتهى الأمر بإبراهيم إلى التبرأ من أبيه عندما تبين له أنه عدو لله تعالى، والقرآن بين أن هجرة إبراهيم إلى الأرض المقدسة كانت بعد إلقاء قومه له في النار، فإبراهيم لم يخرج من أرضه إلى ذلك الوقت، فلا معنى لما زعمته التوراة من أن والد إبراهيم هاجر بابنه إلى حاران.

إن هذا الزعم الباطل يصور أن علاقة إبراهيم بأبيه كانت علاقة حسنة وجيدة، وأنهما كانا متفاهمين متعاونين، والأمر على خلاف ذلك على ما يعرضه القرآن وسيأتي بيانه.

٢- فضائل إبراهيم ﷺ ومكانته:

ذكرت التوراة شيئاً ما عن فضائل نبي الله إبراهيم ﷺ ، فذكر أنه سيجعله أمة عظيمة، ويباركه ويعظم اسمه، ويبارك مباركيه، ويلعن لاعنيه، وتتبارك به جميع قبائل الأرض [سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر: ٢-٣].

وتذكر التوراة أن الله قال لإبراهيم وقد بلغ من العمر تسعة وتسعين عاماً: «سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، ٢فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا» وقال له: «وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ ...».

وهذا الذي ذكرته التوراة نزر يسير مما أخبر به القرآن عن فضل إبراهيم ﷺ ، فمن ذلك أن الله أخبره أنه سيجعله إماماً للناس، أي: قدوة وأسوة، يقتدون ويتأسون به ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾ [البقرة:١٢٥].

والآية تذكر أن هذا التكريم لإبراهيم كان بعد أن أتى إبراهيم بالتكاليف التي كلفه الله بها تامة وافية، وأخبرت الآية أن هذه المكانة العالية لن تكون بعد إبراهيم إلا للمؤمنين من ذريته، أما الظالمون من ذريته، فلن يشملهم عهد الله إلى إبراهيم.

وأخبرنا الله بشيء مما فضل به عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام، فمن ذلك:

أ- اتخاذ الله إبراهيم خليلاً: قال تعالى متحدثاً عن هذه الكرامة العظيمة التي خص الله بها إبراهيم عليه السلام ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٦٥]. والخلة أعظم درجات المحبة والمودة.

ب- جعل الله في ذريته النبوة والكتاب: قال الله تعالى مقرراً هذه الفضيلة العظيمة ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن عدد كبير من الأنبياء كانوا من ذريته، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٨٦].

وعدد الأنبياء الذين ذكرت الآية أنهم من ذرية إبراهيم ستة عشر نبياً.

وقد أنزل الله على إبراهيم الصحف الخاصة به، والتي تسمى بصحف إبراهيم، وأنزل الكتب على الأنبياء من ذريته، فأنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد، وكل هؤلاء الأنبياء من ذرية إبراهيم، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ج- جعل الله ملة إبراهيم خير الملل: أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن ملة إبراهيم خير الملل، والذي يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠] وقد أمر الله رسوله محمداً أن يكون على ملة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣]. وملة إبراهيم قائمة على وحدانية الله في ذاته وأسمائه وصفاته، وعبادة الله وحده لا

شريك له، والدينونة لله بالإسلام، لقد كان إبراهيم عليه السلام كما قال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧].

د- إبراهيم خير البرية: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال له: يا خير البرية، فقال ﷺ «ذاك إبراهيم» [مسلم: ٢٣٦٩].

هـ- صفات أخرى عظيمة اتصف بها إبراهيم عليه السلام : أثنى الله على إبراهيم بصفات عظيمة أخرى، فقال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم:٣٧] أي: وفّى بجميع ما أمره الله تعالى به من تكاليف.

وقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١] ومن شهد الله له بأنه آتاه رشده، فإنه أعظم الفائزين.

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤] والأواه: الذي يكثر من قوله: آه في توجعه وشكواه لله، والحليم: الواسع الخلق، الذي يسع الناس في صبره على دعوتهم وصبره على تعاليهم وكفرهم، وسنرى كيف جادل إبراهيم ملائكة الرحمن في شأن تعذيب قوم لوط.

٣- صفة أبينا نبي الله ابراهيم عليه السلام :

عرفنا رسولنا ﷺ بأبينا إبراهيم عليه السلام ، فقال في حديث ابن عباس: «أما إبراهيم، فانظروا إلى صاحبكم» [مسلم:١٦٦] وفي حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم (يعني نفسه)» [مسلم:١٦٧] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء «ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، وأنا أشبه ولده به» [البخاري: ٣٣٩٤، مسلم: ١٦٨].

وقد وصف لنا الصحابة رسولنا ﷺ وصفاً دقيقاً، ومن صفته تعرف صفة إبراهيم عليه السلام ، فعن أنس بن مالك، قال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن،

ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق، وليس بالآدم، وليس بالجعد القطط، ولا بالسبط» [البخاري: ٥٩٠٠، مسلم: ٢٣٤٧].

وعن قتادة قال: قلت لأنس بن مالك كيف كان شعر رسول الله ﷺ ؟ قال: «كان شعر رسول الله ﷺ ليس بالجعد ولا السَّبط» [مسلم: ٢٣٣٨].

وعن أنس أيضاً قال: «كان النبي ضخم اليدين والقدمين، حسن لوجه، لم أرَ بعده ولا قبله مثله، وكان بَسِط الكفين» [البخاري: ٥٩٠٧].

٤. دعوة إبراهيم عليه السلام أباه إلى عبادة الله وحده وهجر الأوثان:

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - أن إبراهيم عليه السلام خصّ أباه بدعوته إلى عبادة الله وحده، وترك الأوثان التي يعبدونها من دون الله الواحد الأحد، وقد خاطبه سائلاً إياه لِمَ يعبد هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئاً، وهو سؤال يدعو والده فيه إلى التفكير في حقيقة هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم: ٤١-٤٢].

وأخبرنا ربنا - عز وجل - أن إبراهيم وهو يعظ أباه ويعلمه كان في غاية الرقة والتوقير والاحترام لأبيه، وقد ابتدأ حديثه في كل موضوع يريد إعلامه به بقوله: (يا أبت)، والنداء بهذه الكلمة يُظهر عمق الرابطة التي تربطه به، ليقربه منه، ويدعوه إليه، وليدله على أنه محسن إليه، ناصح له، وبعد النداء الأول لأبيه أعلمه أنه جاءه من عند الله علماً ليس عنده مثله، فإذا تبعه على ما جاء به هدي إلى الصراط المستقيم ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم: ٤٣].

وبعد النداء الثاني الذي نادى به أباه حذره من عبادة الشيطان بعبادته الأصنام، فكل من عبد الأصنام فقد عبد الشيطان، ولا يليق بالعاقل أن يعبد عدوه اللدود الشيطان، فالشيطان عاص للرحمن ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: ٤٤].

وبعد النداء الثالث والأخير أخبره أنه يخشى عليه أن يمسه بسبب كفره وشركه عذاب من الرحمن فيكون للشيطان ولياً ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم:٤٥].

إنها موعظة تفيض محبةً ومودةً ونصحاً، وتفيض أدباً، كل ذلك مع الوضوح فيما يدعوه إليه، ويريده منه، مع تواضع فيما يدعوه إليه، ويخاطبه به، ولكن أباه كان مغرقاً في كفره، غارقاً في شركه، قد سُدَّت منافذ النور إلى قلبه، فلم يدخل قلبه الهدى الذي دعاه إليه ابنه، وكل الذي وقر في نفسه واستثاره أن ابنه قد رغب عن آلهته ورفضها، واتخذ إلهاً غيرها، فتهدد ابنه وتوعده بالرجم بالحجارة، وطلب منه أن يهجره، ويقاطعه، انظر إلى الرد الذي أجاب به حيث قال له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم:٤٦].

إنه ردّ غليظ في موجهة الخطاب الرقيق، وهو رد شديد في مواجهة ما قدمه إليه ابنه من إحسان، ومع ذلك، فإن إبراهيم لم يثر، ولم يتوقف عن الإحسان إلى الأب الجافي الغليظ، وانظر إلى ما خاطب به أباه حيث يقول: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم:٤٧-٤٨] هكذا قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ﴾ وهي كلمة في غاية الرقة، وهي تفيض عذوبة، فلا سباب، ولا شتام، ولا ثورة، ولا انتقام، ومع السلام الذي خاطبه به، وعده بأن يدعو له ربه بالهداية والمغفرة، وانظر إلى عمق العلاقة التي تربطه بالله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم:٤٧]. وحفياً، أي: لطيفاً.

واحترم إبراهيم إرادة أبيه الذي دعاه إلى هجره ومقاطعته ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم:٤٨] إنه يريد أن يعتزلهم، ويعتزل معهم آلهتهم الباطلة التي يدعونها ويستغيثون بها من دون الله، والدعاء كما صح في الحديث «هو العبادة» ومن دعا ربه، واستغاث به، وترك

الآلهة التي يدعوها الناس فقد أفلح وفاز وسعد، وقد أخبرنا الله في سورة الشعراء أن إبراهيم دعا لأبيه بالمغفرة ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:٨٦].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن إبراهيم عليه السلام أنكر على أبيه وقومه اتخاذ الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله، وصارحهم بأنهم في ضلال مبين ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام:٧٤].

ولما ظهر لإبراهيم أن أباه مغرق في الكفر والضلال، وأنه مصرٌّ على عدائه لله رب العالمين تبرأ منه ، وتراجع عن استغفاره له ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].

وقد شرع الله لهذه الأمة أن تقتدي وتتأسى بنبي الله إبراهيم عليه السلام ، واستثنى من ذلك دعاء إبراهيم لأبيه المشرك، فإنه لا يجوز الدعاء للمشركين حتى ولو كانوا أقرب الأقربين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

٥- كيف يلقى إبراهيم أباه آزر في يوم القيامة:

أثنى الله على نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤] فقد كان أواهاً، أي: يكثر من قول: آه، وحليم، أي: واسع الصدر، ولذا صبر على أبيه وقومه، وبصّرهم، وجادلهم فأحسن جدالهم، وأورد لهم الأدلة الدالة على بطلان آلهتهم، وحذرهم، وعلمهم، حتى ألقوه في النار. ومن حلمه أنه يلقى أباه يوم القيامة، فيجده قد سرب بسربال من قطران، وعليه قترة وغبرة، فلا يسبه، ولا يشتمه، ولا يعرض عنه، وإنما يذكره بما كان من نصحه إياه، ودعوته إلى الله، فقال

له: «ألم أقل لك: لا تعصني»، فيقول: فاليوم لا أعصيك، ولكن ما الفائدة، فالإيمان والاعتراف بالذنب في ذلك اليوم، لا يغني من الله شيئاً، ولا ينجي من النار، انظر إلى الحديث الذي يخبرنا بلقاء إبراهيم عليه السلام أباه في يوم الدين، وما نتج عن ذلك اللقاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تُخزيني يوم يُبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرّمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ مُلْتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيُلقى في النار» [البخاري: ٣٣٥٠]. والذيخ: الضبع، أي: أن الله يمسخ أباه ضبعاً، حتى لا يعرف أحد أنه والد إبراهيم، فيخزى إبراهيم به.

٦- دعوة إبراهيم عليه السلام قومه لعبادة الله الواحد الأحد:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن إبراهيم عليه السلام دعا قومه إلى عبادة الملك الديان، وحاورهم وبيّن لهم أنهم في ضلال مبين، فقد سأل أباه وقومه عن التماثيل التي يعكفون على عبادتها فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء:٥٢] فأجابوه قائلين: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء:٥٣] فصرّح بتسفيههم، وأعلن لهم أنهم هم وآباؤهم في ضلال مبين ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء:٥٤].

فاستغربوا ما سمعوه منه وسألوه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء:٥٥] فأجابهم بتعريفهم بالرب الحق الذي يستحق أن يعبد، لأنه خالق السموات والأرض دون غيره من الآلهة ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء:٥٦].

وفي سورة الشعراء أخبر تعالى أن إبراهيم سأل أباه وقومه عن آلهتهم التي يعبدونها، فأخبروه أنهم يعبدون أصناماً، فيظلون عاكفين على عبادتها ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء:٦٩-٧١].

عند ذلك حاول أن يستثير تفكيرهم، ويجعلهم يتبصرون في مدى استحقاق هذه الآلهة للعبادة ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٣] لقد اعترفوا بأنهم لا يسمعون دعاءَهم، ولا ينفعونهم، ولا يضرونهم، ولكنهم تابعوا الآباء فيما كانوا يفعلونه ويعبدونه ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء:٧٤].

عند ذلك صرح لهم بأنه يعاديهم هم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وأنه لا يعبد إلا الله رب العالمين، وعرّفهم بالمعبود الحق الذي يستحق العبادة دون سواه، لأنه الخالق الهادي، المطعم المُسقي، الشافي، المميت المحيي، ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء:٧٥-٨١] هذا هو الإله الذي يستحق العبادة، أما عبادة الأصنام المصنوعة من حجارة أو حديد أو خشب التي لا تسمع من يدعوها، ولا تنفع ولا تضر فلا تستحق العبادة.

وفي موضع ثالث أمر إبراهيم عليه السلام قومه أن يعبدوا الله وحده ويتقوه، أي: يعملوا بطاعته ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت:١٦].

وصرح لهم بوضوح من غير لبس أنهم يعبدون أصناماً من دون الله، ويخلقون الإفك، أي: يفترون الكذب على الله تعالى، وقال لهم: إن آلهتهم التي يعبدونها لا

تملك رزقاً، وطلب منهم أن يطلبوا الرزق من الله، بدعائه والاستغاثة به، وأمرهم بعبادته وحده، والشكر له، لأنهم راجعون إليه، وسيحاسبهم على أعمالهم ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت:١٧].

ثم إن إبراهيم عليه السلام ألقى على مسامع قومه موعظة عظيمة، فقد أخبرهم أنهم إن كذبوه، فقد كذب من قبلهم أمم كثيرة، والرسول ليس في يده إدخال الإيمان في القلوب، وكل ما يملكه الرسول إبلاغ الحق الذي أرسل به ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت:١٨] وأمرهم أن يسيروا في أرض الله الواسعة، فينظروا كيف بدأ الله الخلق، ثم كيف يعيده، فالله ينبت النبات، ويحيي الأشجار، ويغرس النطف في الأرحام، فتصير ذرية، وكل ذلك يسير على الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت:١٩].

وأخبرهم في موعظته التي وعظهم بها بأن الله هو القادر على كل شيء، فهو يعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، وأخبرهم أنّ مرجعهم ومصيرهم إلى الله، وأعلمهم أنهم غير معجزين في الأرض ولا في السماء، فالله قادر عليهم محيط بهم، وأخبرهم أنه ليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت:٢٢] وأعلمهم أن الكفار يئسوا من رحمة الله عز وجل، فالذي يموت على الكفر خالد مخلد في النار ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت:٢٣].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن قومه بعد أن سمعوا منه هذه الموعظة البليغة لم يكن جوابهم إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ﴿فَمَا كَانَ

﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت:٢٤].

وبعد أن قذفوه في النار فأنجاه الله منها، قال لهم واعظاً ومذكراً ومبصراً: إن اتخاذهم الأوثان معبودات من دون الله تعالى إنما كان لاجتماع قلوبهم على مودتها ومحبتها في الحياة الدنيا، وفي يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً ومصيركم النار، وما لكم من الله من ناصر ولا معين ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٤-٢٥].

٧- تحطيم نبي الله إبراهيم عليه السلام لأصنام قومه:

بعد أن دعا إبراهيم أباه وقومه طويلاً إلى عبادة الله، عزم على تحطيم آلهتهم، وقال لهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء:٥٧]. وقد دعا قوم إبراهيم إبراهيم أن يشاركهم في عيدهم، حيث كانوا يضعون الطعام في بيت الآلهة، ثم يذهبون ليلهوا ويلعبوا، ثم يعودون إلى الطعام الذي باركته الآلهة، فيأكلون ويشربون، فاعتذر عن مشاركتهم بقوله: إني سقيم، فلما تولوا عنه، وانطلقوا إلى ملاعبهم، راغ إلى آلهتهم، أي: انطلق إلى بيت الآلهة، وحمل مطرقة وحطمها، وعندما نقرأ النص القرآني الذي يصف تحطيم إبراهيم للأصنام، فإننا نكاد نبصره عياناً، فها هو عليه السلام يخاطب الأصنام والطعام حاضر أمامها، فيقول لها: ألا تأكلون، فلما لم يجد منها جواباً قال لها: ألا تنطقون؟ فلما لم تجب، راغ عليها ضرباً باليمين.

لقد تناول المطرقة فضربها ضرب المغيظ المحنق الذي فقد صبره، فتناثرت أشلاؤها فوق الطعام، وفي الساحة التي كانت قائمة فيها، وجاء قومه متلهفين لتناول الطعام، ولكنهم يا لهول ما رأوه، رأوا حطام آلهتهم قد تناثر فوق الطعام، وملأ الساحة الواسعة، فأقبلوا إلى إبراهيم مغضبين حانقين، فقال لهم: أتعبدون الأصنام التي تنحتونها؟ والله هو الذي خلقكم، وخلق أعمالكم، فهو المستحق

للعبادة دون هذه الآلهة المفتراة ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٨٨-٩٦].

وفي سورة الأنبياء ذكر الله أن إبراهيم حطم الأصنام بعد حواره مع قومه، وبيانه لهم أن أصنامهم لا تستحق العبادة من دون الله، وتهددهم بأنه سيكيد أصنامهم بعد أن يولوا في عيدهم إلى ملاعبهم، فحطم تلك الأصنام، وترك الصنم الأكبر، فلم يحطمه، فلما جاؤوا إلى قاعة الأصنام تساءلوا عمن فعل بأصنامهم هذا الذي يشاهدونه، فقالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم، فطلبوا أن يؤتى به أمامهم ليسألوه، وقالوا له: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ فقال لهم ليستثير تفكيرهم، لعلهم يفيقون، ويدركون الخطأ الذي وقعوا فيه: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، لقد تقاتلت الآلهة، وقد غلب الصنم الكبير بقية الأصنام وحطمها، عند ذلك أفاقوا من غفلتهم، وقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون، أي: في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا ترى ولا تسمع، ولكن هذه الإفاقة لم تستمر إلا لحظات، ثم انتكسوا، وطأطؤوا رؤوسهم قائلين: لقد علمت أن هؤلاء لا ينطقون، عند ذلك اندفع في تأنيبهم بقوة على عبادتهم هذه الآلهة التي لا تضر ولا تنفع، وقال لهم موبخاً: أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون، قال تعالى حاكياً قول إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٥٧-٦٧].

٨- **إلقاء قوم إبراهيم إبراهيم في النار:**

بعد أن دعا إبراهيم قومه إلى التوحيد وعبادة الواحد الديان، وبصرهم بحقيقة الآلهة التي يعبدونها من دون الله، حطّم آلهتهم ليري عابديها مدى ضعفها، فبلغ الغضب بقومه مداه، وعزموا على إلقائه في النار، فبنوا له بنياناً وملؤوه حطباً، وأشعلوا فيه النار، ثم رموه في تلك النار، فأنجاه الله منها، وهذا نصر مبين، نصر الله به إبراهيم، وأخزى به قومه الكافرين، وجعلهم من الأسفلين ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات:٩٧-٩٨].

وقال الله في سورة الأنبياء واصفاً هذه الآية العظيمة التي أكرم الله بها رسوله وخليله إبرهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠].

ولا شك أن الكفار الذين نظروا إلى النار التي ألقوا فيها إبراهيم، ونظروا مذهولين، وهم يرون إبراهيم في وسط النار، كأنما هو في بستان، لا تضيره النار، ولا تحرقه، ولا تصيبه بأذى، فسبحان الله القادر على كل شيء.

٩- **مقالة إبراهيم عندما ألقي في النار:**

أخبرنا حبر الأمة عبدالله بن عباس أن إبراهيم عليه السلام عندما ألقاه قومه في النار قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» أي: الله كافينا، وهو نعم الوكيل والمعتمد، قال ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] [البخاري: ٤٥٦٣].

١٠- أمر الرسول ﷺ بقتل الوزغ لأنه كان ينفخ على إبراهيم وهو في النار:

أمرنا الرسول ﷺ بقتل الوزغ لأنه كان ينفخ على إبراهيم، فعن أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام» [البخاري: ٣٣٥٩].

وأورد ابن كثير رحمه الله ثلاثة أحاديث في هذا المعنى روتها عائشة، وعزاها إلى أحمد في مسنده، قال: روى نافع مولى ابن عمر عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم» وقال: كانت عائشة تقتلهن.

وذكر في الحديث الثاني أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : «أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه». تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وذكر الحديث الثالث، وذكر فيه أن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة، قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً، فقلت: يا أم المؤمنين.. ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإذا رسول الله ﷺ حدثنا: أن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ فإنه كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

وعزاه ابن كثير إلى ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به.

١١- مناظرة إبراهيم عليه السلام قومه بشأن الكواكب التي يعبدونها من دون الله:

ناظر نبي الله إبراهيم عليه السلام قومه في شأن الكواكب التي يعبدونها من دون الله، وقد أخبرنا ربنا - عز وجل - بهذه المناظرة، وما احتج إبراهيم فيها على قومه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا

جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام:٧٥-٨٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى معقباً على هذه الآيات: «وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة، لا تصلح للألوهية، ولا أن تُعبد مع الله عز وجل، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة، وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً: عدم صلاحية الكوكب لذلك، قيل: هو الزهرة، ثم ترقّى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقّى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً، فبين أنها مسخرة مقدرة مربوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت:٣٧]. ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام:٧٨] أي: طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام:٧٨-٨٠] أي: لست أبالي هذه

لآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة» [قصص القرآن: ١٣٨-١٣٩].

١٢- استعلاء نبي الله إبراهيم عليه السلام على تهديد قومه له:

أخبرنا ربنا - عز وجل - أن قوم إبراهيم حاجّوه وتوعدوه، وحاولوا إرهابه، فردّ عليهم، وأغلظ لهم القول، وأخبرهم أنه لا يخاف آلهتهم ولا يرهبها، ووبخهم قائلاً لهم: كيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنكم أغضبتم الله بشرككم ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، وسألهم: أي الفريقين أحق بالأمن، إن كانوا يعلمون، وقرر أن الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

١٣- ذكر مناظرة نبي الله إبراهيم نمرود عصره في الله:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام ناظر نمرود عصره، وكان كافراً ملحداً، وادعى الألوهية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال ابن كثير معقباً على هذه القصة: «يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادّعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبيّن كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملِك هو ملك بابل، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق: يعني أنه إذا أوتي بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس معارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيبٌ محض، وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدلّ على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده، ضرورة عدم قيامها بنفسها. ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة، من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها. ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] إنْ عَنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عَنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بيَّن وجود الصانع، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي هذه الشمس مسخرة كل يوم، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فائت بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما

يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعل فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها.

فبيّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجّح به عند جَهَلَةِ قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨]».

١٤- هجرة نبي الله إبراهيم من دياره إلى الأرض المباركة فلسطين:

أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يهاجر من دياره إلى الأرض المباركة فلسطين، وقد عنيت التوراة بذكر هذه الواقعة، وفصلت فيها القول، جاء في التوراة: «١وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. ٢فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ الْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ». ٤فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. ٥فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ٦وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. ٧وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ٨ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيل وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. ٩ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالاً مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر: ١-٩].

وقد أطالت التوراة في ذكر الله ما أعطاه الله لنبيه إبراهيم، وقد أعطاه للأنبياء من ذريته، منهم إسحاق ويعقوب وموسى وهارون وذكر عدداً من أنبياء بني

إسرائيل، ففي [سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر: ١٤-١٥] قال الله: «المَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، ١٥ لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ».

وقال لإبراهيم أيضاً: «أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا» [التكوين، الإصحاح الثامن عشر: ٧]. وجاء في هذا السفر: «١٨ فِي ذلِكَ اليَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الكَبِيرِ، نَهْرِ الفُرَاتِ» [التكوين، الإصحاح الخامس عشر: ١٨].

وقال الله لإسحاق: «لأَنِّي لَكَ وَلِنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ البِلاَدِ، وَأَفِي بِالقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. ٤ وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكَ جَمِيعَ هذِهِ البِلاَدِ» [التكوين، الإصحاح الرابع والعشرون: ٢-٤].

١٥- تصديق القرآن ما أخبرت به التوراة من هجرة إبراهيم إلى الأرض المباركة:

وما ذكرته التوراة من أمر الله لإبراهيم أن يهاجر إلى الأرض المباركة، وأنه سيبارك مباركيه، ويلعن لاعنيه، وما وعده الله به إبراهيم من إعطائه الأرض المباركة أيضاً صدقه القرآن.

فقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٦]. وقال: ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٢].

وما ذكرته التوراة من مباركة إبراهيم، وأنه يبارك مباركيه ويلعن لاعنيه، تحقق في أمتنا الإسلامية، فكل واحد من هذه الأمة عندما يصلي يدعو الله قائلاً: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم».

وتباركت في إبراهيم جميع قبائل الأرض، فالأمة الإسلامية تفخر بالانتساب إلى إبراهيم، وتلتزم منهجه وملته والدين الذي كان عليه هو الإسلام، ويفخر اليهود والنصارى بانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام، وإن خالفوا ملته ومنهجه.

وقد صدق القرآن التوراة في أن الله - تبارك وتعالى - أعطى الأرض المباركة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وبني إسرائيل إذا آمنوا واستقاموا على أمر الله تعالى، والنصوص المثبتة لهذا كثيرة، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء:٧١].

وقال تعالى متحدثاً عما أورثه رب العزة بني إسرائيل بعد إهلاكه فرعون وملئه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧] والأرض المباركة التي أورثها الله بني إسرائيل هي المسجد الأقصى وما حوله، قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

وقال الله عز وجل مخبراً عما أمر به موسى قومه: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة:٢١]. وهذه البشرى التي وعد الله بها إبراهيم تحولت إلى عهد بين موسى وربه، وبين بني إسرائيل وربهم، فالله يعدهم أن يكونوا أمة مصطفاة مختارة، مجتمعة في أرض فلسطين، بشرط أن يعبدوا الله وحده، ويقيموا دينه، وقد أشار الله إلى هذا العهد كثيراً في كتابه، كقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

ولكن هذا الذي أعطاه لبني إسرائيل نزع منهم بسبب كفرهم وتخليهم عن الدين الحق، وتحولت هذه العطية الإلهية الربانية إلى الفرع الثاني من سلالة إبراهيم،

وهم فرع نبي الله إسماعيل، ومن بنيه محمد ﷺ ، فقد أعطاه الله الأرض المباركة وغير ذلك من ديار الله الواسعة، وورث ملك كسرى وقيصر، وملك غيرهما، وليس بصحيح ما سطره اليهود في التوراة أن نسل إسماعيل ليس لهم شيء من ميراث إبراهيم عليه السلام .

رسالة من نبي الله إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة:

عندما أسرى بنبينا محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات العلا، قابل نبيَ الله إبراهيم في السماء السابعة، وحمّل نبي الله إبراهيم عليه السلام نبينا محمداً ﷺ ، وصية لهذه الأمة تنفع كل من عمل بها، فعن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة أرض طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» [حسن الألباني إسناده في الصحيحة: (١٠٥)، وعزاه إلى الترمذي، وأحمد في مسنده، والطبراني في المجمع، وابن حبان في صحيحه].

رابعا: هذه القصة في الميزان

قصة إبراهيم عليه السلام في التوراة فيها جوانب هي حق وصدق، صدقها القرآن الكريم، ومن ذلك أن إبراهيم كان من نسل نوح عليه السلام ، ومنها هجرته هو ولوط إلى الأرض المباركة، وأنه أعطاه وذريته الأرض المباركة.

وفيها جوانب غير صحيحة، فوالد إبراهيم هو آزر كما يقول القرآن، لا تارح كما تقول التوراة، ووالد إبراهيم كان ضالاً كافراً، قاطعه إبراهيم وعاداه كما يقول القرآن، ولم يهاجر مع إبراهيم إلى أرض كنعان كما تقول التوراة.

وإعطاء الله بني إسرائيل الأرض المباركة هذا صحيح أخبر به القرآن، ولكنهم عندما كفروا أعطاه الله إلى بني إسماعيل الذين اتبعوا النبي محمداً ﷺ .

وقد جاءنا القرآن بفيض من العلوم والأخبار عن نبي الله إبراهيم ليس لها وجود في التوراة، ومن ذلك ما حدثنا به عن فضائل إبراهيم ومكانته في الدنيا والآخرة، ومن ذلك دعوة إبراهيم أباه وقومه، وما قاله لهم، وما جرى بينه وبينهم، حتى انتهى به الأمر إلى تحطيمه الآلهة التي عبدوها من دون الله، فأرادوا إذلاله، فرموه في النار المشتعلة ليحرقوه، فأنجاه الله من النار.

وحدثنا رسولنا ﷺ عن لقاء إبراهيم بأبيه آزر في يوم القيامة، وأخبرنا بما يجري بينهما في ذلك اليوم، وحدثنا عن مصير والد إبراهيم وإلقائه في النار.

وحدثنا القرآن عن مناظرة إبراهيم بعض قومه في المعبودات التي يعبدونها من الكواكب والنجوم، وكيف أقام الحجة عليهم، وذكر كيف واجه إبراهيم قومه غير هياب ولا وجل، وكيف ناظر ملك عصره، وأقام عليه الحجة.

القصة السادسة

قصة سارة زوج إبراهيم عليه السلام والجبار

أولا: تقديم

تذكر التوراة أنه وقع لسارة زوج نبي الله إبراهيم عليه السلام قصتين مع جبارين، أحدهما فرعون مصر، والثاني أبيمالك أحد جباري فلسطين.

ثانيا: نص هاتين القصتين في التوراة

جاء في التوراة أن إبراهيم عليه السلام خرج من مصر إلى فلسطين «١١وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. ١٢فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. ١٣قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ». ١٤فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. ١٥وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، ١٦فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ. ١٧فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ. ١٨فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ ١٩لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا وَاذْهَبْ!». ٢٠فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالاً فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ» [سفر التكوين، الإصحاح العشرون: ١١-١٩].

وجاء في التوراة ذكر الواقعة الثانية التي تذكر أنها وقعت مع أبيمالك أحد جبابرة فلسطين في ذلك الزمان، قالت التوراة: «وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ. ٢وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. ٣فَجَاءَ اللهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْلٍ». ٤وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟ ٥أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلاَمَةِ قَلْبِي وَنَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هذَا». ٦فَقَالَ لَهُ اللهُ فِي الْحُلْمِ: «أَنَا أَيْضًا عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلاَمَةِ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هذَا. وَأَنَا أَيْضًا أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيَّ، لِذلِكَ لَمْ أَدَعْكَ تَمَسُّهَا. ٧فَالآنَ رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّيَ لأَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ». ٨فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِي الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ فِي مَسَامِعِهِمْ، فَخَافَ الرِّجَالُ جِدًّا. ٩ثُمَّ دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ وَبِمَاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيَّ وَعَلَى مَمْلَكَتِي خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ أَعْمَالاً لاَ تُعْمَلُ عَمِلْتَ بِي». ١٠وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِبْرَاهِيمَ: «مَاذَا رَأَيْتَ حَتَّى عَمِلْتَ هذَا الشَّيْءَ؟» ١١فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «إِنِّي قُلْتُ: لَيْسَ فِي هذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللهِ الْبَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِي لأَجْلِ امْرَأَتِي. ١٢وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً. ١٣وَحَدَثَ لَمَّا أَتَاهَنِي اللهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هذَا مَعْرُوفُكِ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قُولِي عَنِّي: هُوَ أَخِي». ١٤فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ. ١٥وَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «هُوَذَا أَرْضِي قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِي مَا حَسُنَ فِي عَيْنَيْكَ». ١٦وَقَالَ لِسَارَةَ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ أَخَاكِ أَلْفًا مِنَ الْفِضَّةِ. هَا هُوَ لَكِ غِطَاءُ عَيْنٍ مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَا عِنْدَكِ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، فَأُنْصِفْتِ». ١٧فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ، فَشَفَى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ. ١٨لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِيمَالِكَ بِسَبَبِ سَارَةَ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ» [سفر التكوين، الإصحاح العشرون: ١-١٨].

ثالثا: هذه القصة في الأحاديث الصحيحة

جاء ذكر إحدى هاتين القصتين في بعض الأحاديث الصحيحة، ولم تذكر الأحاديث الصحيحة إلا قصة واحدة، والأرجح أن هذه القصة في مصر، فإنه استقر عندنا أن هاجر كانت مصرية.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ : «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية بها ملك من الملوك - أو جبارٌ من الجبابرة - فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء، فأرسل إليه أنْ يا إبراهيم، من هذه التي معك؟ قال: أختي، ثم رجع إليها، فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إنْ على الأرض مؤمن غيري وغيرُك، فأرسل بها إليه فقام إليها، فقامت توضأ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك، وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ الكافر، فَغُطَّ حتى ركض برجله».

قال الأعرج: قال أبو سلمة ابن عبدالرحمن: إن أبا هريرة قال: «قالت: اللهم إن يَمُتْ يقال: هي قتلته، فأُرسلَ، ثم قام إليها، فقامت توضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ هذا الكافر، فغُطَّ حتى ركض برجله».

قال عبدالرحمن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: «اللهم إن يمت فيقال: هي قتله، فأُرسل في الثانية - أو: في الثالثة - فقال: والله ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها آجَرَ، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام ، فقالت: أشعرت أن الله كَبَتَ الكافر، وأَخْدَمَ وليدةً؟» [البخاري: ٢٢١٧].

وفي رواية أخرى في صحيح البخاري: عن أبي هريرة ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقال: بينا هو ذات

يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك، فدعت الله، فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حَجَبَتِهِ فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده، مَهْيَمْ؟ قالت: ردّ الله كيد الكافر - أو: الفاجر - في نحره، وأخدم هاجر».

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء [البخاري: ٣٣٥٨].

رابعا: هذه القصة في الميزان

يترجح لدي أن القصة التي تذكر أنها وقعت في مصر هي القصة الصحيحة، لأن هاجر على ما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة مصرية، والأحاديث التي وردت فيها القصة تصرح بأن إبراهيم ﷺ سئل عن امرأته فقال: هي أخته، فطلب من زوجته أن تصدقه بناءً على أنها أخته في الإسلام، وما ذكرته قصة التوراة أنها أخته من أبيه غير صحيح بحال، فإن الأخت من الأب أو الأم لا يجوز الزواج منها بحال.

وهذه القصة تذكر أن سارة كانت من أحسن الناس، وهذا صحيح صدّقه الرسول ﷺ في أحد الأحاديث، وسارة هي إحدى جدات نبي الله يوسف ﷺ الذي أوتي من الحسن ما لا مزيد عليه.

وليس بصحيح أن الفرعون أخذها أولاً ومكثت عنده زمناً، وليس بصحيح أن الفرعون أعطى إبراهيم البقر والغنم والحمير والإماء والعبيد والأتن والجمال، وليس بصحيح أن الله ضرب فرعون وبيته ضربات موجعة، وأن فرعون لما علم أنها زوجة إبراهيم اعتذر إلى إبراهيم، وأنبه لعدم إخباره أنها زوجته.

وإبراهيم أرسل زوجته إلى الجبار، ولم يرفض إرسالها، لأنه يعلم أن الله سيحفظها، ويكبت الفاجر، ولو شاء إبراهيم منعها بقوته لما استطاع، فجند الملك أقوى منه. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن إبراهيم أرسلها إلى ذلك الجبار، وقام هو يصلي، فلما وصلت إليه قامت تصلي وتدعو الله أن يعصمها منه، فأخذ الله ذلك الجبار، حتى كاد يختنق، فقالت داعيةً ربها: إنه إن يمت يقال هي قتلته، فأرسل، ثم أراد أن يأخذها ثانية، وربما ثالثة، وكل مرة تدعو عليه، فيفعل به كالأولى، عند ذلك أمر بإطلاق سراحها، وأعطاها هاجر، ولم يصل من ذلك الجبار إلى إبراهيم شيء من المال أو الحيوان أو غيرهما.

وفي الحديث الثاني أنه لما أخذ وكاد يختنق طلب منها أن تدعو الله ليفك كربته، ووعدها بأن يطلقها، ففعلت، فأطلقها في المرة الثانية أو الثالثة.

أما القصة الثانية فالله أعلم بمدى صحتها، ولكن ما ذكرته القصة من صلاح أبيمالك فهو بعيد، فإنه وإن أرجع سارة إلى إبراهيم، ولكنه أخذها منه من غير رضاه واختياره، وهذا فعل الجبابرة الظالمين، وليس فعل الأخيار الصالحين.

القصة السابعة

رؤيا إبراهيم عليه السلام ذريته في أرض غربتهم

أولا: تقديم

تذكر التوراة أن الله أرى إبراهيم عليه السلام ذريته وقد تغربوا في أرض ليست لهم، وأنهم مكثوا في ديار الغربة زمناً، وأنهم استعبدوا واستذلوا في تلك الديار، ثم رأى أنهم سيخرجون من ديار الغربة بأموال جزيلة، ويرجعون إلى الأرض المباركة في فلسطين.

ثانيا: هذه القصة في التوراة

جاء في التوراة: «١٢وَلَمَّا صَارَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْمَغِيبِ، وَقَعَ عَلَى أَبْرَامَ سُبَاتٌ، وَإِذَا رُعْبَةٌ مُظْلِمَةٌ عَظِيمَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ. ١٣فَقَالَ لأَبْرَامَ: «اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ. ١٤ثُمَّ الأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا، وَبَعْدَ ذلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكٍ جَزِيلَةٍ. ١٥وَأَمَّا أَنْتَ فَتَمْضِي إِلَى آبَائِكَ بِسَلاَمٍ وَتُدْفَنُ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ. ١٦وَفِي الْجِيلِ الرَّابعِ يَرْجِعُونَ إِلَى ههُنَا، لأَنَّ ذَنْبَ الأَمُورِيِّينَ لَيْسَ إِلَى الآنَ كَامِلاً». ١٧ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ فَصَارَتِ الْعَتَمَةُ، وَإِذَا تَنُّورُ دُخَانٍ وَمِصْبَاحُ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ» [سفر التكوين، الإصحاح الخامس عشر: ١٢-١٧].

ثالثا: هذه القصة في الميزان

لا يوجد في قرآننا ولا صحيح سنّة نبينا خبر عن هذا الغيب الذي أخبر الله به نبيه إبراهيم، وقد يكون صحيحاً، وقد يكون غير صحيح، والله أعلم بمدى

صحته، فإن كان صحيحاً فهو خبر عن رحيل حفيده إسرائيل مع أبنائه وأبنائهم من فلسطين إلى مصر، عندما كان نبي الله يوسف عزيزاً لمصر، فأقاموا هناك دهراً، وتسلط عليهم فرعون وملؤه، وبلغ الحال بهم إلى أن يقتل فرعون أبناءهم، ويستحيي نساءهم، حتى بعث الله موسى، فطالب فرعون أن يعطيه بني إسرائيل ليخرج بهم إلى فلسطين، فأبى فأرسل الله عليه الآيات، ثم خرج موسى بهم في الليل، فلما علم بهم فرعون وجنده أدركوهم مصبحين، فشق الله لبني إسرائيل طريقاً في البحر سلكوه فنجوا، ودخله فرعون وجيشه، فانطبق البحر عليهم فهلكوا.

وفي هذه القصة دليل على أن بني إسرائيل في عصور أنبيائهم لم يعطوا مصر، لأن إبراهيم قيل له في الرؤيا: «لأن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم».

القصة الثامنة

تكثير الله ذرية إبراهيم الطيبة

أولا: تقديم

شكى نبي الله إبراهيم خليل الرحمن إلى ربه عقمه وعدم وجود نسل له، فأخبره ربه أنه سيكثر نسله، ويجعل منه أمماً كثيرة، وقد حقق الله لإبراهيم ما وعده به.

ثانيا: نص هذه القصة في التوراة

جاء في التوراة: «١بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلاً: «لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا». ٢فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا، وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟» ٣وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلاً، وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي». ٤فَإِذَا كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ قَائِلاً: «لاَ يَرِثُكَ هذَا، بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ يَرِثُكَ». ٥ثُمَّ أَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجٍ وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا». وَقَالَ لَهُ: «هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». ٦فَآمَنَ بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا. ٧وَقَالَ لَهُ: أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا» [سفر التكوين، الإصحاح الخامس عشر: ١-٧].

ثالثا: تحقق هذا الوعد لإبراهيم

تحقق هذا الوعد لنبي الله إبراهيم عليه السلام، فقد رزق الله إبراهيم ولدين: إسماعيل، وولد اثنا عشر ولداً، وجاء العرب من ذرية إبراهيم، وبعث من العرب نبينا محمد ﷺ، وأصبحت أمته أمة عظيمة.

وولد لإبراهيم إسحاق، وكان من ذرية إسحاق يعقوب، وولد له اثنا عشر ولداً، وهؤلاء هم ذرية يعقوب الذي تسمى باسم إسرائيل، وذريته هم بنو إسرائيل.

وقد وعد الله إبراهيم بتكثير ذريته حتى يصبحوا بعدد نجوم السماء، وقد قطع الله لإبراهيم ميثاقاً بأن يعطي نسله الأرض المباركة، ويعطيه أراضي كثير من الأمم والشعوب، وقد ملك بنو إسرائيل الأرض المباركة في فلسطين، لكن بقية الأراضي التي ذكر الله أنه سيعطيها لإبراهيم، تحقق وعد الله بإعطائها له من خلال إعطائها لمحمد ﷺ، وهو من ذرية إبراهيم من ابنه إسماعيل، بل وعد الله رسوله محمداً ﷺ بأن يعطيه أكثر من ذلك.

رابعا: التعقيب على هذا النص من التوراة

يوجد عندنا في الأحاديث الصحيحة ما يدل على صدق خبر التوراة في أن إبراهيم تزوج هاجر فولدت له إسماعيل، وفي أحد الأحاديث إشارة إلى أن هاجر هربت من سارة، ففي حديث ابن عباس عند البخاري الذي سأسوقه بتمامه قوله: «أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قبل أم إسماعيل، اتخذت مِنْطَقاً لِتُعَفِّي أثرها على سارة» فهذا يدل على هربها من سارة مولاتها.

أما هربها على هذا النحو الذي ذكرته التوراة وهي حامل بإسماعيل، ومقابلة ملاك الرب لها، وإخبارها بأنها ستلد ولداً، وسيبارك الله تعالى فيه، وسيكون من نسله أمة عظيمة، وطلب الملك من هاجر أن ترجع إلى مولاتها وتخضع لها فلا وجود لما يدل عليه على هذا النحو في القرآن. وكذلك ما ذكرته التوراة من أن الله سمع لإبراهيم في إسماعيل، وأنه سينميه ويكثره، وسيلد اثني عشر رئيساً، ليس عندنا ما يذكره على هذا النحو.

أما الفترة التالية التي أخذ فيها إبراهيم عليه السلام هاجر وأخذ فيها ابنها إسماعيل إلى موضع البيت الحرام الذي سيبنيه إبراهيم وإسماعيل فإنها في غاية الوضوح، فقد

حدثتنا عنها النصوص الصحيحة من الأحاديث بتفصيل، أما المعلومات الموجودة عنها في التوراة فهي معلومات مبتسرة وغائمة ومغلوطة، وفيها اضطراب.

إن ما ذكرته التوراة من أن سارة أمرت إبراهيم بطرد هاجر وابنها من المنزل الذي تسكنه، وأن إبراهيم وضع خبزاً وقربة ماء وإسماعيل على عاتق هاجر، وأخرجها من المنزل، فهي صورة قاسية لا تليق بنبي الله إبراهيم ولا بسارة، ولا بهاجر وإسماعيل، وما كان لإبراهيم أن يكون بهذه القسوة البالغة مع زوجه وابنه، وما كان لسارة، وهي زوجة نبي عظيم، وذات عقل وافر أن ترضى بذلك.

وقد أخطأ الذين حرفوا التوراة عندما زعموا أن إسماعيل كان في الثالثة عشرة من عمره عندما فعل به ما أخبرت به التوراة، والصواب الذي دلت عليه الأحاديث أنه كان رضيعاً، ولذلك تمكنت من حمله، ولو كان في سن الثالثة عشرة فلا يحتاج إلى حمل كما أخبرت بذلك التوراة في موضعين، فابن الثالثة عشرة بإمكانه أن يمشي ويجري ويتحرك، خاصة إذا كان وافر الصحة، طيب النشأة، كما كان حال إسماعيل عليه السلام.

إن الأحاديث الصحيحة الموجودة في أصح الكتب عندنا بعد القرآن الكريم تدلنا على أن الله هو الذي أمر إبراهيم بالذهاب بهاجر وإسماعيل ووضعهما عند بيته المحرم، وأراد من وراء ذلك أن يبني الابن وأباه بعد ذلك البيت الحرام، وأراد أن تنشأ من إسماعيل أمة عظيمة عريقة كبيرة وكثيرة في ذلك المكان.

وقد أخذ إبراهيم هاجر وإسماعيل بنفسه إلى المكان الذي طلب الله أن يضعهما فيه، وعندما وضعهما تحت دوحة كانت قرب الموضع الذي سيبني فيه المسجد، وتركهما هناك تبعته سارة تناشده أن لا يتركهما في هذا الموضع، فلما رأت أنه لا يلتفت إليها سألته: آلله أمرك بذلك؟ فقال: نعم، عند ذلك رجعت عنه، وقالت: إذن فإن الله لن يضيعنا.

وذكرت لنا الأحاديث الصحيحة أن إبراهيم بعد أن رجعت عنه هاجر، وغاب هو عن شخصها استقبل مكان البيت الحرام وتوجه إلى الله عز وجل قائلاً:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧] هذا هو نبي الله إبراهيم المطيع لله المخبت له، يضع زوجه وابنه بوادٍ غير ذي زرع كما أمره ربه، ويتوجه إلى الله يدعوه في ولده في هذا الوادي الذي لا طعام فيه ولا ماء ولا أحياء، والهدف واضح لديه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقد دعا لهم بأن يحبب قلوب العباد لتؤم هذا المكان، وتسكن فيه، ودعا لهم أن يرزقهم من الطعام ما يجعلهم يشكرون.

وقد تكفل الله بالغلام وأمه، فأرسل جبريل عليه السلام فأخرج لهما الماء، وطمأنهما على وجودهما في ذلك المكان، وهيأ لهما من رغب في مساكنتهما في ذلك المكان، ثم بنى بعد ذلك إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام، ونشأت هناك مدينة عظيمة هي مكة، وأصبحت مقصد المسلمين في كل عام للحج والعمرة، يؤمها في كل عام عدة ملايين في هذه الأيام.

وأخبرتنا الأحاديث الصحيحة أن هاجر بقيت في المكان الذي وضعها فيه نبي الله إبراهيم مع رضيعها، تأكل من التمر، وتشرب من الماء، وكان هذا التمر وهذا الماء هو ما جلبه إبراهيم معه وتركه عندهما، وما ذكرته التوراة من أن الذي جاء به إبراهيم خبزاً غير صحيح.

فلما نفذ ما عندها من تمر وماء، سعت حتى وقفت على الصفا، ثم سعت إلى المروة، تقوم على كل واحد من الجبلين، ثم تنظر هنا وهناك، لعلها ترى من تلوذ به للحصول على ماء وطعام، وكانت تسعى سعي المجهد الفقير المحتاج إلى عون الله ورعايته، وكان هذا السعي أول سعي وقع بين الصفا والمروة.

وبعد أن أتمت سبعة أشواط سمعت صوتاً، وعندما أصغت بقوة، وجدت الصوت يأتي من مكان طفلها، فلما وصلت إلى هناك وجدت جبريل يضرب

بجناحه أو عقبه الأرض، فانبثق الماء، فأدهشها ذلك، فأخذت من الماء فأسقت غلامها، وشربت، وزمزم التي فجرها جبريل عند الموضع الذي سيبنى فيه البيت، «طعام طُعْم، وشفاءُ سُقْم» كما أخبرنا رسولنا ﷺ، فكان يكفي هذا الماء عن الطعام والشراب، وقد طمأن ملاك الرب هاجر، وأخبرها أنه سيكون في ذلك الموضع بيت الله، وسيبنيه إبراهيم وهذا الغلام أي إسماعيل.

وفي الأحاديث ذكر ما كان يقوم به إبراهيم بين الفينة والفينة من الذهاب إلى مكة، ليستطلع تركته هناك، حتى ماتت هاجر، وكبر إسماعيل، وتزوج، ثم أمره إبراهيم بتطليق زوجته، فتزوج أخرى، ثم بنى بعد ذلك مع أبيه البيت الحرام.

القصة التاسعة
قصة نبي الله إسماعيل بن نبي الله إبراهيم

أولا: تقديم

تذكر التوراة أن إبراهيم بلغ الخامسة والثمانين من عمره ولم يرزق بالذرية، مع أن ربه وعده بها، فلما رأت ساراي أنها لا تنجب، أعطت إبراهيم جاريتها هاجر، وأمرت إبراهيم أن يدخل بها، وكان ذلك بعد إقامة إبراهيم في أرض كنعان بعشر سنوات، فدخل بها، وحبلت، وصغرت مولاتها في عينها، فشكت سارة إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي، فهربت من وجهها، فقابلت ساراي ملاك الرب، وأخبرته أنها هربت من مولاتها، فطلب منها أن تعود إلى مولاتها، ووعدها بأن الله سيكثر نسلها من الولد الذي ستلده.

وتذكر التوراة أن هاجر ولدت لإبراهيم ولداً سماه إسماعيل، وكان عمر إبراهيم ستاً وثمانين سنة في ذلك الوقت.

وفي موضع آخر أخبر الرب إبراهيم أنه سمع له في إبراهيم، وأنه سيباركه، ويكثره، وسيلد اثني عشر رئيساً، ويجعله أمة كثيرة.

وذكرت التوراة أن نبي الله إبراهيم اختتن وختن إسماعيل، وكان إسماعيل في السنة الثالثة عشرة من عمره، وإبراهيم في التاسعة والتسعين من عمره.

وفي موضع ثالث من سفر التكوين ذكرت التوراة أن سارة أمرت إبراهيم بطرد هاجر وابنها إسماعيل، لأنها رأت إسماعيل يمزح، ولأنه لا يرث مع إسحاق

أحد غيره وذكرت التوراة أن إبراهيم أخذ خبزاً وقربة ماء ووضعها على عاتق أم إسماعيل ووضعهما على كتف هاجر، ووضع ابنها أيضاً على كتفها، وصرفهما.

وذكرت التوراة أن هاجر خرجت وتاهت في برية بئر السبع، وذكرت حالها بعد أن فرغ الماء منها، إلى أن جاءها ملاك الرب، وهدأ من روعها، وذكرت أنها بعد ذلك رأت بئر ماء فسقت الغلام وشربت، ونمى إسماعيل رامي قوس، وسكن برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من مصر.

ثانيا: نص هذا الخبر في التوراة

جاء في التوراة: «١وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ، ٢فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. ٣فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ المِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. ٤فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ. وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. ٥فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». ٦فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَتُكِ فِي يَدِكِ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا. ٧فَوَجَدَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ المَاءِ فِي البَرِّيَّةِ، عَلَى العَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ. ٨وَقَالَ: «يَا هَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟». فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلاَتِي سَارَايَ». ٩فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». ١٠وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الكَثْرَةِ». ١١وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. ١٢وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ». ١٣فَدَعَتِ اسْمَ الرَّبِّ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعَهَا: «أَنْتَ إِيلُ

رُئِي». لأَنَّهَا قَالَتْ: «أَههُنَا أَيْضًا رَأَيْتُ بَعْدَ رُؤْيَةٍ؟» ١٤لِذلِكَ دُعِيَتِ الْبِئْرُ «بِئْرَ لَحَيْ
رُئِي». هَا هِيَ بَيْنَ قَادِشَ وَبَارَدَ. ١٥فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ
الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ». ١٦كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ
إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ» [سفر التكوين، الإصحاح السادس عشر: ١-١٦].

وجاء في التوراة أن الله أعطى إبراهيم عهداً في أن يكون أباً للأمم، وأخبره أنه سيرزقه بإسحاق وسيكثر إسحاق وإسماعيل، وذكرت أنه اختتن وإسماعيل وهو في سن التاسعة والتسعين.

«١ولَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللهُ
الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، ٢فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا».
٣فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلاً: ٤«أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ،
وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، ٥فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ
إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. ٦وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا،
وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. ٧وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي
أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ
بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ». ٩وَقَالَ اللهُ
لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. ١٠هذَا
هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ،
١١فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. ١٢اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ
يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ
مِنْ نَسْلِكَ. ١٣يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ
عَهْدًا أَبَدِيًّا. ١٤وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ
مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي». ١٥وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو
اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. ١٦وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا

فَتَكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ». ١٧فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ،
وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: «هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟».
١٨وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ للهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!». ١٩فَقَالَ اللهُ: «بَلْ سَارَةُ
امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ
بَعْدِهِ. ٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا.
اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. ٢١وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي
تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ». ٢٢فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَهُ صَعِدَ اللهُ
عَنْ إِبْرَاهِيمَ. ٢٣فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وِلْدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُبْتَاعِينَ
بِفِضَّتِهِ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كَمَا
كَلَّمَهُ اللهُ. ٢٤وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ،
٢٥وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. ٢٦فِي ذلِكَ
الْيَوْمِ عَيْنِهِ خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ. ٢٧وَكُلُّ رِجَالِ بَيْتِهِ وِلْدَانِ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعِينَ
بِالْفِضَّةِ مِنِ ابْنِ الْغَرِيبِ خُتِنُوا مَعَهُ» [سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر: ١-٢٧].

وذكرت التوراة أن إبراهيم أخرج هاجر وإسماعيل من بيته، فذهبت إلى برية فاران، وسكن إسماعيل هناك، جاء في التوراة:

«٩وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، ١٠فَقَالَتْ
لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي
إِسْحَاقَ». ١١فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. ١٢فَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ:
«لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ
اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ
نَسْلُكَ». ١٤فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا
إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. ١٥وَلَمَّا فَرَغَ
الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، ١٦وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ

بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: «لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. ١٧ فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. ١٨ قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». ١٩ وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. ٢٠ وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. ٢١ وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» [سفر التكوين، الإصحاح الحادي والعشرون: ٩-٢١].

ثالثا: الأحاديث الصحيحة في قصة إسماعيل وأمه

جاء في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: «أول ما اتخذ النساء المِنطَقَ من قِبَل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتُعفِّيَ أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مِراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيعنا. ثم رَجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبَّط - فانطلقتْ كراهيةَ أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم

تَرَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي: فذلك سعي الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صهِ - تريد نفسها - ثم تسمّعت أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه، وتقول: بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سِقائها، وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ : يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً.

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيْعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُمَ - أو أهل بيت من جُرهم - مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرياً - أو: جَرِيَّيْن - فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا - قال: وأم إسماعيل عند الماء - فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ : فألْفَى ذلك أمَّ إسماعيل، وهي تحب الإنسَ، فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهُم، وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم.

وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يُطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم،

فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجُك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلَّقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم، قالت: اللحم. قال: فما شرابكم. قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ : ولم يكن لهم يومئذ حبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يُوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل: قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير.

قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوْحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالدُ بالولد، والولدُ بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتُعينُني؟ قال: وأُعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧].

قال: فجعلا يبنيان حتى يَدُورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧]» [البخاري: ٣٣٦٤].

وفي رواية أخرى في الصحيح: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شَنَّةٌ فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشَّنّة، فيدرُّ لبنها على صبيها، حتى قدم مكة، فوضعها تحت دوْحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتَّبعته أم إسماعيل، حتى لما بلغوا كداءً نادته من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله.

قال: فرجعت، فجعلت تشرب من الشَّنَّة، ويدرُّ لبنها على صبيها، حتى لما فَنِيَ الماء، قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ، لعلي أُحسُّ أحداً. قال: فذهبت فصعِدَت الصفا، فنظرت، ونظرت، هل تحس أحداً؟ فلم تحسَّ أحداً، فلما بلغت الوادي سعت، وأتت المروة، ففعلت ذلك أشوطاً، ثم قالت: لو ذهبت، فنظرت ما فعل؟ تعني الصبي، فذهبت، فنظرت، فإذا هو على حاله، كأنه يَنْشغ للموت، فلم تُقرَّها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت، لعلي أحسُّ أحداً، فذهبت فصعِدت الصفا، فنظرت ونظرت، فلم تحسَّ أحداً، حتى أتمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوتٍ، فقالت: أغِثْ إن كان عندك خير، فإذا جبريل. قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدهَشَت أم إسماعيل، فجعلت تحفز.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ : لو تركته كان الماء ظاهراً، قال: فجعلت تشرب من الماء، ويدر لبنها على صبيِّها.

قال: فمر ناس من جُرْهُمَ ببطن الوادي، فإذا هم بطير، كأنهم أنكروا ذاك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء، فبعثوا رسولهم، فنظر، فإذا هم بالماء، فأتاهم، فأخبرهم، فأتوا إليها، فقالوا: يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك - أو: نسكن معك؟ - فبلغ ابنها، فنكح فيهم امرأةً.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مُطَّلِعٌ تَرِكَتي. قال: فجاء فسلَّم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد. قال: قولي له إذا جاء: غيِّر عتبة بابك، فلما جاء أخبرته، قال: أنت ذاك، فاذهبي إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مطّلعٌ تَرِكَتي. قال: فجاء، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، فقالت: ألا تنزل فتَطعَمَ، وتَشرَبَ؟ فقال: وما طعامكم، وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء، قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم، قال: فقال أبو القاسم ﷺ : بركة بدعوة إبراهيم صلى الله عليهما وسلّم.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يُصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك أمرني أن أبني له بيتاً، قال: أطعْ ربك، قال: إنه قد أمرني أن تُعينني عليه، قال: إذن أفعلَ، أو كما قال.

قال: فقاما، فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧]».

قال: حتى ارتفع البناء، وضَعُفَ الشيخ على نقل الحجارة، فقام على حَجَر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧] [البخاري: ٣٣٦٥].

ثناء الله على إسماعيل عليه السلام:

أثنى الله على نبيه إسماعيل عليه السلام ، فذكر الله إيحاءه إليه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [النساء:١٦٣]. وذكر الله أنه ممن فضلهم على العالمين،

قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنعام:٨٦] وأثنى عليه ربّه بأنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم:٥٤-٥٥].

وأثنى عليه رب العزة بمشاركته أباه نبي الله إبراهيم في بناء البيت الحرام ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [البقرة:١٢٧] وعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة:١٢٥].

وأثنى الله على نبيه إسماعيل أنه كان من الصابرين ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥] وأنه كان من الأخيار ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص:٤٨].

وقد ذكرت التوراة ثناء الله على إسماعيل، وكيف سيجعل الله منه أمّة عظيمة، ويباركه ويثمره ويكثره، وذكرت التوراة أن إسماعيل كان ينمو في برية فاران رامي قوس.

وهذا صحيح، فقد ذكرت الأحاديث الصحيحة أن إبراهيم عندما جاء ولده في المرة الأولى والثانية وجده خرج من بيته يطلب الصيد، وفي المرة الثالثة وجده جالساً تحت دوحة يبري نبلاً.

وقد مرّ رسول الله ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً» [البخاري: ٢٨٩٩].

رابعا: هذه القصة في الميزان

في الأحاديث الصحيحة إشارة إلى أن هاجر هربت من سيدتها سارة، ولكن لم توضح لنا أبعاد هذا الهرب ولا مداه كما فعلت التوراة، فالله أعلم بمدى صحة ما جاء في التوراة من تفصيلات.

وما ذكرته التوراة من حمل هاجر من إبراهيم وولادتها إسماعيل صحيح لا شك في صحته كما دلَّ عليه القرآن ودلت عليه الأحاديث، وما ذكرته التوراة من أن إبراهيم استجاب لسارة في طرد إبراهيم لهاجر، وإعطائها خبزاً وماء ووضع إسماعيل على عاتقها غير صحيح، فإبراهيم أخذ هاجر وإسماعيل وقربة ماء وتمراً لا خبزاً، وجاء بهما إلى مكة وأنزلهما إلى قرب موضع البيت الحرام وتركهما هناك.

وفيه مدى عناية إبراهيم بإسماعيل وأمّه، يدلّ على ذلك الدعاء الذي دعا ربه به، فقد دعا ربه أن يحبب لبعض خلقه السكنى في ذلك المكان، وأن يرزق سكان ذلك المكان من الثمرات، وذكر الحديث أن إبراهيم كان يأتي يتفقد إسماعيل وهاجر مرة بعد مرة، فالأمر ليس كما صورته التوراة أن إبراهيم استجاب لزوجته سارة، فأخرج هاجر من منزله، بعد أن أعطاها ما أعطاها، وقد صورت التوراة إبراهيم بأنه كان قاسي القلب، ليس لديه أي قدر من الحنان والمحبة، فدفع بهما إلى قارعة الطريق، وأغلق الباب وراءَهما.

وما قررته التوراة أن سارة أمرت بطرد إسماعيل لما رأته يمزح وكان عمره ثلاثة عشر عاماً، لأنه لا يرث مع ابنها، غير صحيح، والصواب أنه كان رضيعاً عندما أخذه إبراهيم وأمه ووضعه هناك عند موضع بيت الله الحرام.

وما ذكرته التوراة بعد ذلك عن هاجر وإسماعيل وما وقع لهما قليل جداً وغاثم وضعيف، وقد ذكر لنا القرآن وصحيح الحديث ما جرى لهما، فقد عطش الغلام بعد نفاذ التمر والماء وجاع، وبحثت هاجر عن الماء والطعام وسعت بين الصفا والمروة، تشرف في كل مرة من على جبل الصفا، ثم جبل المروة، فتنظر هل ترى

أحداً، ثم جاء جبريل ﷺ، فبحث بجناحه أو عقبه، فانبثق الماء، وطمأن هاجر بما سيكون في مقبل الأيام، من بنيان إسماعيل وأبيه إبراهيم البيت العتيق، وأن إسماعيل سيكبر، وتكون منه أمة عظيمة.

وبئر الماء التي ذكرت التوراة أن أم إسماعيل رأتها، وفصلت الأحاديث كيف حفرها جبريل، وأخرج منها الماء هي بئر زمزم، وماؤها خير ماء على وجه الأرض، ففي الحديث الصحيح، «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم» [صححه الألباني، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، والضياء، وذكر أنه خرجه في الصحيحة].

وذكر الحديث كيف جاء جبريل وحفر بجناحه زمزم، ولم تكن البئر محفورة كما زعمته التوراة، فأبصرتها هاجر فأسقت الماء وشربت.

وما ذكرته التوراة أن الله أعطى إبراهيم وذريته الأرض المباركة صحيح أيضاً، وقد سبق ذكر ما يدل على ذلك من القرآن، والذي ليس بصحيح هو اختصاص إسحاق بهذا الميراث، فهو شامل لذرية إسحاق وذرية إسماعيل، وعندما كفر بنو إسرائيل أعطى الله الأرض المباركة والأراضي التي تمتد من النيل إلى الفرات لهذه الأمة.

وتكليف إبراهيم وذريته في التوراة بالختان صحيح، وهو واجب عندنا في ديننا، وتمتاز الأمة الإسلامية والأمة اليهودية بإجراء الختان للذكور، وما ذكر في هذا المقطع عن ولادة إسحاق سيأتي بيانه.

وما ذكر في التوراة أن إبراهيم اختتن وعمره تسعة وتسعون عاماً غير صحيح، ففي بعض الأحاديث الصحيحة أنه اختتن وعمره ثمانون عاماً [البخاري: ٣٣٥٦، ومسلم: ٢٣٧٠].

القصة العاشرة

أمر الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل

أولا: تقديم

ذكرت التوراة أن الله أمر نبيه إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه وحيده إسحاق، ثم ناداه ملاك الرب عندما بدأ بالتنفيذ؛ فنهاه عن إتمام الذبح، وأخبرت التوراة أن الله فدى إسحاق بكبش وجده إبراهيم قريباً منه، وقد ذكر القرآن هذه الواقعة بوضوح كبير، ولكنه لم يسمّ أي ولدي إبراهيم هو الذي أمر الله بذبحه.

ولكن الذي يتأمل في القصة الواردة في التوراة يجد أن الذبيح كان إسماعيل، وأن القول بأنه إسحاق يوقع التوراة في اضطراب عظيم.

ثانيا: نص هذه القصة في التوراة

جاء نبأ هذه القصة في التوراة، ففي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين: «١وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». ٢فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ». ٣فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ. ٤وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، ٥فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا ههُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا».

٦فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ
وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. ٧وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي!». فَقَالَ:
«هأَنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟» ٨فَقَالَ
إِبْرَاهِيمُ: «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. ٩فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى
الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ
وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ١٠ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ.
١١فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا»
١٢فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ
اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي».(1) ١٣فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ
وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا
عَنِ ابْنِهِ. ١٤فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي
جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى». ١٥وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ ١٦وَقَالَ: «بِذَاتِي
أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ،
١٧أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ
الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، ١٨وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ
أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي». ١٩ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلاَمَيْهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى
بِئْرِ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِئْرِ سَبْعٍ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني والعشرون: ١-١٩].

ثالثا: التعقيب على هذه القصة

القرآن يصدق التوراة في أصل القصة، أي: يصدقها في أن إبراهيم رأي في رؤيا منامه أنه يذبح أحد ولديه، ولم يحدد القرآن اسم الولد بصريح العبارة، ولكن

---

(١) هذا المقطع على وقوع النسخ في شريعة التوراة، وأن إنكار اليهود للنسخ إنكار للحقّ الذي أقرته شريعتهم.

أصحاب العقول الواعية يستطيعون أن يستنبطوا من الآيات القرآنية أن الذبيح هو إسماعيل ﷺ، وليس هو إسحاق.

لقد كان نص التوراة خالياً من اسم إسحاق، ثم أقحم الذين حرفوا التوراة اسم إسحاق في هذا النص، فأوجدوا اضطراباً عظيماً في النص، إن النص المحرف يأمر إبراهيم أن يذبح ولده وحيده إسحاق، وإسحاق لم يكن يوماً وحيد أبيه إبراهيم ﷺ، لقد ولد إسماعيل قبل إسحاق بثلاثة عشرة سنة، ففي سفر التكوين أن إبراهيم كان في سن السادسة والثمانين عندما ولد له إسماعيل، [سفر التكوين، الإصحاح السادس عشر:١٦].

وفي [الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين، فقرة: ٥] أن إبراهيم كان ابن مائة سنة عندما ولد له إسحاق.

هذه النصوص من التوراة تظهر الخلل الكبير الذي أوجده إقحام اسم إسحاق في النص، فإسحاق وإن كان حبيباً لإبراهيم، إلا أنه لم يكن وحيده بحال، والذي كان وحيده هو إسماعيل، فقد ولد قبل إسحاق بثلاثة عشرة سنة أو أربع عشرة سنة، والذي دعا اليهود إلى هذا التحريف للتوراة حسدهم العرب على هذه الفضيلة التي حازها أبوهم إسماعيل، ولكن الفضائل لا تحاز بالكذب على الله، والكذب على رسل الله.

والنص في التوراة فيه قصور ومخالفة للحقيقة، ففيه أن إبراهيم لما رأى الرؤيا لم يخبر ابنه بما رآه، وأخذ إبراهيم ابنه معه إلى الموضع الذي أراد ذبحه فيه، ثم ربطه، وأخذ السكين لذبحه.

أما القرآن فقد ذكر أن إبراهيم قال لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات:١٠٢] فأعلن الابن موافقته من غير تردد ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢].

وهذا الذي ذكره القرآن هو الحقيقة، وغيره كذب، وفيه بيان فضيلة للولد الذي يراد ذبحه، فإنه استجاب لما طلب الله من أبيه فيه، وهو خير من ذلك الذي ذكرته التوراة، خير من الولد المربوط للذبح، ولا يدري ما يراد به.

لقد أعلمنا الله في القرآن أن الأب والابن استسلما لأمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات:١٠٣] أما في خبر التوراة فإن الذي أسلم هو إبراهيم أما الولد الذي يراد ذبحه، فلم يكن يعلم ما يراد به، ولم يكن منه استسلام، بل كان مربوطاً فاقداً للإرادة.

وما ذكرته التوراة من أن ملاك الرب نادى إبراهيم ناهياً إياه عن ذبح ولده، وأن إبراهيم وجد كبشاً مربوطاً في الغابة صحيح، فقد ذكره القرآن بصريح العبارة ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٧]، ولكن قوله أنه كان مربوطاً في الغابة الله أعلم بمدى صحته.

والقرآن وإن صدّق التوراة فيما أخبرت فقد صاغ المعنى بعبارة دقيقة ومحكمة، فقد أثنى على إبراهيم في تصديقه الرؤيا، بفعله بابنه مثل ما رآه، ووصف إبراهيم بأنه من المحسنين، وأخبر أنه ابتلاه بلاءً عظيماً، إذ صمم على ذبح ولده وحيده الذي أحبه إسماعيل، وقد رزقه به على الكبر، وذكر أنه فداه بذبح عظيم.

ويمكننا الاستدلال على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام من وجوه:

الأول: أن الله - تبارك وتعالى - قص علينا قصة الذبيح في سورة الصافات، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢] فلو كان إسحاق هو الذبيح الذي قصَّ الله قصته فيما سبق فلا يصلح أن يقول بعده: وبشرناه بإسحاق، لأن الذبيح كان موجوداً حياً بلغ مع أبيه السعي، والمبشر به معدوم غير موجود.

الثاني: أن الله وصف إسماعيل بأنه حليم، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات:١٠١] ووصف إسحاق بأنه عليم، ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [الحجر:٥٣] والذي يناسب الصبر على الذبح هو الحلم، لا العلم.

الثالث: أن الله بشر إبراهيم وسارة بإسحاق وبشرهما في الوقت نفسه بحفيدهما منه وهو يعقوب، فكيف يبشرهما بيعقوب، ثم يأمر إبراهيم بذبح الأب الذي هو إسحاق.

الرابع: أن قرني الكبش الذي فدى الله به إسماعيل كان موجوداً محفوظاً في الكعبة إلى عهد الرسول ﷺ، فعن عثمان بن طلحة أن الرسول ﷺ قال له: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت ما يشغل المصلي» [أورده ابن كثير في قصص الأنبياء، ص١٦٣. وعزاه محققه إلى مسند أحمد، ومصنف عبدالرزاق، وسنن أبي داود، وحكم على إسناده بالصحة].

رابعا: هذه القصة في الميزان

ما ذكرته التوراة من أن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه صحيح صدّقه القرآن الكريم، وأخبر به، ولكن ما ذكر في التوراة أن ابنه وحيده الذي أمره بذبحه هو إسحاق غير صحيح، واسم إسحاق أُدخل في النص، ولم يكن موجوداً فيه.

وقد صدّق القرآن التوراة أن الله فدى الغلام بذبح عظيم، وما ذكرته التوراة أن الله سيبارك إبراهيم في ذريته صحيح أيضاً.

وقد سبقت الأدلة الدالة على أن الذبيح كان هو إسماعيل، وهي أدلة مستمدة من الكتاب والسنّة.

وما ذكر من تفصيلات في أن إبراهيم أخذ حماره وأخذ اثنين من غلمانه... إلى آخر هذا الكلام فهو غير صحيح، فالمذكور في القرآن أن إبراهيم كان مع إسماعيل وحدهما، وفيه أنه أعلم ابنه بما رآه، فوافقه على تحقيق الرؤيا.

القصة الحادية عشرة
قصة نبي الله إسحاق

أولا: تقديم

تذكر التوراة أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان جالساً عند بلوطات ممرا في باب خيمته عندما مرّ عليه ثلاثة من الملائكة في صورة رجال، وكان إبراهيم في غاية الجود والكرم، فركض لاستقبالهم، وسجد إلى الأرض، وخاطبهم داعياً إياهم إلى طعامه، وطلب منهم أن يغسلوا أرجلهم بالماء، ثم يجلسون تحت الشجرة، ليقدم لهم خبزاً يأكلونه، قبل أن يواصلوا سيرهم، فأجابوه، وقالوا: «هكذا تفعل».

فلما جلسوا انطلق مسرعاً إلى زوجته طالباً منها أن تصنع من ثلاث كيلات خبزاً، وأخذ عجلاً، وطلب من غلامه أن يجهز له طعاماً لضيوفه، فلما جهز الطعام، أخذه وأخذ معه زبداً ولبناً، فقدمه أمامهم، فأكلوا وبقي هو واقفاً على قدميه.

وعند ذلك سألوه عن زوجته أين هي، فقال: ها هي في الخيمة، فبشروه بأنه سيولد له ولد من سارة، وقال له أحدهم: إنه سيعود إليه بعد نحو «زمن الحياة»، ويكون لسارة ولد، ومراده بنحو «زمن الحياة» مدة عام، وكانت سارة في باب الخيمة، وسمعت البشارة، وكان إبراهيم في ذلك الوقت في التاسعة والتسعين من عمره، وكانت سارة في التسعين من عمرها، أي: كانا شيخين متقدمين في العمر، وكانت عادة سارة الشهرية قد انقطعت بسبب كبر سنِّها.

فلما أخبروا بالبشارة، ضحكت سارة في باطنها، وقالت: أبعد فنائي وكبر سني، وسيدي قد شاخ أرزق بولد.

فقالت الملائكة لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيء يريد فعله، وقال له ذلك الملاك: بعد سنة أرجع إليك، ويكون لسارة ابن، فأنكرت سارة أنها ضحكت، وقالت: لم أضحك، لأنها خافت، فقال: «بل ضحكت».

ثانيا: هذه القصة في التوراة

جاء في التوراة ذكر هذه القصة: «١وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، ٢فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَالٍ وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، ٣وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. ٤لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ٥فَآخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ». فَقَالُوا: «هكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ». ٦فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخَيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ٧ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلاً رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلاَمِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ٨ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا. ٩وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ سَارَةُ امْرَأَتُكَ؟» فَقَالَ: «هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ». ١٠فَقَالَ: «إِنِّي أَرْجعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ». وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَهُوَ وَرَاءَهُ. ١١وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شَيْخَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ فِي الأَيَّامِ، وَقَدِ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ. ١٢فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: «أَبَعْدَ فَنَائِي يَكُونُ لِي تَنَعُّمٌ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟» ١٣فَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شِخْتُ؟ ١٤هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ فِي الْمِيعَادِ أَرْجعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ». ١٥فَأَنْكَرَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: «لَمْ أَضْحَكْ». لأَنَّهَا خَافَتْ. فَقَالَ: لاَ! بَلْ ضَحِكْتِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثامن عشر: ١-١٥].

ثالثا: التعقيب على هذا الخبر من التوراة

هذا الخبر الذي لا يزال مسطوراً في التوراة خبر صحيح، لا شك في صحته ووقوعه، وقد ذكره القرآن في موضعين من سوره: الأول في سورة هود، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود: ٧١-٧٤].

والموضع الثاني الذي ذكر الله فيه هذه البشرى في كتابه سورة الذاريات، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

وأشارت سورة العنكبوت إلى هذه الواقعة إشارة سريعة، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وهذه النصوص من القرآن تصوب بعض القصور الذي وقع في التوراة في هذه القصة، فالملائكة عندما جاؤوا إلى إبراهيم دخلوا عليه خيمته أو داره لقوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ وأخبرت النصوص القرآنية أنهم سلموا عليه قائلين: سلاماً، فرد عليهم إبراهيم قائلاً: سلام، وعقب على ذلك بقوله: قوم منكرون، لأنه لا يعرفهم، أي: غير معروفين لديه.

والقرآن يذكر أنه لم يستشيرهم في تقديم الطعام، لأنه تقرر فيما علمناه من ديننا أن الملائكة لا يأكلون، ولا يشربون، فلو كان استشارهم قبل أن يأتيهم بالطعام، لأخبروه أنهم ملائكة، وأنهم لا يأكلون.

وقد أخبرنا القرآن أن إبراهيم قدم لهم الضيافة سريعاً، ولم يتأخر في تحضيرها، فقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات:٢٦] ولو خبزت زوجته الخبز، وشوى غلامه العجل، لطال به الزمان، والذي يظهر أن العجل كان مشوياً جاهزاً لسبب من الأسباب، فلم يتأخر إبراهيم في تقديمه للضيوف.

وما ذكره القرآن أن إبراهيم قدّم لضيوفه عجلاً حنيذاً، أي: مشوياً، يدل على مدى الكرم الذي اتصف به إبراهيم عليه السلام، فإنه قدم عجلاً كاملاً لثلاثة رجال.

قدم إبراهيم العجل إلى ضيوفه، وطلب منهم أن يتفضلوا بالأكل من ضيافته، فلما رأى إبراهيم أيديهم لا تمتد إلى الطعام استنكر هذا منهم، وأوجس في نفسه خيفة، عند ذلك كشفوا له عن حقيقة أنفسهم، وأخبروه أنهم ملائكة الرحمن مرسلون إلى قوم لوط لإهلاكهم وتدميرهم.

فما ذكرته التوراة من أن الملائكة أكلوا الطعام غير صحيح إطلاقاً، وفي التوراة أن غلام إبراهيم صنع العجل، وفيه تصريح بأنه شواه، وفي القرآن أن العجل كان مشوياً، وليس فيه أنه قدم معه خبزاً، كما قدم معه زبدة ولبناً، وليس في القرآن أنه طلب منهم غسل أرجلهم، فغسلوها، وليس معهوداً عند الناس أن يغسلوا أرجلهم عند إرادتهم الطعام، إنما يغسلون أيديهم. وقد أخبر القرآن أن سارة زوجة إبراهيم كانت قائمة في الموضع الذي فيه الضيوف، أي كانت حاضرة معهم، تراهم وتسمع كلامهم، لا كما ذكرت التوراة أنها كانت في الخيمة وهم في خارجها، وأنهم سألوا عنها إبراهيم، فأخبرهم.

ويذكر القرآن أن سارة ضحكت عندما كشف الملائكة لإبراهيم وسارة عن حقيقتهم، وكشفوا حالهم، وكان ضحكها قبل أن يبشروها بالولد، فلما بشروها بأنه

سيولد لها ولد، وأن هذا الولد سيكبر، ويتزوج، ويأتيه ولد يدعى يعقوب عند ذلك ضربت وجهها بيدها، وهذه هي الصكّة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات:٢٩] وفي الآية الأخرى قالت: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود:٧٢].

فما ذكرته التوراة من أن سارة ضحكت في باطنها بعد أن بشروها بالولد، وأنها استنكرت في باطنها أن ترزق بولد بعد أن شاخت وشاخ زوجها، غير صحيح، والصواب أن ضحكها كان علانية قبل تبشيرها بالولد، وأن استغرابها لما سترزق به من الولد كان بصريح العبارة، بل زاد، على ذلك بصكّها وجهها بسبب استغرابها لما بشرت به، وذكرت في استغرابها أنها عجوز عقيم.

وانظر إلى ما قالته الملائكة في مواجهة ما تكلمت به سارة، فهو مع ما يحمله من محبة وتوقير وتقدير واحترام لإبراهيم وسارة يصوب موقف سارة من البشرى ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٣] إن الله قادر على كل شيء، والله يكرم أولياءه، ويفيض عليهم من نعمه بما شاء، كيف شاء.

وقارن هذا الخاطب الرقيق الودود الذي حكى القرآن أن الملائكة أجابت به بخطاب الملائكة الذي حكته التوراة: «هل يستحيل على الرب شيء»؟ وهل يليق بالتوراة أن تنسب الكذب إلى سارة، وهي المرأة الصالحة زوجة إبراهيم وقد بلغت التسعين من عمرها فتقول للملائكة: إنها لم تضحك، فتقول لها الملائكة: بل ضحكت.

رابعا: هذه القصة في الميزان

هذه القصة من أقرب القصص التي وردت في التوراة إلى القرآن، فما ذكر فيها ذكر القرآن أكثره، وما ذكرته من مرور الملائكة بإبراهيم، وتضييف إبراهيم لهم، وتبشيرهم إبراهيم وزوجته بإسحاق، كل ذلك صحيح، وغير الصحيح في هذه

القصة أن الملائكة أكلوا الطعام الذي قدم لهم، وهناك بعض التفصيلات في القصة ليست صواباً بيّنتها فيما سبق.

هذا هو القدر الذي ذكرته التوراة في قصة إسحاق، وجاء له ذكر في القرآن، أما ما عدا ذلك مما ذكرته التوراة في سفر التكوين الإصحاح الرابع والعشرين، من تزوج إسحاق من بيت أبيه ومن عشيرته، وقد تزوج ابنة عمته واسمها رفقة لا ندري مدى صحته.

وما ذكرته التوراة في الإصحاح السادس والعشرين من أن إسحاق قال عن زوجته أنها أخته خشية القتل، الله أعلم بمدى صحته.

وما ذكره سفر التكوين في الإصحاح السابع والعشرين أن يعقوب احتال على أبيه حتى أخذ بركته بدل عيسو ليس بصحيح، فإسحاق ويعقوب نبيان، ولا يمكن أن يقع هذا الاحتيال من نبيين كريمين.

وقد ورد ذكر إسحاق في القرآن الكريم كثيراً، وفيه ذكر أنه كان من أنبياء بني إسرائيل الكرام.

القصة الثانية عشرة
قصة بناء إبراهيم وإسماعيل البيت العتيق

أولا: تقديم

قصة بناء البيت العتيق من أهم الأعمال التي قام بها نبي الله إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، ومع ذلك فليس لهذا العمل العظيم ذكر في التوراة.

وقد سبق ذكر الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، والذي يذكر فيه أن نبي الله إبراهيم كان يذهب لتفقد إسماعيل في الأرض التي وضعه فيها، حتى إذا كان في المرة الأخيرة وجد إسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريبة من موضع البيت الحرام، فتعانقا، ثم قال إبراهيم لإسماعيل: إن الله أمره أن يبنى بيتاً في مكان أشار له إلى موضعه، وأظهر إسماعيل لأبيه استعداده لمساعدته في بناء ذلك البيت.

وذكر الحديث أن إسماعيل كان يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاءه بالحجر الذي كان يقوم عليه عندما ارتفع البناء. [الحديث في البخاري، ورقمه: ٣٣٦٤] وهذه القصة لم تذكرها التوراة.

ثانيا: الإيضاح والبيان لهذه القصة من القرآن

هذه القصة واضحة المعالم في القرآن بما لا مزيد عليه، فقد أخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أن الله جعل إبراهيم عليه السلام إماماً وقدوة للناس، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤] وأخبرنا أن الله جعل البيت الذي هو الكعبة مثابة للناس، أي: يثوبون إليه مرة بعد أخرى للحج والعمرة والصلاة عنده، وأمرنا أن نتخذ من

الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم مصلى، وأخبرنا ربنا تعالى أنه عهد إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيته من الأدناس المعنوية والحسية، ويجعلونه طاهراً أبداً للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة:١٢٥] والركع السجود هم المصلون.

وأعلمنا ربنا أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة وما حولها بلداً آمناً ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٢٦].

وقد أمرنا ربنا – عز وجل – أن نستحضر عمل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في بناء البيت، فقد كانا يبنيان، ويدعوان ربهما أن يتقبل منهما عملهما في ذلك البناء، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧].

وكانا يدعوان ربهما – عز وجل – أن يجعلهما مسلمين لله، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله، وهي الأمة الإسلامية، أمة محمد ﷺ، ودعوا الله أن يريهما مناسك الحج، وأن يتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة:١٢٨] ودعوا الله وهما يبنيان الكعبة بأن يبعث الله في الأمة المسلمة رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة:١٢٩].

وهذا البيت الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل هو أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وقد كتب الله على الناس الحج إلى هذا البيت وقد حجّه نبي الله موسى، ونبيه يونس بن متى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد أمر الله إبراهيم قديماً بعد بنائه البيت أن يؤذن في الناس داعياً إياهم إلى حج البيت الذي بناه هو وابنه إسماعيل، قال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧].

وقد أصبح هذا البيت قبلة المسلمين في الصلاة

القصة الثالثة عشرة

قصة نبي الله يعقوب عليه السلام

أولا: تقديم

نبي الله يعقوب هو ابن نبي الله إسحاق ابن نبي الله إبراهيم عليه السلام، وقد جاء ذكره في القصة التالية، وهي قصة نبي الله يوسف، وقد تحدثت التوراة عنه، وعن احتياله على أبيه حتى أخذ بركة أبيه، ثم سافر إلى العراق، وأطال المكث هناك، وتزوج من ابنتي خاله لابان، وعاد إلى فلسطين بعد خمسة عشر عاماً، إلى آخر ما ذكرته التوراة عن يعقوب ولا داعي لعرضه لعدم ذكره في القرآن، والذي لفت نظري دعوى التوراة أن يعقوب صارع ملاك الرب ليلة بطولها، وسأذكر النص الذي أوردته التوراة في ذلك وأعقّب عليه.

ثانيا: مصارعة يعقوب ملاك الرب

من الأساطير التي سطرت في التوراة أن يعقوب عليه السلام صارع ملاك الرب لمدة ليلة كاملة، ولم يقدر ملاك الرب على داود، فخلع حق فخذ يعقوب، ومع ذلك أبا داود إطلاق ملاك الرب، حتى يباركه، ودعا الملاك بعد ذلك يعقوب بإسرائيل بعد أن كان اسمه يعقوب، جاء في التوراة:

«٢٤فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. ٢٥وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. ٢٦وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي».

٢٧فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ». ٢٨فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ
يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». ٢٩وَسَأَلَ يَعْقُوبُ
وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. ٣٠فَدَعَا
يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلاً: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي».
٣١وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ. ٣٢لِذلِكَ لاَ يَأْكُلُ بَنُو
إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخْذِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهُ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ
يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا» [سفر التكوين، الإصحاح الثالث والثلاثون: ٢٤-٣٢].

وهذا الذي ذكرته التوراة قصة موغلة في الكذب، وهو مما افتراه الذين حرفوا التوراة، فالبشر لا يستطيعون القيام لملك من الملائكة، فالملائكة يقدر الواحد منهم أن يعصف بالملايين من البشر، وحسبنا أن نعلم أن النار التي يدخلها مليار المليارات من البشر لا يقوم عليها إلا تسعة عشر ملكاً فحسب.

القصة الرابعة عشرة

قصة إهلاك الله قرى لوط عليه السلام

أولا: تقديم

ذكرت في القصة السابقة التي استضاف فيها إبراهيم عليه السلام الملائكة، أن الملائكة الذين استضافهم أخبروه بأنهم مرسلون من قبل الله لتدمير قرى لوط، ثم ذكرت التوراة أن إبراهيم قام ماشياً مع ضيوفه وهم متوجهون من عنده إلى مدينة سدوم ليشيعهم، وذكر النص أن الملائكة ترددوا في إخبار إبراهيم بما كلفوا به من تدمير قرى لوط، ولكنهم في النهاية أخبروه، فلما ساروا بقي إبراهيم واقفاً أمام ملك منهم، وجادل إبراهيم الملك ليمنعه من إهلاكهم، إذ قال للملك لعل فيهم خمسين باراً، لعل فيهم خمسة وأربعين لعل فيهم أربعين، إلى أن وصل إلى عشرة، فأخبره الملك أنه لا يوجد فيهم عشرة من الأبرار الصالحين.

وبيّن لنا النص أن الذين وصلوا إلى سدوم كانا ملكين فحسب، بينما ذكر النص السابق أن الذين استضافهم إبراهيم كانوا ثلاثة.

وذكر النص أن لوطاً استقبل هذين الملكين، فأخبروه أنهم سيبيتون في ساحة القرية، فألحّ عليهما حتى دخلا منزله، وأغلق الباب عليهم، فجاءه قومه صغاراً وكباراً، وطالبوه أن يخرج إليهم ضيوفه ليفعلوا الفاحشة بهم، فخرج إليهم لوط وجادلهم كثيراً طالباً منهم أن يرجعوا عن مطالبهم الخبيثة، وعرض لهم أن يخرج لهم ابنتيه ليفعلا بهما ما يشاؤون، فرفضوا، وطلب منهم أن لا يخزوه في ضيفه، فرفضوا

ذلك، عند ذلك مدّ الرجلان أيديهما، وأدخلا لوطاً وأغلقا الباب، وضربوا الواقفين من قوم لوط على بابه، فأصابوهم جميعاً بالعمى صغيرهم وكبيرهم.

عند ذلك أخبر الرجلان لوطاً بأنهم ملائكة، وأنهم سيهلكون أهل هذا المكان، فخرج لوط وطلب من أصهاره أن يخرجوا من المكان لأن الله سيهلكه، فكان في نظرهم كالمازح فيما أخبرهم به.

وعندما طلع الفجر أخذ الملكان يستعجلان لوطاً وابنتيه في الخروج، وأخذوهم ووضعوهم خارج المدينة، وطلبوا منهم أن ينطلقوا، ولا ينظروا وراءَهم، فيهلكون.

طلب الملائكة من لوط أن يهرب إلى الجبل، فطلب منهم الإذن بالذهاب إلى مدينة صوعر، فأذنوا له، ووعدوه بعدم إهلاك تلك المدينة.

ومع شروق الشمس على الأرض دخل لوط صوعر، وأهلك الله سدوم وعمورة، أمطر عليهما كبريتاً وناراً من السماء، وقلب تلك المدن، بما فيها سكان المدن ونبات الأرض، ونظرت زوجة لوط خلفها فهلكت وصارت عمود ملح.

وشاهد إبراهيم من بعيد بعض معالم الدمار الذي حلّ بتلك القرى، فقد شاهد دخان الأرض يصعد كدخان الأتون.

وبعد تمام هلاك سدوم وعمورية، خرج لوط وابنتاه، وسكنا في الجبل، واحتالت ابنتا لوط على أبيهما، فأسقتاه خمراً ليلة بعد أخرى، وأضجعت كل واحدة منهما معه ليلة، وحبلتا منه، ولما وضعت الكبرى وضعت ولداً سمَّته (موآب)، وهو أبو الموآبيين، ووضعت الصغيرة ابناً وسمته (بِنْ عمي) وهو أب بني عمون إلى اليوم.

ثانيا: نص التوراة الذي أخبر بإهلاك قوم لوط

أخبرت التوراة بما فعلته الملائكة الذين استضافهم نبي الله إبراهيم عليه السلام بقرى قوم لوط «١٦ ثُمَّ قَامَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَتَطَلَّعُوا نَحْوَ سَدُومَ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مَاشِيًا مَعَهُمْ لِيُشَيِّعَهُمْ. ١٧ فَقَالَ الرَّبُّ: «هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ، ١٨ وَإِبْرَاهِيمُ

يَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً، وَيَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ؟ ١٩لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ
بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ
لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ». ٢٠وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ،
وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا. ٢١أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي
إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ». ٢٢وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ
فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ. ٢٣فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟
٢٤عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ
الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ ٢٥حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ
الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلاً؟»
٢٦فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ
كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». ٢٧فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ
وَرَمَادٌ. ٢٨رُبَّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتُهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟» فَقَالَ: «لاَ
أُهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ». ٢٩فَعَادَ يُكَلِّمُهُ أَيْضًا وَقَالَ: «عَسَى أَنْ
يُوجَدَ هُنَاكَ أَرْبَعُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الأَرْبَعِينَ». ٣٠فَقَالَ: «لاَ يَسْخَطِ
الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ ثَلاَثُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ
ثَلاَثِينَ». ٣١فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عِشْرُونَ».
فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعِشْرِينَ». ٣٢فَقَالَ: «لاَ يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ هذِهِ الْمَرَّةَ
فَقَطْ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عَشَرَةٌ». فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعَشَرَةِ». ٣٣وَذَهَبَ
الرَّبُّ عِنْدَمَا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَانِهِ» [سفر التكوين،
الإصحاح الثامن عشر: ١٦-٣٣].

وجاء في السفر التاسع عشر ذكر خراب سدوم وعمورة: «١فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى
سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا،
وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ. ٢وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ
أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». فَقَالاَ: «لاَ، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ».

٣فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلاَ.
٤وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ،
كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. ٥فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ
اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا». ٦فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ
٧وَقَالَ: «لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي. ٨هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ
فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ
دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي». ٩فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هذَا الإِنْسَانُ
لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا». فَأَلَحُّوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ
جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ، ١٠فَمَدَّ الرَّجُلاَنِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلاَ لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى
الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. ١١وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَمَى، مِنَ
الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ. ١٢وَقَالَ الرَّجُلاَنِ لِلُوطٍ: «مَنْ لَكَ
أَيْضًا ههُنَا؟ أَصْهَارَكَ وَبَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلَّ مَنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرِجْ مِنَ الْمَكَانِ،
١٣لأَنَّنَا مُهْلِكَانِ هذَا الْمَكَانَ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ
لِنُهْلِكَهُ». ١٤فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الآخِذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ
هذَا الْمَكَانِ، لأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكٌ الْمَدِينَةَ». فَكَانَ كَمَازِحٍ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ. ١٥وَلَمَّا طَلَعَ
الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ
تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ». ١٦وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ،
لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. ١٧وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى
خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ
إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ». ١٨فَقَالَ لَهُمَا لُوطٌ: «لاَ يَا سَيِّدُ. ١٩هُوَذَا عَبْدُكَ قَدْ وَجَدَ نِعْمَةً
فِي عَيْنَيْكَ، وَعَظَّمْتَ لُطْفَكَ الَّذِي صَنَعْتَ إِلَيَّ بِاسْتِبْقَاءِ نَفْسِي، وَأَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَهْرُبَ
إِلَى الْجَبَلِ لَعَلَّ الشَّرَّ يُدْرِكُنِي فَأَمُوتَ. ٢٠هُوَذَا الْمَدِينَةُ هذِهِ قَرِيبَةٌ لِلْهَرَبِ إِلَيْهَا وَهِيَ
صَغِيرَةٌ. أَهْرُبُ إِلَى هُنَاكَ. أَلَيْسَتْ هِيَ صَغِيرَةً؟ فَتَحْيَا نَفْسِي». ٢١فَقَالَ لَهُ: «إِنِّي قَدْ
رَفَعْتُ وَجْهَكَ فِي هذَا الأَمْرِ أَيْضًا، أَنْ لاَ أَقْلِبَ الْمَدِينَةَ الَّتِي تَكَلَّمْتَ عَنْهَا. ٢٢أَسْرِعْ

اهْرُبْ إِلَى هُنَاكَ لأَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا حَتَّى تَجِيءَ إِلَى هُنَاكَ». لِذلِكَ دُعِيَ
اسْمُ الْمَدِينَةِ «صُوغَرَ». ٢٣وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ،
٢٤فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ.
٢٥وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتَ الأَرْضِ.
٢٦وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ. ٢٧وَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْغَدِ إِلَى
الْمَكَانِ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ، ٢٨وَتَطَلَّعَ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، وَنَحْوَ كُلِّ أَرْضِ
الدَّائِرَةِ، وَنَظَرَ وَإِذَا دُخَانُ الأَرْضِ يَصْعَدُ كَدُخَانِ الأَتُونِ. ٢٩وَحَدَثَ لَمَّا أَخْرَبَ اللهُ
مُدُنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسَطِ الانْقِلاَبِ. حِينَ قَلَبَ الْمُدُنَ
الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ. ٣٠وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ
خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ:
«أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢هَلُمَّ
نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٣فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ
اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا.
٣٤وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي.
نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٥فَسَقَتَا
أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ
بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. ٣٧فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا
وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. ٣٨وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا
وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع
عشر: ١-٣٨].

ثالثا: التعقيب على هذه القصة

١- مرور ملائكة الرحمن الذين كلفوا بتدمير قرى لوط بإبراهيم وتبشيره بإسحاق وتدميرهم قرى لوط:

قصة لوط وقومه مذكورة كثيراً في القرآن، فقد ذكرها بشيء من التفصيل في السور التالية: الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، والذاريات، والقمر.

وفيها تفصيل كثير لا يوجد في التوراة، كما أن ما ذكره القرآن فيه تصويب لأخبار التوراة في هذا الموضوع.

وقد سبق أن ذكرنا أن ملائكة الرحمن الذين كلفوا بتدمير قوم لوط قد مروا بإبراهيم عليه السلام، فاستضافهم، فأخبروه بحقيقة أمرهم، وأنهم ملائكة وأنهم مكلفون بتدمير قوم لوط، وبشروا إبراهيم عليه السلام بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وقد أخبرنا ربنا أنه بعد أن ﴿ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود:٧٤-٧٦].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن إبراهيم عليه السلام لما جاءته البشرى خاطب الملائكة قائلاً: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر:٥٧-٦٠].

والنصوص القرآنية تخبرنا أن الملائكة بعد تبشيرهم إبراهيم بإسحاق، أخبروه بأنهم مرسلون لتدمير قوم لوط، مما يدل على أن ما ذكر من تردد الملائكة في إخباره لم يكن صحيحاً، وكذلك ما ذكرته التوراة أن الملائكة تأخروا في إخباره حتى انطلقوا خارجين قاصدين قوم لوط.

لقد جادل إبراهيم ملائكة الرحمن في قوم لوط طالباً عدم تعذيبهم كما صرح القرآن بذلك في قوله: ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود:٧٤] وأخبروا لوطاً بأن هذا التعذيب لقوم لوط كائن ولا بدَّ، وأنه أمر مقضي لا رجعة فيه، وقد أثنى الله على نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام فذكر بعد مجادلة إبراهيم في قوم لوط أن إبراهيم عليه السلام كان حليماً أواهاً منيباً، والأواه هو الذي يكثر من قول آه، والمنيب كثير الرجوع إلى الله سبحانه.

٢- ثناء الله على نبي الله لوط عليه السلام وتعريفنا بالمهمة التي أرسل بها:

أثنى الله - تبارك وتعالى - على عبده ونبيه لوط عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الصافات:١٣٣] وذكر أن لوطاً آمن لإبراهيم وهاجر معه إلى الأرض المقدسة ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٦]. وأثنى الله عليه بقوله: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥] وأعلمنا القرآن الكريم بالقضية الرئيسة التي حاول علاجها في قومه، فقد كانوا يأتون الذكران من العالمين، وكانوا يأتون في ناديهم المنكر، فاشتد في الإنكار عليهم، وأغلظ لهم في القول: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١] وقال لهم: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وقال لهم: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل:٥٤-٥٥].

٣- حلول الملائكة ضيوفا على لوط عليه السلام :

وما ذكرته التوراة من أن الملائكة جاؤوا لوطاً، فاستقبلهم، وطلب منهم أن يحلوا ضيوفاً عنده في بيته صحيح، إلا أن القرآن ذكر أن لوطاً ضاق بضيوفه ذرعاً،

وقال: هذا يوم عصيب، فإنه يعلم ما سيعانيه من قومه بسبب أولئك الضيوف ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود:٧٧].

وما ذكرته التوراة من أن لوطاً صنع لهما طعاماً، وخبز لهم فطيراً فأكلا منه غير صحيح، فالملائكة لا يأكلون ولا يشربون كما سبق بيانه.

٤ـ مجيء قوم لوط إلى لوط يهرعون إليه خاليين منه أن يخرج لهم ضيوفه ليفجروا بهم:

وما ذكرته التوراة من أن قومه جاؤوا إليه بعد علمهم بأنه قد جاءه ضيوف، وقصدهم من المجيء أن يفجروا بضيوفه، صحيح، وذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود:٧٨].

وما ذكرته التوراة من أن لوطاً عرض على قومه أن يخرج لهم بناته يفعلون بهن ما يشاؤون، غير صحيح بحال، فما كان للوط أن يعرض على قومه أن يفجروا ببناته، فالزنا كاللواط كلاهما معصية وقاذورات والذي عرضه لوط، هو أن يتزوج الرجال من بناته، أي: نساء القرية، فهو بمثابة الأب لتلك النساء، وفي كتاب الله: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر:٧١]، وفيه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨].

٥ـ الملائكة يكشفون للوط حقيقة أمرهم ويكشفون له أنهم أرسلوا بدمار قومه:

لما ضاق بلوط الحال وقال ما قال كشف له الملائكة عن حقيقة أمرهم، وأنهم ملائكة الرحمن، ولن يستطيع قومه أن يصلوا إليهم، ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

٦- لوط يخرج بأهله بقطع من الليل:

أمر الملائكة نبي الله لوطاً عليه السلام أن يخرج بأهله في الليل، ولا ندري في أي جزء من الليل خرج.

وما ذكرته التوراة أن خروجه كان بعد طلوع الفجر، ليس صحيحاً، فقد قالت الملائكة للوط ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود:٨١]، وقال في موضع آخر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [الحجر:٦٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر:٣٤] وهذا يدل على أن ما ذكرته التوراة من أن الملكين كانا يعجلان لوطاً بعد طلوع الفجر للخروج، وأن لوطاً توانى فيه، كل ذلك غير صحيح. وما ذكرته التوراة من أن لوطاً خرج من داره وطلب من أصهاره أن يخرجوا من القرية، لأن الله مهلكها غير صحيح، فأصهاره كانوا كفاراً، يقومون بما يقوم به بقية قومه من اللواط.

٧- وقت إهلاك الله لقرى لوط وكيف كان الهلاك:

وما ذكرته التوراة من أن الله أهلك قوم لوط مع طلوع الشمس، وأن امرأة لوط وإن خرجت مع لوط فإنها هلكت، لأنها خالفت وصية الله بعدم الالتفات إلى الوراء، فقد التفتت فهلكت صحيح، قال تعالى ذاكراً وقت هلاكهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر:٧٢]. وقال ذاكراً هلاك زوجته: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف:٨٣]. وقال: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود:٨١].

وما تحدثت به التوراة من أن الملائكة أذنت للوط بالذهاب إلى قرية صوغر الله أعلم بصحته. وما ذكرته التوراة من العذاب الذي حلّ بقرى لوط من إمطار الكبريت ونزول النار من السماء وقلب تلك المدن صحيح، وذكر الله ذلك في القرآن، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر:٧٣-٧٤]، وقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت:٣٤].

ونلاحظ أن التوراة انفردت بذكر إمطار الرب عليهم الكبريت والنار، أما القرآن فقد ذكر أن الله أمطر عليه مطراً وأن ذلك المطر كان من سجيل منضود، والرجز الذي ذكره القرآن هو السجيل المنضود، وصدق القرآن التوراة فيما أخبرت به أنه قلب عاليها سافلها، وانفرد القرآن بذكر الصيحة التي أخذت قوم لوط في بداية العذاب.

٨- افتراء الذين حرفوا التوراة على لوط وابنتيه:

وما ذكرته التوراة من أن لوطاً ضاجع ابنته البكر بعد أن سكر، وضاجع الثانية في الليلة الثانية، وأنهما ولدتا ولدين، فهو كذب وافتراء على رسل الله، فلوط كغيره من الأنبياء معصوم من الفواحش، وافتراء بني إسرائيل على أنبيائه ورسله كثير، فلوط لم يكن شرّاباً للخمر، ولم يكن من الذين يأذن الله بوقوعهم في الفاحشة.

ومن عجب أن يرمي اليهود رسول الله لوطاً فيما حرص عليه طيلة حياته، فقد كان طاهراً، وأنكر على قومه طيلة حياته الولوغ في الفاحشة، حتى دمرهم الله وأهلكهم، وقد تنادى قومه ليخرجوه وأهله من قريتهم لأنهم أناس يتطهرون ﴿قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف:٨٢].

وقد طعن بنو إسرائيل بهذه الفرية العظيمة في الموابيين والعمونيين، فموآب حسب افترائهم كان ابن لوط من الزنا، والعمونيون هم أيضاً أولاد لوط من الزنا، وقد افترى بنو إسرائيل هذه الفرية ليذلوا هذين الشعبين بما افتروه عليهما.

رابعا: هذه القصة في الميزان

هذه القصة صحيحة في الجملة، وقد صدق القرآن التوراة فيما أخبرت به من سكنى لوط في تلك المدن، وأن أهل تلك القرية كانوا يأتون الذكران من العالمين، وأن لوطاً نهاهم عن ذلك.

وجاء ملائكة الرحمن في صورة رجال، فاستضافهم لوط وهو لا يعلم أنهم ملائكة، وجاءه قومه يريدون الفجور بضيوفه، فحاول لوط أن يمنعهم، فلم يرتدعوا، عند ذلك أعلمه الملائكة بأنفسهم، وأخبروه أنهم مهلكون أهل تلك القرية، وأخرجوا لوطاً وبناته، ودمر الله قرى لوط، كل ذلك صحيح وقد صدقه القرآن، وغير الصحيح ما ذكرته التوراة أن الملائكة أكلوا من الطعام الذي قدمه لهم لوط، وغير صحيح أيضاً ما ذكرته التوراة أن لوطاً عرض على قومه ابنتيه ليفجروا بهما غير صحيح، والذي عرضه عليهم أن يتزوجوا من بناته اللاتي هن نساء القرية.

وما ذكرته التوراة من خروج لوط وابنتيه بعد الفجر غير صحيح، والصواب أنهم خرجوا في السحر كما ذكره القرآن.

وما ذكرته التوراة من فجور لوط بابنتيه كذب على الله وعلى رسوله لوط، فلوط كان طاهراً وابنتاه كانتا طاهرتين صالحتين، ولم يكونوا فجرة زناة.

القصة الخامسة عشرة
قصة نبي الله يوسف عليه السلام

أولا: تقديم

هذه قصة نبي الله يوسف عليه السلام، ابن نبي الله يعقوب، ابن نبي الله إسحاق، ابن نبي الله إبراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسلام، وقصته من أعجب القصص في التوراة والقرآن، وقد انتقل يعقوب (إسرائيل) وجميع بنيه من فلسطين إلى مصر عندما أصبح يوسف عزيزاً لها، وقصته في القرآن أعجب قصص القرآن وأمتعها.

ثانيا: إيراد قصة يوسف

١- بداية قصة يوسف عليه السلام:

تبدأ التوراة قصة يوسف عليه السلام بإخبارنا بأن يوسف عليه السلام كان ابن سبع عشرة سنة، وكان يرعى الغنم مع إخوته وهو غلام، وتذكر التوراة أن إسرائيل الذي هو يعقوب أحبّ يوسف أكثر من سائر بنيه، لأنه ابن شيخوخته، وقد صنع لابنه قميصاً ملوناً، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبّه أكثر من جميع إخوته أبغضوه، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام.

وتذكر التوراة أن يوسف عليه السلام حلم في ذلك الزمان والمكان وأخبر إخوته بحلمه، فازداد إخوته بغضاً له، وقال لإخوته: اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت: ها نحن حازمون حزماً في الحقل، وإذا حزمتي قامت وانتصبت، فاحتاطت حزمكم بها وسجدت لحزمتي، فقال له إخوته: ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً،

وازداد إخوته بغضاً له، من أجل أحلامه، ومن أجل كلامه. ثم تذكر التوراة أنه رأى حلماً آخر، وقصّه على إخوته، فقال: إني قد حلمت حلماً أيضاً، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي، وقصّه على أبيه وإخوته.

وتذكر التوراة أنه لما قصّ الحلم على أبيه وإخوته انتهره أبوه، وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده إخوته، وأما أبوه فحفظ الأمر [سفر التكوين، الإصحاح السابع والثلاثون: ٢-١١].

٢- رؤيا يوسف عليه السلام:

ابتدأ القرآن قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف:٣] وفي هذا الذي ذكره الله هنا تشويق لقراءة هذه القصة، ومدح لها، وثناء عليها، وإخبار بأن هذه القصة وحي إلهي ليس فيها تزيد ولا قصور، ولم يذكر القرآن كم كان عمر يوسف عليه السلام في ذلك الوقت الذي ابتدأت فيه القصة، والذي يفقه من القرآن أن يوسف كان أصغر مما ذكرته التوراة، فإن تعلق يوسف بدلو المستقي عندما أدلى دلوه في البئر ما كان ليتم لو كان يوسف في سن السابعة عشرة، فإن الدلو لا يسعه، والذي أدلى دلوه لا يستطيع حمله، فابن السابعة عشرة رجل مكتمل الرجولة، ووزنه ثقيل، فكيف يستطيع وحده أن يحمله، لو كان في هذا السن.

وما ذكرته التوراة من أن يوسف عليه السلام كان يرعى الغنم في ذلك الوقت غير صحيح، فسيأتي أن خروجه مع إخوته كان بعد مداولات بين الأب وأولاده، ولم يأذن لهم في اصطحابه إلا بعد تمنع شديد.

وما ذكرته التوراة من أن إسرائيل كان يحب يوسف أكثر من بقية إخوته، وأن إخوته أبغضوه صحيح، ومن يقرأ القرآن يجده يدلّ على ذلك في مواضع كثيرة، ومن أصرح ما جاء في ذلك قول إخوة يوسف: إن يوسف أحب إلى أبيهم منهم قال

تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف:٨] وقد أضافت هذه الآية معلومة ليست في التوراة، وهي أن أباهم كان يحب مع يوسف عليه السلام أخيه من أمه.

وما ذكرته التوراة أن يوسف رأى حلمين، وأنه قص على إخوته الحلم الأول، وقصّ على أبيه وإخوته الحلم الثاني، وأن إخوته ازداد غضبهم وحنقهم عليه عندما حدّثهم بالحلم الأول، وأن أباهم انتهر يوسف عندما حدث يوسف بالحلم الثاني.

فالقرآن أخبر بأن يوسف حلم حلماً واحداً، ولم يسمه القرآن حلماً، بل سماه رؤيا، فالرؤيا في الاصطلاح القرآني لمنام الليل الصادق، والحلم لمنام الليل الكاذب، ولم تكن تلك الرؤيا ويوسف يرعى الغنم مع إخوته، ولم يحدث بها إخوته، وإنما حدّث بها أباه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف:٤].

فأمره والده أن لا يحدث إخوته بما رآه، لأنه إن حدثهم بالرؤيا يزداد غيظهم عليه، ويكيدوا له كيداً، وأخبره أن الله سيجتبيه، ويعلمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه، كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٥-٦].

هاتان الآيتان تدلان على أن رؤيا واحدة هي التي رآها يوسف، وعلى أنه حدّث بها أباه، وأن أباه أمره بأن لا يحدّث بها إخوته، ولا شك أن يوسف ائتمر بأمر والده، وليس في التوراة ما قاله يعقوب ليوسف بعد الرؤيا.

وليس صحيحاً ما ذكرته التوراة من أن إسرائيل انتهر ابنه يوسف عندما حدثهم بالرؤيا.

٢- طرح إخوة يوسف عليه السلام له في البئر:

تذكر التوراة أن إخوة يوسف خرجوا من عند أبيهم، وانطلقوا إلى شكيم ليرعوا غنمهم هناك، وأن والدهم أمر يوسف أن يلحق بإخوانه في مرعاهم، فأرسله من حبرون التي هي الخليل إلى شكيم التي هي نابلس، فضاع في الطريق وهو يمشي في الحقل، والتقى برجل أخبره أن إخوته ارتحلوا من هناك إلى دوثان، وذكرت التوراة أن يوسف لحق بهم إلى هناك.

فلما أبصروه قادماً من بعيد تآمروا على قتله، وقال بعضهم لبعض: هو ذا صاحب الأحلام، هلم فلنطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله، فسمع راوبين، وأنقذه من أيديهم، وقال: لا نقتله، وقال لهم أيضاً: لا تسفكوا دماً، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية، ولا تمدوا إليه يداً، قال ذلك لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه، فلما جاء يوسف إلى إخوته خلعوا عنه قميصه، وطرحوه في البئر، وكانت البئر فارغة ليس فيها ماء.

وتذكر التوراة أنهم بعد طرحهم له في البئر جلسوا ليأكلوا، فمرت بهم قافلة للإسماعيليين، مقبلة من جلعاد متجهة إلى مصر، فاقترح عليهم يهوذا أن لا يقتلوا يوسف، ولا يلطخوا أيديهم بدمه، فوافقوا، وكان قد مرّ تجار مديانيون بالبئر التي فيها يوسف فسحبوه من البئر، ثم باعوه بعد ذلك للإسماعيليين.

ولما رجع راوبين إلى البئر ليصعد يوسف منها، لم يجده فيها، فمزق ثيابه، وعاد إلى إخوته، وأخبرهم بعدم وجود يوسف في البئر، وعند ذلك أخذوا تيساً من المعزى وذبحوه، وغمسوا قميص يوسف في الدم، وأحضروه إلى أبيهم، وقالوا: وجدنا هذا القميص، وسألوه إذا كان قميص ابنه، فنظر فيه، وقال: هو قميص ابني، وقال: وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراساً، ومزق يعقوب ثيابه، ووضع مسحاً على حقويه، وناح على ابنه أياماً طويلة، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه، فأبى أن يتعزى، وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية، وبكى عليه أبوه.
[سفر التكوين، الإصحاح السابع والثلاثون: ١٢-٣٥].

٤- تآمر إخوة يوسف على قتله:

لقد صدق القرآن ما في التوراة من أن إخوة يوسف تآمروا على قتله، وانتهى بهم المطاف إلى إلقائه في البئر، ثم جاؤوا بقميصه إلى أبيهم، ولكن التفصيلات التي ذكرتها التوراة حول هذه الحقيقة فيها خلل كبير.

فليس بصحيح ما ذكرته التوراة أن يوسف لحق بإخوته إلى مرعاهم بأمر والده، وأن إخوته تآمروا على قتله بعد مجيئه إليهم، والصواب الذي ذكره القرآن الكريم، أن إخوة يوسف تآمروا على قتل يوسف أو إخفائه حتى يخل لهم وجه أبيهم، واقترح بعضهم أن لا يقتلوا يوسف ولكن يلقوه في بئر معروفة يردها الناس كي تلتقطه بعض القوافل، وليس بصواب ما ذكرته التوراة أن البئر لم يكن فيها ماء، فلما صمموا على ذلك طلبوا من أبيهم أن يأذن لأخيهم يوسف بالذهاب معهم إلى الرعي، كي يرتع ويلعب هناك، وأعلنوا له أنهم سيقومون على رعايته وحفظه، عند ذلك أظهر لهم خشيته من أن يغفلوا عنه، فيأكله الذئب، وهم عنه غافلون. فقالوا له: لئن أكله الذئب، ونحن مجموعة كبيرة إنا لخاسرون، وذهبوا بيوسف معهم، وألقوه في غيابة الجب، وأوحى الله إلى يوسف أنه سيخبر إخوانه بما كان منهم، وهم لا يشعرون.

وليس بصحيح ما ذكرته التوراة أن التجار المديانيين هم الذي سحبوه من البئر وباعوه لقافلة الإسماعيليين، والصواب ما قرره القرآن وهو أن الذين وجدوه في البئر هم الذين باعوه بثمن بخس في مصر.

وقد تناقضت التوراة عندما ذكرت أن التجار المديانيين باعوا يوسف لقافلة الإسماعيليين، ثم عادت لتذكر أن المديانيين هم الذين باعوه في مصر.

ويذكر القرآن أن إخوة يوسف جاؤوا في المساء أباهم يبكون، وأخبروه أنهم تركوا يوسف عند متاعهم، وانطلقوا يتسابقون، فأكله الذئب، وقالوا له: وما أنت بمؤمن لنا، أي: لست بمصدق لنا، ولو كنا صادقين.

وأخبر القرآن أنهم جاؤوا على قميص يوسف عليه السلام بدم كذب، فلم يصدقهم أبوهم إسرائيل، واتهمهم فيما ادعوه، وأخبرهم بأن أنفسهم سولت لهم أمراً، وعلم أن هذا الذي يجري هو ابتلاء من الله رب العالمين، وقال: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون.

إنه موقف رائع من نبي الله إسرائيل، فهو لم يصدق أبناءه فيما ادعوه، وصبر واحتسب، وهو موقف مخالف لما ذكرته التوراة، فالتوراة تزعم أن إسرائيل صدق دعواهم في أن الذئب أكل يوسف، وقال: وحش رديء قتله، افترسه افتراساً، وادعت التوراة أن إسرائيل مزق ثيابه، ووضع مسحاً على حقويه، وأبى أن يتعزى، وكل ذلك كذب.

قال تعالى مجلياً هذا الجانب من القصة: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ
لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ
﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ
وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ
وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾
فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ
عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾
[يوسف:٧-٢٠].

٥- انتقال يوسف إلى الديار المصرية:

ذكرت التوراة أن المديانيين باعوا يوسف عليه السلام في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط [سفر التكوين، الإصحاح السابع والثلاثون: ٣٦].

ثم عادت التوراة لتخبر أن الذي باع يوسف في مصر لفوطيفار هم الإسماعيليون، وليس المديانيين، وذكرت التوراة «٢وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلاً نَاجِحًا، وَكَانَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ. ٣وَرَأَى سَيِّدُهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ بِيَدِهِ. ٤فَوَجَدَ يُوسُفُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ، وَخَدَمَهُ، فَوَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَدَفَعَ إِلَى يَدِهِ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. ٥وَكَانَ مِنْ حِينِ وَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ، أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ الْمِصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ. وَكَانَتْ بَرَكَةُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي الْحَقْلِ، ٦فَتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَعْرِفُ شَيْئًا إِلاَّ الْخُبْزَ الَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الصُّورَةِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع والثلاثون: ٢-٦].

والذي ذكره القرآن في هذا الجانب من القصة أن قافلة مرت بالبئر الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام، وعندما أدلى الموكول إليه استقاء الماء دلوه في البئر خرج له يوسف مع الدلو، فقال: يا بشرى هذا غلام، وأخذوه بضاعة ليتاجروا به، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، وطلب الذي اشتراه من امرأته أن تكرم مثواه عسى أن ينتفعوا به، أو يتخذوه ولداً، وبذلك يكون يوسف أصبح ذا مكانة في بيت رجل له مركزه الاجتماعي في قومه، فقد كان وزيراً في بلاط الملك، وكان عزيزاً لمصر، وهذا المركز قريب من مركز وزير المالية في هذه الأيام، وذكر القرآن أن يوسف عليه السلام بلغ أشده في هذا البيت، وأتاه الله حكماً وعلماً، وكذلك يجزي الله المحسنين، قال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ

عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٠-٢٢].

وبذلك يظهر أن الرجل الذي اشتراه لم يكن رئيس الشرط كما ذكرت التوراة، بل مرتبته فوق ذلك.

٦- مراودة امرأة صاحب البيت الذي اشترى يوسف عن نفسه:

حدثتنا التوراة أن زوجة صاحب المنزل الذي اشترى يوسف تطلعت إلى يوسف، وطلبت منه أن ينام معها في فراشها، قالت التوراة:

«٧وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةَ سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتِ:
«اضْطَجِعْ مَعِي». ٨فَأَبَى وَقَالَ لامْرَأَةِ سَيِّدِهِ: «هُوَذَا سَيِّدِي لاَ يَعْرِفُ مَعِي مَا فِي
الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدِي. ٩لَيْسَ هُوَ فِي هذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمْسِكْ
عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكِ، لأَنَّكِ امْرَأَتُهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟».
١٠وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجِعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ
مَعَهَا. ١١ثُمَّ حَدَثَ نَحْوَ هذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ
مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. ١٢فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: «اضْطَجِعْ مَعِي!». فَتَرَكَ
ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ. ١٣وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا
وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ، ١٤أَنَّهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتْهُمْ قَائِلَةً: انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا
بِرَجُل عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجِعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. ١٥وَكَانَ
لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى
خَارِجٍ١٦. فَوَضَعَتْ ثَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. ١٧فَكَلَّمَتْهُ بِمِثْلِ هذَا
الْكَلاَمِ قَائِلَةً: دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَيْنَا لِيُدَاعِبَنِي. ١٨وَكَانَ لَمَّا
رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع والثلاثون: ٧-١٨].

٧- التعقيب على هذا الجانب من القصة:

القرآن يصدق هذه الواقعة الواردة والتي تذكر أن زوجة صاحب هذا المنزل راودت يوسف عن نفسه، ولكن القصة فيها خلل واضطراب وقصور.

وما ذكرته التوراة من أن زوجة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت اضطجع معي صحيح، قال الله في القرآن: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف:٢٣] وذكر القرآن ما لم تذكره التوراة ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف:٢٣] ومعنى هيت لك، أي: تهيأت لك.

وذكر القرآن أن يوسف رفض طلبها، ولخص القرآن ما طولت التوراة في ذكره، بقوله ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

وما ذكرته التوراة أن سيدة القصر أمسكت بثوب يوسف، فترك ثوبه في يدها وهرب، وخرج خارج البيت ونادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُلٍ عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجِعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. ١٥وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع والثلاثون: ١٦-٢٠].

هذا الذي ذكرته التوراة فيه خلل، والذي ذكره القرآن أن هذه المرأة همت به، وأنه همّ بها لولا أن رأى برهان ربه، والهمّ الرغبة في فعل الشيء، وقد همت المرأة في واقع الأمر، وطلبت منه أن يفعل ما تريده منه، ولكن الله عصمه من الهم بذلك الفعل، لأنه رأى برهان ربه، والله أعلم بما كان ذلك البرهان الذي عصمه الله به، وبهذا البرهان صرف الله عنه السوء والفحشاء.

وذكر القرآن أنهما استبقا الباب، ذهب هو مسرعاً ليخرج، وينجو منها، وسارعت هي إلى الباب لتمنعه من الخروج، وأثناء هذه المسابقة أمسكت بقميصه وجذبته وانقدّ من ورائه، والمفاجأة أنهما ألفيا سيدها لدى الباب، فأسرعت باتهامه،

وقالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، فدافع عن نفسه، وقال: هي راودتني عن نفسي، وذكر القرآن أن رجلاً من أهل تلك المرأة حكم بأن قميصه إن كان قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى أن قميصه قدَّ من دبر قال: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم، وقال هذا الرجل أو غيره: يا يوسف أعرض عن هذا الذي جرى، وقال لتلك المرأة: استغفري لذنبك وخطيئتك، إنك كنت من الخاطئين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف:٢٤-٢٩].

هذا هو الذي جرى كما وصفه القرآن، وليس صحيحاً ما ذكرته التوراة أن يوسف خلع ثوبه، وهرب خارجاً، وبقي الثوب بجانبها حتى جاء زوجها فأخبرته، وليس بصواب أنها صرخت في أهل بيتها.

٨- تقبيح بعض نساء المدينة ما فعلته امرأة العزيز:

ذكر القرآن أن بعض نساء المدينة استنكرن فعلها في مراودة فتاها عن نفسه، وقالوا: قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين. إن استنكارهن ليس منصبّاً على فعل الفاحشة، وإنما طلب هذا الفعل من فتاها، أي: عبدها وخادمها.

وعندما سمعت ما قالته النسوة في حقها، دعتهن إلى منزلها، وأعدّت لهن مجلساً يجلسن فيه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، لتقطيع بعض ما قدمته إليهن، وأمرته بالخروج عليهن، فلما رأين حسنه وجماله أكبرنه، ولم يشعرن والسكين تجرح أيديهن، وقلن: ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم.

عند ذلك اعترفت لهن بما فعلته، وأنها راودته عن نفسه فاستعصم، واعترفت لهن بأنها ماضية في إيقاعه في الإثم والخطيئة، فإن لم يفعل فمصيره السجن أو عذاب أليم.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٥].

وهذا الذي ذكره القرآن في هذا المقطع لا وجود له في التوراة ألبتة.

٩. دخول يوسف السجن:

ذكرت التوراة أن سيد البيت لما سمع كلام امرأته وضع يوسف في بيت السجن، وذكرت ما أحسن الله به إلى يوسف في سجنه، جاء في التوراة: «١٩ فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلَامَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمَتْهُ بِهِ قَائِلَةً: «بِحَسَبِ هذَا الْكَلَامِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ»، أَنَّ غَضَبَهُ حَمِيَ. ٢٠ فَأَخَذَ يُوسُفَ سَيِّدُهُ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. ٢١ وَلكِنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَ يُوسُفَ، وَبَسَطَ إِلَيْهِ لُطْفًا، وَجَعَلَ نِعْمَةً لَهُ فِي عَيْنَيْ رَئِيسِ بَيْتِ السِّجْنِ. ٢٢ فَدَفَعَ رَئِيسُ بَيْتِ السِّجْنِ إِلَى يَدِ يُوسُفَ جَمِيعَ الأَسْرَى الَّذِينَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. وَكُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ هُنَاكَ كَانَ هُوَ الْعَامِلَ. ٢٣ وَلَمْ يَكُنْ رَئِيسُ بَيْتِ السِّجْنِ يَنْظُرُ شَيْئًا الْبَتَّةَ مِمَّا فِي يَدِهِ، لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَهُ، وَمَهْمَا صَنَعَ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع والثلاثون: ١٩-٢٣].

١٠- التعقيب على هذا الجانب من القصة:

بعد أن بين القرآن ما فعلته امرأة العزيز مع النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، وتصريحها لهن بأنها ستستمر في مراودته عن نفسه، حتى يفعل ما طلبته منه، فإن لم يفعل فالسجن أو عذاب أليم، نجد أن يوسف عليه السلام اختار في مخاطبته لربه دخول السجن على الاستجابة لما دعته النسوة إليه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف:٣٣] ويذكر القرآن أن الله سمع نداءه، واستجاب دعاءه، وصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم، ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف:٣٤] ولم يذكر لنا القرآن كيف صرف الله عنه كيدهن.

وبعد ذلك رأى علية القوم أن يضعوا يوسف في السجن وإن كان بريئاً، لعلهم يخلصون من قالة الناس، وليبرئوا أنفسهم مما قيل، ويحملوا يوسف الإثم ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يوسف:٣٥].

وبهذا العرض من القرآن يظهر لنا القصور في عرض القصة في التوراة، فقد ذكرت أن زوج المرأة وضع يوسف في السجن بعد حصول الواقعة، ولم تذكر التوراة ما قاله الشاهد الذي شهد من أهلها أن القميص إن كان قدّ من قبل فهي صادقة، وإن قدّ من دبر فهي كاذبة، ولم تذكر ما كان من حديث النسوة في المدينة وما فعلته امرأة العزيز بهن، وكيف أخبرتهن أنها ستستمر في مراودتها ليوسف عن نفسه، ولم تذكر التوراة ما كان من بقاء يوسف في المنزل بعد تلك الواقعة، ولم تذكر كيف اختار يوسف دخول السجن على الوقوع في الفاحشة.

١١- يوسف يستمع لرؤيا صاحبي السجن:

تذكر التوراة أن أصحاب الرأي ظلموا يوسف عليه السلام بإدخاله السجن، فبقي في السجن سنتين، وذكرت أنه دخل معه السجن رجلان من أصحاب المكانة الاجتماعية

في تلك المدينة، وقد رأى كل واحد من هذين الرجلين رؤيا، فحدثا يوسف عليه السلام بما رأياه، فأول لكل واحد رؤياه، جاء في التوراة: «١وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ سَاقِيَ مَلِكِ مِصْرَ وَالْخَبَّازَ أَذْنَبَا إِلَى سَيِّدِهِمَا مَلِكِ مِصْرَ. ٢فَسَخِطَ فِرْعَوْنُ عَلَى خَصِيَّيْهِ: رَئِيسِ السُّقَاةِ وَرَئِيسِ الْخَبَّازِينَ، ٣فَوَضَعَهُمَا فِي حَبْسِ بَيْتِ رَئِيسِ الشُّرَطِ، فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوسُفُ مَحْبُوسًا فِيهِ. ٤فَأَقَامَ رَئِيسُ الشُّرَطِ يُوسُفَ عِنْدَهُمَا فَخَدَمَهُمَا. وَكَانَا أَيَّامًا فِي الْحَبْسِ. ٥وَحَلُمَا كِلاَهُمَا حُلْمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ حُلْمَهُ، كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ حُلْمِهِ، سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَخَبَّازُهُ، الْمَحْبُوسَانِ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. ٦فَدَخَلَ يُوسُفُ إِلَيْهِمَا فِي الصَّبَاحِ وَنَظَرَهُمَا، وَإِذَا هُمَا مُغْتَمَّانِ. ٧فَسَأَلَ خَصِيَّيْ فِرْعَوْنَ اللَّذَيْنِ مَعَهُ فِي حَبْسِ بَيْتِ سَيِّدِهِ قَائِلاً: «لِمَاذَا وَجْهَاكُمَا مُكْمَدَّانِ الْيَوْمَ؟» ٨فَقَالاَ لَهُ: «حَلُمْنَا حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ». فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: «أَلَيْسَتْ للهِ التَّعَابِيرُ؟ قُصَّا عَلَيَّ». ٩فَقَصَّ رَئِيسُ السُّقَاةِ حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «كُنْتُ فِي حُلْمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي. ١٠وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلاَثَةُ قُضْبَانٍ، وَهِيَ إِذْ أَفْرَخَتْ طَلَعَ زَهْرُهَا، وَأَنْضَجَتْ عَنَاقِيدُهَا عِنَبًا. ١١وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَأَخَذْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَيْتُ الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ». ١٢فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «هذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلاَثَةُ الْقُضْبَانِ هِيَ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ. ١٣فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيَرُدُّكَ إِلَى مَقَامِكَ، فَتُعْطِي كَأْسَ فِرْعَوْنَ فِي يَدِهِ كَالْعَادَةِ الأُولَى حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ. ١٤وَإِنَّمَا إِذَا ذَكَرْتَنِي عِنْدَكَ حِينَمَا يَصِيرُ لَكَ خَيْرٌ، تَصْنَعُ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَتَذْكُرُنِي لِفِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُنِي مِنْ هذَا الْبَيْتِ. ١٥لأَنِّي قَدْ سُرِقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَهُنَا أَيْضًا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا حَتَّى وَضَعُونِي فِي السِّجْنِ». ١٦فَلَمَّا رَأَى رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ أَنَّهُ عَبَّرَ جَيِّدًا، قَالَ لِيُوسُفَ: «كُنْتُ أَنَا أَيْضًا فِي حُلْمِي وَإِذَا ثَلاَثَةُ سِلاَلِ حُوَّارَى عَلَى رَأْسِي. ١٧وَفِي السَّلِّ الأَعْلَى مِنْ جَمِيعِ طَعَامِ فِرْعَوْنَ مِنْ صَنْعَةِ الْخَبَّازِ. وَالطُّيُورُ تَأْكُلُهُ مِنَ السَّلِّ عَنْ رَأْسِي». ١٨فَأَجَابَ يُوسُفُ وَقَالَ: «هذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلاَثَةُ السِّلاَلِ هِيَ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ. ١٩فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ عَنْكَ، وَيُعَلِّقُكَ عَلَى خَشَبَةٍ، وَتَأْكُلُ الطُّيُورُ لَحْمَكَ عَنْكَ». ٢٠فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، يَوْمِ مِيلاَدِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ صَنَعَ

وَلِيمَةً لِجَمِيعِ عَبِيدِهِ، وَرَفَعَ رَأْسَ رَئِيسِ السُّقَاةِ وَرَأْسَ رَئِيسِ الْخَبَّازِينَ بَيْنَ عَبِيدِهِ. ٢١وَرَدَّ رَئِيسَ السُّقَاةِ إِلَى سَقْيِهِ، فَأَعْطَى الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ. ٢٢وَأَمَّا رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ فَعَلَّقَهُ، كَمَا عَبَّرَ لَهُمَا يُوسُفُ. ٢٣وَلكِنْ لَمْ يَذْكُرْ رَئِيسُ السُّقَاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ» [سفر التكوين، الإصحاح الأربعون: ١-٢٣].

١٢- التعقيب على هذا الجانب من القصة:

صدق القرآن في الجملة ما ذكرته التوراة في شأن هذه الواقعة، ولكن في التوراة قصور بينه القرآن، ذكر القرآن أنه دخل مع يوسف السجن فتيان، ولم يذكر التفصيل الذي ذكرته التوراة، فقد ذكرت أنهما كانا أصحاب مكانة اجتماعية، وكانا من خدم فرعون الأقربين، وكان أحدهما ساقي الفرعون، والثاني خبازه، وبيّن لنا القرآن أن يوسف استمع إلى حلم كل واحد منهما قبل أن يفسر لكل واحد منهما حلمه، وذكر أن يوسف عليه السلام وعظ الفتيين قبل أن يفسر لهما رؤياهما موعظة بليغة، فذكر لهما ما حباه الله به من القدرة على تأويل الرؤيا وأن ذلك مما علمه الله تعالى، وذكر لهما أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله تعالى، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب القائمة على التوحيد والابتعاد عن الشرك، ونادى صاحبيه قائلاً: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، وأخبرهم أن ما يعبدونه من آلهة إنما هو أسماء لا حقيقة لها، فالآلهة الأصنام إنما هي حجر أو شجر أو حديد، لا تضر ولا تنفع، ولا تهدي، ولا تسمع، فهي أسماء سموها وسماها آباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، أي لا يوجد دليل يدل على أنها حق، وقرر أن الحكم لله الواحد الأحد، أمر أن لا نعبد إلهاً غيره، وقرر أن هذا هو الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَىٰنِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَىٰنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ

بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:٣٦-٤٠].

إن هذه الموعظة البليغة التي ألقاها على مسامع الفتيين اللذين دخلا معه السجن والتي لا وجود لها في التوراة، إنما هي نموذج لما كان يقوم به يوسف عليه السلام من تقرير عقيدة التوحيد، والدعوة إلى الله تعالى.

١٢- تأويل يوسف رؤيا صاحبيه:

اختصر القرآن ما ذكرته التوراة في رؤيا صاحبيه، واختصر تفسيرها أيضاً في كلمات، قال القرآن مبيناً ما رآه صاحباه ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف:٣٦].

وقال تعالى مبيناً تأويل هاتين الرؤيتين وفق ما ذكره يوسف عليه السلام لصاحبيه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف:٤١].

هكذا فعل يوسف عليه السلام، استمع إلى صاحبيه في حديثهما عن رؤياهما، وأجابهما عن رؤياهما مرة واحدة، وبعد ذلك طلب من الذي ظنَّ أنه ناج من القتل أن يذكره عند ربّه، فلبث يوسف في السجن بضع سنين ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢] والرب الذي أمر يوسف الفتى أن يذكره عنده الملك، والبضع في اللغة فترة زمنية تمتد من ثلاث إلى عشر سنوات، فعلى ذلك فقد بقي في السجن مدة أقلها ثلاث سنين، لا كما تقول التوراة أنها سنتان.

١٤- تفسير يوسف عليه السلام رؤيا الملك:

مكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، ثم رأى الملك رؤيا أزعجته، ودعا إليه الذين يحسنون تأويل الرؤيا، فلم يستطيع أحد منهم أن يفسر له رؤياه، تقول التوراة فيما رآه الملك: «١وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلْمًا: وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ النَّهْرِ، ٢وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ٣ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ، فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ٤فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ. ٥ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً: وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ٦ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا. ٧فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ السَّمِينَةَ الْمُمْتَلِئَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ، وَإِذَا هُوَ حُلْمٌ. ٨وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انْزَعَجَتْ، فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَائِهَا. وَقَصَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ حُلْمَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُعَبِّرُهُ لِفِرْعَوْنَ. ٩ثُمَّ كَلَّمَ رَئِيسُ السُّقَاةِ فِرْعَوْنَ قَائِلاً: «أَنَا أَتَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ. ١٠فِرْعَوْنُ سَخِطَ عَلَى عَبْدَيْهِ، فَجَعَلَنِي فِي حَبْسِ بَيْتِ رَئِيسِ الشُّرَطِ أَنَا وَرَئِيسَ الْخَبَّازِينَ. ١١فَحَلُمْنَا حُلْمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَنَا وَهُوَ. حَلُمْنَا كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ حُلْمِهِ. ١٢وَكَانَ هُنَاكَ مَعَنَا غُلاَمٌ عِبْرَانِيٌّ عَبْدٌ لِرَئِيسِ الشُّرَطِ، فَقَصَصْنَا عَلَيْهِ، فَعَبَّرَ لَنَا حُلْمَيْنَا. عَبَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ حُلْمِهِ. ١٣وَكَمَا عَبَّرَ لَنَا هكَذَا حَدَثَ. رَدَّنِي أَنَا إِلَى مَقَامِي، وَأَمَّا هُوَ فَعَلَّقَهُ». ١٤فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا يُوسُفَ، فَأَسْرَعُوا بِهِ مِنَ السِّجْنِ. فَحَلَقَ وَأَبْدَلَ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ عَلَى فِرْعَوْنَ. ١٥فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «حَلُمْتُ حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ. وَأَنَا سَمِعْتُ عَنْكَ قَوْلاً، إِنَّكَ تَسْمَعُ أَحْلاَمًا لِتُعَبِّرَهَا». ١٦فَأَجَابَ يُوسُفُ فِرْعَوْنَ: «لَيْسَ لِي. اَللهُ يُجِيبُ بِسَلاَمَةِ فِرْعَوْنَ». ١٧فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «إِنِّي كُنْتُ فِي حُلْمِي وَاقِفًا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، ١٨وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ سَمِينَةِ اللَّحْمِ وَحَسَنَةِ الصُّورَةِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ١٩ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى

طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مَهْزُولَةً وَقَبِيحَةَ الصُّورَةِ جِدًّا وَرَقِيقَةَ اللَّحْمِ. لَمْ أَنْظُرْ فِي كُلِّ أَرْضِ
مِصْرَ مِثْلَهَا فِي الْقَبَاحَةِ. ٢٠فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الرَّقِيقَةُ وَالْقَبِيحَةُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الأُولَى
السَّمِينَةَ. ٢١فَدَخَلَتْ أَجْوَافَهَا، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّهَا دَخَلَتْ فِي أَجْوَافِهَا، فَكَانَ مَنْظَرُهَا
قَبِيحًا كَمَا فِي الأَوَّلِ. وَاسْتَيْقَظْتُ. ٢٢ثُمَّ رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٌ فِي
سَاقٍ وَاحِدٍ مُمْتَلِئَةً وَحَسَنَةً. ٢٣ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ يَابِسَةً رَقِيقَةً مَلْفُوحَةً بِالرِّيحِ
الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٌ وَرَاءَهَا. ٢٤فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ. فَقُلْتُ
لِلسَّحَرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُخْبِرُنِي». ٢٥فَقَالَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ: «حُلْمُ فِرْعَوْنَ وَاحِدٌ. قَدْ
أَخْبَرَ اللهُ فِرْعَوْنَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ. ٢٦اَلْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ، وَالسَّنَابِلُ
السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ. هُوَ حُلْمٌ وَاحِدٌ. ٢٧وَالْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الرَّقِيقَةُ الْقَبِيحَةُ
الَّتِي طَلَعَتْ وَرَاءَهَا هِيَ سَبْعُ سِنِينَ، وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْفَارِغَةُ الْمَلْفُوحَةُ بِالرِّيحِ
الشَّرْقِيَّةِ تَكُونُ سَبْعَ سِنِينَ جُوعًا. ٢٨هُوَ الأَمْرُ الَّذِي كَلَّمْتُ بِهِ فِرْعَوْنَ. قَدْ أَظْهَرَ اللهُ
لِفِرْعَوْنَ مَا هُوَ صَانِعٌ. ٢٩هُوَذَا سَبْعُ سِنِينَ قَادِمَةٌ شِبَعًا عَظِيمًا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ.
٣٠ثُمَّ تَقُومُ بَعْدَهَا سَبْعُ سِنِينَ جُوعًا، فَيُنْسَى كُلُّ الشِّبَعِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَيُتْلِفُ الْجُوعُ
الأَرْضَ. ٣١وَلاَ يُعْرَفُ الشِّبَعُ فِي الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ الْجُوعِ بَعْدَهُ، لأَنَّهُ يَكُونُ
شَدِيدًا جِدًّا. ٣٢وَأَمَّا عَنْ تَكْرَارِ الْحُلْمِ عَلَى فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ، فَلأَنَّ الأَمْرَ مُقَرَّرٌ مِنْ قِبَلِ
اللهِ، وَاللهُ مُسْرِعٌ لِيَصْنَعَهُ. ٣٣«فَالآنَ لِيَنْظُرْ فِرْعَوْنُ رَجُلاً بَصِيرًا وَحَكِيمًا وَيَجْعَلْهُ عَلَى
أَرْضِ مِصْرَ. ٣٤يَفْعَلْ فِرْعَوْنُ فَيُوَكِّلْ نُظَّارًا عَلَى الأَرْضِ، وَيَأْخُذْ خُمْسَ غَلَّةِ أَرْضِ
مِصْرَ فِي سَبْعِ سِنِي الشِّبَعِ، ٣٥فَيَجْمَعُونَ جَمِيعَ طَعَامِ هذِهِ السِّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ،
وَيَخْزِنُونَ قَمْحًا تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. ٣٦فَيَكُونُ الطَّعَامُ ذَخِيرَةً
لِلأَرْضِ لِسَبْعِ سِنِي الْجُوعِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَلاَ تَنْقَرِضُ الأَرْضُ بِالْجُوعِ».
٣٧فَحَسُنَ الْكَلاَمُ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ. ٣٨فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ:
«هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هذَا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ؟» ٣٩ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ
اللهُ كُلَّ هذَا، لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ. ٤٠أَنْتَ تَكُونُ عَلَى بَيْتِي، وَعَلَى فَمِكَ يُقَبِّلُ
جَمِيعُ شَعْبِي إِلاَّ إِنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ» [سفر التكوين، الإصحاح الأربعون: ١-٤٠].

١٥- التعقيب على هذا القدر من القصة:

هذا القدر من القصة صحيح جاء بمثله القرآن، ولكنه ناقص في بعض جوانبه في التوراة، وفيه بعض الخلل في ذكر وقائعه، لقد لخص القرآن رؤيا الملك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف٤٣].

ثم ذكر القرآن ما قاله الذين دعاهم الملك لتفسير رؤياه قال: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤].

عند ذلك تذكر الفتى الذي كان دخل السجن، وفسّر له يوسف رؤياه، وكان التفسير صادقاً، تذكر ما كان من يوسف ﷺ ، فطلب من الملك أن يرسلوه إلى يوسف، ليعرفه بتأويل الرؤيا.

إن التوراة تذكر أن هذا الرجل قصَّ على الملك ما كان من تأويل يوسف لرؤياه، فطلب الملك إحضاره إليه، فأحضروه، فقص عليه الملك الرؤيا، وفسّرها يوسف له، وهذا غير صحيح، والصواب من القول أن ذلك الرجل الذي تدعوه التوراة رئيس سقاة فرعون ذهب بنفسه، وأخبره بالرؤيا، ففسرها له، فجاء هذا الرجل إلى الملك، وحدثه بالتفسير الذي فسر به يوسف الرؤيا.

ويذكر القرآن أن الملك عندما طلب أن يأتوه بيوسف رفض الخروج من السجن، حتى يحقق الملك فيما افترته النساء عليه، فأحضرهن الملك إليه، وسألهن عما كان منهن تجاه يوسف، فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، وعند ذلك اعترفت امرأة العزيز بما كان منها من مراودتها ليوسف عن نفسه وإنه لمن الصادقين، وتجلت الحقيقة بعد ذلك للملك ولزوج تلك المرأة وللناس جميعاً، تجلت براءة يوسف ﷺ، عرف الناس أنه عندما مكث في السجن بضع سنين كان مظلوماً، وقال يوسف مبيناً أنه لم يخن ذلك الرجل الذي ائتمنه على منزله وأهله ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف:٥٢] وقال يوسف أيضاً متواضعاً لله، غير فاخر بما وقع له: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:٥٣].

عند ذلك طلب الملك من العاملين عنده أن يأتوه بيوسف ليستخلصه لنفسه، فلما جاءه قال له: إنك لدينا مكين أمين.

وما ذكرته التوراة أن الملك هو الذي اختاره ابتداءً ليكون عزيز مصر غير صحيح، بل يوسف هو الذي طلب من الملك أن يوليه على خزائن الأرض، فولاه، وبذلك انتقل يوسف من السجن إلى الحكم، ومن الضعف إلى القوة، وأصبح عزيز مصر، وأخذ يوسف بعد ضيق السجن يتبوأ من الأرض حيث يشاء، قال تعالى مبيناً ذلك كله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٤٥-٥٧].

١٦- مجيء إخوة يوسف إلى مصر لشراء القمح:

تذكر التوراة أن ملك مصر قال ليوسف: «قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٤٢وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ، وَوَضَعَ طَوْقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ، ٤٣وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادَوْا أَمَامَهُ «ارْكَعُوا». وَجَعَلَهُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٤وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ. فَبِدُونِكَ لاَ يَرْفَعُ إِنْسَانٌ يَدَهُ وَلاَ رِجْلَهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٤٥وَدَعَا فِرْعَوْنُ اسْمَ يُوسُفَ «صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ»، وَأَعْطَاهُ أَسْنَاتَ بِنْتَ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ زَوْجَةً. فَخَرَجَ يُوسُفُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. ٤٦وَكَانَ يُوسُفُ ابْنَ ثَلاَثِينَ سَنَةً لَمَّا وَقَفَ قُدَّامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ. فَخَرَجَ يُوسُفُ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَاجْتَازَ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٧وَأَثْمَرَتِ الأَرْضُ فِي سَبْعِ سِنِي الشِّبَعِ بِحُزَمٍ. ٤٨فَجَمَعَ كُلَّ طَعَامِ السَّبْعِ سِنِينَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَجَعَلَ طَعَامًا فِي الْمُدُنِ. طَعَامَ حَقْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِي حَوَالَيْهَا جَعَلَهُ فِيهَا. ٤٩وَخَزَنَ يُوسُفُ قَمْحًا كَرَمْلِ الْبَحْرِ، كَثِيرًا جِدًّا حَتَّى تَرَكَ الْعَدَدَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَدَدٌ. ٥٠وَوُلِدَ لِيُوسُفَ ابْنَانِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ سَنَةُ الْجُوعِ، وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ. ٥١وَدَعَا يُوسُفُ اسْمَ الْبِكْرِ «مَنَسَّى» قَائِلاً: «لأَنَّ اللهَ أَنْسَانِي كُلَّ تَعَبِي وَكُلَّ بَيْتِ أَبِي». ٥٢وَدَعَا اسْمَ الثَّانِي «أَفْرَايِمَ» قَائِلاً: «لأَنَّ اللهَ جَعَلَنِي مُثْمِرًا فِي أَرْضِ مَذَلَّتِي». ٥٣ثُمَّ كَمِلَتْ سَبْعُ سِنِي الشِّبَعِ الَّذِي كَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٤وَابْتَدَأَتْ سَبْعُ سِنِي الْجُوعِ تَأْتِي كَمَا قَالَ يُوسُفُ، فَكَانَ جُوعٌ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ. وَأَمَّا جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ فَكَانَ فِيهَا خُبْزٌ. ٥٥وَلَمَّا جَاعَتْ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ وَصَرَخَ الشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ لأَجْلِ الْخُبْزِ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِكُلِّ الْمِصْرِيِّينَ: «اذْهَبُوا إِلَى يُوسُفَ، وَالَّذِي يَقُولُ لَكُمُ افْعَلُوا». ٥٦وَكَانَ الْجُوعُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ، وَفَتَحَ يُوسُفُ جَمِيعَ مَا فِيهِ طَعَامٌ وَبَاعَ لِلْمِصْرِيِّينَ. وَاشْتَدَّ الْجُوعُ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٧وَجَاءَتْ كُلُّ الأَرْضِ إِلَى مِصْرَ إِلَى يُوسُفَ لِتَشْتَرِيَ قَمْحًا، لأَنَّ الْجُوعَ كَانَ شَدِيدًا فِي كُلِّ الأَرْضِ» [سفر التكوين، الإصحاح الحادي والأربعون: ٤١-٥٧].

وفي السفر الثاني والأربعون، قالت التوراة: «١فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ، قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: «لِمَاذَا تَنْظُرُونَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟» ٢وَقَالَ «إِنِّي قَدْ

سَمِعْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ. انْزِلُوا إِلَى هُنَاكَ وَاشْتَرُوا لَنَا مِنْ هُنَاكَ لِنَحْيَا وَلاَ
نَمُوتَ». ٣فَنَزَلَ عَشَرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِيَشْتَرُوا قَمْحًا مِنْ مِصْرَ. ٤وَأَمَّا بَنْيَامِينُ
أَخُو يُوسُفَ فَلَمْ يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ، لأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ تُصِيبُهُ أَذِيَّةٌ». ٥فَأَتَى بَنُو
إِسْرَائِيلَ لِيَشْتَرُوا بَيْنَ الَّذِينَ أَتَوْا، لأَنَّ الْجُوعَ كَانَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٦وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ
الْمُسَلَّطَ عَلَى الأَرْضِ، وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الأَرْضِ. فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا
لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الأَرْضِ. ٧وَلَمَّا نَظَرَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ عَرَفَهُمْ، فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ
بِجَفَاءٍ، وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟» فَقَالُوا: «مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا».
٨وَعَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَعْرِفُوهُ. ٩فَتَذَكَّرَ يُوسُفُ الأَحْلاَمَ الَّتِي حَلُمَ
عَنْهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! لِتَرَوْا عَوْرَةَ الأَرْضِ جِئْتُمْ» ١٠فَقَالُوا لَهُ: «لاَ يَا
سَيِّدِي، بَلْ عَبِيدُكَ جَاءُوا لِيَشْتَرُوا طَعَامًا. ١١نَحْنُ جَمِيعُنَا بَنُو رَجُل وَاحِدٍ. نَحْنُ
أُمَنَاءُ، لَيْسَ عَبِيدُكَ جَوَاسِيسَ». ١٢فَقَالَ لَهُمْ: «كَلاَّ! بَلْ لِتَرَوْا عَوْرَةَ الأَرْضِ جِئْتُمْ».
١٣فَقَالُوا: «عَبِيدُكَ اثْنَا عَشَرَ أَخًا. نَحْنُ بَنُو رَجُل وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَهُوَذَا
الصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِينَا الْيَوْمَ، وَالْوَاحِدُ مَفْقُودٌ». ١٤فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «ذلِكَ مَا كَلَّمْتُكُمْ بِهِ
قَائِلاً: جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! ١٥بِهذَا تُمْتَحَنُونَ. وَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ لاَ تَخْرُجُونَ مِنْ هُنَا إِلاَّ
بِمَجِيءِ أَخِيكُمُ الصَّغِيرِ إِلَى هُنَا. ١٦أَرْسِلُوا مِنْكُمْ وَاحِدًا لِيَجِيءَ بِأَخِيكُمْ، وَأَنْتُمْ
تُحْبَسُونَ، فَيُمْتَحَنَ كَلاَمُكُمْ هَلْ عِنْدَكُمْ صِدْقٌ. وَإِلاَّ فَوَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ
لَجَوَاسِيسُ!». ١٧فَجَمَعَهُمْ إِلَى حَبْسٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ. ١٨ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يُوسُفُ فِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ: «افْعَلُوا هذَا وَاحْيَوْا. أَنَا خَائِفُ اللهِ. ١٩إِنْ كُنْتُمْ أُمَنَاءَ فَلْيُحْبَسْ أَخٌ وَاحِدٌ
مِنْكُمْ فِي بَيْتِ حَبْسِكُمْ، وَانْطَلِقُوا أَنْتُمْ وَخُذُوا قَمْحًا لِمَجَاعَةِ بُيُوتِكُمْ. ٢٠وَأَحْضِرُوا
أَخَاكُمُ الصَّغِيرَ إِلَيَّ، فَيَتَحَقَّقَ كَلاَمُكُمْ وَلاَ تَمُوتُوا». فَفَعَلُوا هكَذَا. ٢١وَقَالُوا بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ: «حَقًّا إِنَّنَا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ.
لِذلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هذِهِ الضِّيقَةُ». ٢٢فَأَجَابَهُمْ رَأُوبَيْنُ قَائِلاً: «أَلَمْ أُكَلِّمْكُمْ قَائِلاً: لاَ
تَأْثَمُوا بِالْوَلَدِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا؟ فَهُوَذَا دَمُهُ يُطْلَبُ». ٢٣وَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ
فَاهِمٌ، لأَنَّ التُّرْجُمَانَ كَانَ بَيْنَهُمْ. ٢٤فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ،

وَأَخَذَ مِنْهُمْ شِمْعُونَ وَقَيَّدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ. ٢٥ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ أَنْ تُمْلأَ أَوْعِيَتُهُمْ قَمْحًا،
وَتُرَدَّ فِضَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى عِدْلِهِ، وَأَنْ يُعْطَوْا زَادًا لِلطَّرِيقِ. فَفُعِلَ لَهُمْ هكَذَا.
٢٦فَحَمَلُوا قَمْحَهُمْ عَلَى حَمِيرِهِمْ وَمَضَوْا مِنْ هُنَاكَ. ٢٧فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدُهُمْ عِدْلَهُ
لِيُعْطِيَ عَلِيقًا لِحِمَارِهِ فِي الْمَنْزِلِ، رَأَى فِضَّتَهُ وَإِذَا هِيَ فِي فَمِ عِدْلِهِ. ٢٨فَقَالَ لإِخْوَتِهِ:
«رُدَّتْ فِضَّتِي وَهَا هِيَ فِي عِدْلِي». فَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ وَارْتَعَدُوا بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَائِلِينَ:
«مَا هذَا الَّذِي صَنَعَهُ اللهُ بِنَا؟». ٢٩فَجَاءُوا إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ،
وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ مَا أَصَابَهُمْ قَائِلِينَ: ٣٠«تَكَلَّمَ مَعَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الأَرْضِ بِجَفَاءٍ،
وَحَسِبَنَا جَوَاسِيسَ الأَرْضِ. ٣١فَقُلْنَا لَهُ: نَحْنُ أُمَنَاءُ، لَسْنَا جَوَاسِيسَ. ٣٢نَحْنُ اثْنَا
عَشَرَ أَخًا بَنُو أَبِينَا. الْوَاحِدُ مَفْقُودٌ وَالصَّغِيرُ الْيَوْمَ عِنْدَ أَبِينَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٣٣فَقَالَ
لَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الأَرْضِ: بِهذَا أَعْرِفُ أَنَّكُمْ أُمَنَاءُ. دَعُوا أَخًا وَاحِدًا مِنْكُمْ عِنْدِي،
وَخُذُوا لِمَجَاعَةِ بُيُوتِكُمْ وَانْطَلِقُوا. ٣٤وَأَحْضِرُوا أَخَاكُمُ الصَّغِيرَ إِلَيَّ فَأَعْرِفَ أَنَّكُمْ
لَسْتُمْ جَوَاسِيسَ، بَلْ أَنَّكُمْ أُمَنَاءُ، فَأُعْطِيَكُمْ أَخَاكُمْ وَتَتَّجِرُونَ فِي الأَرْضِ». ٣٥وَإِذْ
كَانُوا يُفَرِّغُونَ عِدَالَهُمْ إِذَا صُرَّةُ فِضَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ فِي عِدْلِهِ. فَلَمَّا رَأَوْا صُرَرَ فِضَّتِهِمْ هُمْ
وَأَبُوهُمْ خَافُوا. ٣٦فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: «أَعْدَمْتُمُونِي الأَوْلاَدَ. يُوسُفُ مَفْقُودٌ،
وَشِمْعُونُ مَفْقُودٌ، وَبَنْيَامِينُ تَأْخُذُونَهُ. صَارَ كُلُّ هذَا عَلَيَّ». ٣٧وَكَلَّمَ رَأُوبَيْنُ أَبَاهُ
قَائِلاً: «اقْتُلِ ابْنَيَّ إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ. سَلِّمْهُ بِيَدِي وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ». ٣٨فَقَالَ: لاَ
يَنْزِلُ ابْنِي مَعَكُمْ، لأَنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ، وَهُوَ وَحْدَهُ بَاق. فَإِنْ أَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ
الَّتِي تَذْهَبُونَ فِيهَا تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني
والأربعون: ١-٣٨].

وجاء في الإصحاح الثالث والأربعون من سفر التكوين: «١وَكَانَ الْجُوعُ
شَدِيدًا فِي الأَرْضِ. ٢وَحَدَثَ لَمَّا فَرَغُوا مِنْ أَكْلِ الْقَمْحِ الَّذِي جَاءُوا بِهِ مِنْ مِصْرَ، أَنَّ
أَبَاهُمْ قَالَ لَهُمْ: «ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ». ٣فَكَلَّمَهُ يَهُوذَا قَائِلاً: «إِنَّ
الرَّجُلَ قَدْ أَشْهَدَ عَلَيْنَا قَائِلاً: لاَ تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ. ٤إِنْ
كُنْتَ تُرْسِلُ أَخَانَا مَعَنَا، نَنْزِلُ وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَامًا، ٥وَلكِنْ إِنْ كُنْتَ لاَ تُرْسِلُهُ لاَ

نَنْزِلُ. لأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لاَ تَرَوْنَ وَجْهِي بِدُونِ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ». ٦فَقَالَ
إِسْرَائِيلُ: «لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْبَرْتُمُ الرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخًا أَيْضًا؟» ٧فَقَالُوا: «إِنَّ
الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَ عَنَّا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا، قَائِلاً: هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ بَعْدُ؟ هَلْ لَكُمْ أَخٌ؟
فَأَخْبَرْنَاهُ بِحَسَبِ هذَا الْكَلاَمِ. هَلْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ: انْزِلُوا بِأَخِيكُمْ؟». ٨وَقَالَ
يَهُوذَا لإِسْرَائِيلَ أَبِيهِ: «أَرْسِلِ الْغُلاَمَ مَعِي لِنَقُومَ وَنَذْهَبَ وَنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ، نَحْنُ
وَأَنْتَ وَأَوْلاَدُنَا جَمِيعًا. ٩أَنَا أَضْمَنُهُ. مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ. إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ وَأُوقِفْهُ
قُدَّامَكَ، أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَيْكَ كُلَّ الأَيَّامِ. ١٠لأَنَّنَا لَوْ لَمْ نَتَوَانَ لَكُنَّا قَدْ رَجَعْنَا الآنَ
مَرَّتَيْنِ». ١١فَقَالَ لَهُمْ إِسْرَائِيلُ أَبُوهُمْ: «إِنْ كَانَ هكَذَا فَافْعَلُوا هذَا: خُذُوا مِنْ أَفْخَرِ
جَنَى الأَرْضِ فِي أَوْعِيَتِكُمْ، وَأَنْزِلُوا لِلرَّجُلِ هَدِيَّةً. قَلِيلاً مِنَ الْبَلَسَانِ، وَقَلِيلاً مِنَ
الْعَسَلِ، وَكَثِيرَاءَ وَلاَذَنًا وَفُسْتُقًا وَلَوْزًا. ١٢وَخُذُوا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِيكُمْ. وَالْفِضَّةُ
الْمَرْدُودَةُ فِي أَفْوَاهِ عِدَالِكُمْ رُدُّوهَا فِي أَيَادِيكُمْ، لَعَلَّهُ كَانَ سَهْوًا. ١٣وَخُذُوا أَخَاكُمْ
وَقُومُوا ارْجِعُوا إِلَى الرَّجُلِ. ١٤وَاللهُ الْقَدِيرُ يُعْطِيكُمْ رَحْمَةً أَمَامَ الرَّجُلِ حَتَّى يُطْلِقَ
لَكُمْ أَخَاكُمُ الآخَرَ وَبَنْيَامِينَ. وَأَنَا إِذَا عَدِمْتُ الأَوْلاَدَ عَدِمْتُهُمْ». ١٥فَأَخَذَ الرِّجَالُ
هذِهِ الْهَدِيَّةَ، وَأَخَذُوا ضِعْفَ الْفِضَّةِ فِي أَيَادِيهِمْ، وَبَنْيَامِينَ، وَقَامُوا وَنَزَلُوا إِلَى مِصْرَ
وَوَقَفُوا أَمَامَ يُوسُفَ. ١٦فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ بَنْيَامِينَ مَعَهُمْ، قَالَ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ: «أَدْخِلِ
الرِّجَالَ إِلَى الْبَيْتِ وَاذْبَحْ ذَبِيحَةً وَهَيِّئْ، لأَنَّ الرِّجَالَ يَأْكُلُونَ مَعِي عِنْدَ الظُّهْرِ».
١٧فَفَعَلَ الرَّجُلُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ. وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ.
١٨فَخَافَ الرِّجَالُ إِذْ أُدْخِلُوا إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَقَالُوا: «لِسَبَبِ الْفِضَّةِ الَّتِي رَجَعَتْ
أَوَّلاً فِي عِدَالِنَا نَحْنُ قَدْ أُدْخِلْنَا لِيَهْجِمَ عَلَيْنَا وَيَقَعَ بِنَا وَيَأْخُذَنَا عَبِيدًا وَحَمِيرَنَا».
١٩فَتَقَدَّمُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَكَلَّمُوهُ فِي بَابِ الْبَيْتِ ٢٠وَقَالُوا:
«اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي، إِنَّنَا قَدْ نَزَلْنَا أَوَّلاً لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. ٢١وَكَانَ لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ أَنَّنَا
فَتَحْنَا عِدَالَنَا، وَإِذَا فِضَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عِدْلِهِ. فِضَّتُنَا بِوَزْنِهَا. فَقَدْ رَدَدْنَاهَا فِي أَيَادِينَا.
٢٢وَأَنْزَلْنَا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِينَا لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. لاَ نَعْلَمُ مَنْ وَضَعَ فِضَّتَنَا فِي
عِدَالِنَا». ٢٣فَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ، لاَ تَخَافُوا. إِلهُكُمْ وَإِلهُ أَبِيكُمْ أَعْطَاكُمْ كَنْزًا فِي

عِدَالِكُمْ. فِضَّتُكُمْ وَصَلَتْ إِلَيَّ». ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ شِمْعُونَ. ٢٤وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ
الرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَأَعْطَاهُمْ مَاءً لِيَغْسِلُوا أَرْجُلَهُمْ، وَأَعْطَى عَلِيقًا لِحَمِيرِهِمْ.
٢٥وَهَيَّأُوا الْهَدِيَّةَ إِلَى أَنْ يَجِيءَ يُوسُفُ عِنْدَ الظُّهْرِ، لأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُمْ هُنَاكَ يَأْكُلُونَ
طَعَامًا. ٢٦فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أَيَادِيهِمْ إِلَى الْبَيْتِ،
وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الأَرْضِ. ٢٧فَسَأَلَ عَنْ سَلاَمَتِهِمْ، وَقَالَ: «أَسَالِمٌ أَبُوكُمُ الشَّيْخُ الَّذِي
قُلْتُمْ عَنْهُ؟ أَحَيٌّ هُوَ بَعْدُ؟» ٢٨فَقَالُوا: «عَبْدُكَ أَبُونَا سَالِمٌ. هُوَ حَيٌّ بَعْدُ». وَخَرُّوا
وَسَجَدُوا. ٢٩فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ بَنْيَامِينَ أَخَاهُ ابْنَ أُمِّهِ، وَقَالَ: «أَهذَا أَخُوكُمُ الصَّغِيرُ
الَّذِي قُلْتُمْ لِي عَنْهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «اللهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ يَا ابْنِي». ٣٠وَاسْتَعْجَلَ يُوسُفُ لأَنَّ
أَحْشَاءَهُ حَنَّتْ إِلَى أَخِيهِ وَطَلَبَ مَكَانًا لِيَبْكِيَ، فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ وَبَكَى هُنَاكَ. ٣١ثُمَّ
غَسَلَ وَجْهَهُ وَخَرَجَ وَتَجَلَّدَ، وَقَالَ: «قَدِّمُوا طَعَامًا». ٣٢فَقَدَّمُوا لَهُ وَحْدَهُ، وَلَهُمْ
وَحْدَهُمْ، وَلِلْمِصْرِيِّينَ الآكِلِينَ عِنْدَهُ وَحْدَهُمْ، لأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْكُلُوا
طَعَامًا مَعَ الْعِبْرَانِيِّينَ، لأَنَّهُ رِجْسٌ عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ. ٣٣فَجَلَسُوا قُدَّامَهُ: الْبِكْرُ بِحَسَبِ
بَكُورِيَّتِهِ، وَالصَّغِيرُ بِحَسَبِ صِغَرِهِ، فَبُهِتَ الرِّجَالُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. ٣٤وَرَفَعَ
حِصَصًا مِنْ قُدَّامِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَانَتْ حِصَّةُ بَنْيَامِينَ أَكْثَرَ مِنْ حِصَصِ جَمِيعِهِمْ خَمْسَةَ
أَضْعَافٍ. وَشَرِبُوا وَرَوُوا مَعَهُ» [سفر التكوين، الإصحاح الثالث والأربعون: ١-٣٤].

وجاء في الإصحاح الرابع والأربعين من سفر التكوين: «١ثُمَّ أَمَرَ الَّذِي عَلَى
بَيْتِهِ قَائِلاً: «امْلأْ عِدَالَ الرِّجَالِ طَعَامًا حَسَبَ مَا يُطِيقُونَ حَمْلَهُ، وَضَعْ فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ
فِي فَمِ عِدْلِهِ. ٢وَطَاسِي، طَاسَ الْفِضَّةِ، تَضَعُ فِي فَمِ عِدْلِ الصَّغِيرِ، وَثَمَنَ قَمْحِهِ».
فَفَعَلَ بِحَسَبِ كَلاَمِ يُوسُفَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ. ٣فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ انْصَرَفَ الرِّجَالُ هُمْ
وَحَمِيرُهُمْ. ٤وَلَمَّا كَانُوا قَدْ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَبْتَعِدُوا، قَالَ يُوسُفُ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ:
«قُمِ اسْعَ وَرَاءَ الرِّجَالِ، وَمَتَى أَدْرَكْتَهُمْ فَقُلْ لَهُمْ: لِمَاذَا جَازَيْتُمْ شَرًّا عِوَضًا عَنْ خَيْرٍ؟
٥أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي يَشْرَبُ سَيِّدِي فِيهِ؟ وَهُوَ يَتَفَاءَلُ بِهِ. أَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ».
٦فَأَدْرَكَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هذَا الْكَلاَمَ. ٧فَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي مِثْلَ هذَا الْكَلاَمِ؟
حَاشَا لِعَبِيدِكَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ هذَا الأَمْرِ! ٨هُوَذَا الْفِضَّةُ الَّتِي وَجَدْنَا فِي أَفْوَاهِ عِدَالِنَا

رَدَدْنَاهَا إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. فَكَيْفَ نَسْرِقُ مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ فِضَّةً أَوْ ذَهَبًا؟ ٩اَلَّذِي
يُوجَدُ مَعَهُ مِنْ عَبِيدِكَ يَمُوتُ، وَنَحْنُ أَيْضًا نَكُونُ عَبِيدًا لِسَيِّدِي». ١٠فَقَالَ: «نَعَم،
الآنَ بِحَسَبِ كَلاَمِكُمْ هكَذَا يَكُونُ. اَلَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ يَكُونُ لِي عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ
فَتَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ». ١١فَاسْتَعْجَلُوا وَأَنْزَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ إِلَى الأَرْضِ، وَفَتَحُوا كُلُّ
وَاحِدٍ عِدْلَهُ. ١٢فَفَتَّشَ مُبْتَدِئًا مِنَ الْكَبِيرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّغِيرِ، فَوُجِدَ الطَّاسُ فِي
عِدْلِ بَنْيَامِينَ. ١٣فَمَزَّقُوا ثِيَابَهُمْ وَحَمَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حِمَارِهِ وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.
١٤فَدَخَلَ يَهُوذَا وَإِخْوَتُهُ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَهُوَ بَعْدُ هُنَاكَ، وَوَقَعُوا أَمَامَهُ عَلَى
الأَرْضِ. ١٥فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «مَا هذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْتُمْ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجُلاً مِثْلِي
يَتَفَاءَلُ؟» ١٦فَقَالَ يَهُوذَا: «مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي؟ مَاذَا نَتَكَلَّمُ؟ وَبِمَاذَا نَتَبَرَّرُ؟ اللهُ قَدْ
وَجَدَ إِثْمَ عَبِيدِكَ. هَا نَحْنُ عَبِيدٌ لِسَيِّدِي، نَحْنُ وَالَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ جَمِيعًا».
١٧فَقَالَ: «حَاشَا لِي أَنْ أَفْعَلَ هذَا! الرَّجُلُ الَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ هُوَ يَكُونُ لِي
عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاصْعَدُوا بِسَلاَمٍ إِلَى أَبِيكُمْ». ١٨ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَهُوذَا وَقَالَ: «اسْتَمِعْ
يَا سَيِّدِي. لِيَتَكَلَّمْ عَبْدُكَ كَلِمَةً فِي أُذُنَيْ سَيِّدِي وَلاَ يَحْمَ غَضَبُكَ عَلَى عَبْدِكَ، لأَنَّكَ مِثْلُ
فِرْعَوْنَ. ١٩سَيِّدِي سَأَلَ عَبِيدَهُ قَائِلاً: هَلْ لَكُمْ أَبٌ أَوْ أَخٌ؟ ٢٠فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَنَا أَبٌ
شَيْخٌ، وَابْنُ شَيْخُوخَةٍ صَغِيرٌ، مَاتَ أَخُوهُ وَبَقِيَ هُوَ وَحْدَهُ لأُمِّهِ، وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ.
٢١فَقُلْتَ لِعَبِيدِكَ: انْزِلُوا بِهِ إِلَيَّ فَأَجْعَلَ نَظَرِي عَلَيْهِ. ٢٢فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لاَ يَقْدِرُ
الْغُلاَمُ أَنْ يَتْرُكَ أَبَاهُ، وَإِنْ تَرَكَ أَبَاهُ يَمُوتُ. ٢٣فَقُلْتَ لِعَبِيدِكَ: إِنْ لَمْ يَنْزِلْ أَخُوكُمُ
الصَّغِيرُ مَعَكُمْ لاَ تَعُودُوا تَنْظُرُونَ وَجْهِي. ٢٤فَكَانَ لَمَّا صَعِدْنَا إِلَى عَبْدِكَ أَبِي أَنَّنَا
أَخْبَرْنَاهُ بِكَلاَمِ سَيِّدِي. ٢٥ثُمَّ قَالَ أَبُونَا: ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ.
٢٦فَقُلْنَا: لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَنْزِلَ، وَإِنَّمَا إِذَا كَانَ أَخُونَا الصَّغِيرُ مَعَنَا نَنْزِلُ، لأَنَّنَا لاَ نَقْدِرُ أَنْ
نَنْظُرَ وَجْهَ الرَّجُلِ وَأَخُونَا الصَّغِيرُ لَيْسَ مَعَنَا. ٢٧فَقَالَ لَنَا عَبْدُكَ أَبِي: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ
امْرَأَتِي وَلَدَتْ لِي اثْنَيْنِ، ٢٨فَخَرَجَ الْوَاحِدُ مِنْ عِنْدِي، وَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ قَدِ افْتُرِسَ
افْتِرَاسًا، وَلَمْ أَنْظُرْهُ إِلَى الآنَ. ٢٩فَإِذَا أَخَذْتُمْ هذَا أَيْضًا مِنْ أَمَامِ وَجْهِي وَأَصَابَتْهُ أَذِيَّةٌ،
تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِشَرّ إِلَى الْهَاوِيَةِ. ٣٠فَالآنَ مَتَى جِئْتُ إِلَى عَبْدِكَ أَبِي، وَالْغُلاَمُ لَيْسَ
مَعَنَا، وَنَفْسُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِنَفْسِهِ، ٣١يَكُونُ مَتَى رَأَى أَنَّ الْغُلاَمَ مَفْقُودٌ، أَنَّهُ يَمُوتُ، فَيُنْزِلُ

عَبِيدُكَ شَيْبَةَ عَبْدِكَ أَبِينَا بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ، ٣٢لأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْغُلاَمَ لأَبِي قَائِلاً: إِنْ
لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَى أَبِي كُلَّ الأَيَّامِ. ٣٣فَالآنَ لِيَمْكُثْ عَبْدُكَ عِوَضًا عَنِ
الْغُلاَمِ، عَبْدًا لِسَيِّدِي، وَيَصْعَدِ الْغُلاَمُ مَعَ إِخْوَتِهِ. ٣٤لأَنِّي كَيْفَ أَصْعَدُ إِلَى أَبِي
وَالْغُلاَمُ لَيْسَ مَعِي؟ لِئَلاَّ أَنْظُرَ الشَّرَّ الَّذِي يُصِيبُ أَبِي» [سفر التكوين، الإصحاح الرابع
والأربعون: ١-٣٤].

وذكرت التوراة في الإصحاح الخامس والأربعون أن يوسف كشف لإخوته
عن نفسه، وفي ذلك قالت التوراة: «١فَلَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ لَدَى جَمِيعِ
الْوَاقِفِينَ عِنْدَهُ فَصَرَخَ: «أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي». فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَّفَ
يُوسُفُ إِخْوَتَهُ بِنَفْسِهِ. ٢فَأَطْلَقَ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ، فَسَمِعَ الْمِصْرِيُّونَ وَسَمِعَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ.
٣وَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «أَنَا يُوسُفُ. أَحَيٌّ أَبِي بَعْدُ؟» فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِخْوَتُهُ أَنْ يُجِيبُوهُ،
لأَنَّهُمُ ارْتَاعُوا مِنْهُ. ٤فَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «تَقَدَّمُوا إِلَيَّ». فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: «أَنَا
يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ٥وَالآنَ لاَ تَتَأَسَّفُوا وَلاَ تَغْتَاظُوا لأَنَّكُمْ
بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا، لأَنَّهُ لاسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ اللهُ قُدَّامَكُمْ. ٦لأَنَّ لِلْجُوعِ فِي الأَرْضِ
الآنَ سَنَتَيْنِ. وَخَمْسُ سِنِينَ أَيْضًا لاَ تَكُونُ فِيهَا فَلاَحَةٌ وَلاَ حَصَادٌ. ٧فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللهُ
قُدَّامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأَرْضِ وَلِيَسْتَبْقِيَ لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. ٨فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ
أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطًا
عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٩أَسْرِعُوا وَاصْعَدُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: هكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ
يُوسُفُ: قَدْ جَعَلَنِيَ اللهُ سَيِّدًا لِكُلِّ مِصْرَ. اِنْزِلْ إِلَيَّ. لاَ تَقِفْ. ١٠فَتَسْكُنَ فِي أَرْضِ
جَاسَانَ وَتَكُونَ قَرِيبًا مِنِّي، أَنْتَ وَبَنُوكَ وَبَنُو بَنِيكَ وَغَنَمُكَ وَبَقَرُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ.
١١وَأَعُولُكَ هُنَاكَ، لأَنَّهُ يَكُونُ أَيْضًا خَمْسُ سِنِينَ جُوعًا. لِئَلاَّ تَفْتَقِرَ أَنْتَ وَبَيْتُكَ وَكُلُّ
مَا لَكَ. ١٢وَهُوَذَا عُيُونُكُمْ تَرَى، وَعَيْنَا أَخِي بَنْيَامِينَ، أَنَّ فَمِي هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ.
١٣وَتُخْبِرُونَ أَبِي بِكُلِّ مَجْدِي فِي مِصْرَ وَبِكُلِّ مَا رَأَيْتُمْ، وَتَسْتَعْجِلُونَ وَتَنْزِلُونَ بِأَبِي إِلَى
هُنَا». ١٤ثُمَّ وَقَعَ عَلَى عُنُقِ بَنْيَامِينَ أَخِيهِ وَبَكَى، وَبَكَى بَنْيَامِينُ عَلَى عُنُقِهِ. ١٥وَقَبَّلَ
جَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِمْ. وَبَعْدَ ذلِكَ تَكَلَّمَ إِخْوَتُهُ مَعَهُ. ١٦وَسُمِعَ الْخَبَرُ فِي بَيْتِ

فِرْعَوْنَ، وَقِيلَ: «جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ». فَحَسُنَ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ عَبِيدِهِ.
١٧فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: قُلْ لإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هذَا: حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَانْطَلِقُوا،
اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ١٨وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ
أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الأَرْضِ. ١٩فَأَنْتَ قَدْ أُمِرْتَ، افْعَلُوا هذَا: خُذُوا لَكُمْ مِنْ
أَرْضِ مِصْرَ عَجَلاَتٍ لأَوْلاَدِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاحْمِلُوا أَبَاكُمْ وَتَعَالَوْا. ٢٠وَلاَ تَحْزَنْ
عُيُونُكُمْ عَلَى أَثَاثِكُمْ، لأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ» [سفر التكوين: الإصحاح الخامس والأربعون: ١-٢٠].

١٧- التعقيب على هذا المقطع:

ما ذكرته التوراة من تولية يوسف على أمر مصر، وجعله الرجل الأول بعد الملك، وإعطائه خاتمه، وإلباسه البياض وإركابه المركبة الثانية، وجعله على أرض مصر كله، وتزويجه ابنة كاهن أون، وإثمار مصر في السنين السبعة الأولى، وجمع يوسف ثمار الأرض في تلك السنين السبع لخص القرآن الصحيح منه في كلمات قليلة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [يوسف:٥٦].

وما ذكرته التوراة أن يوسف كان في سن الثلاثين، وأنه تزوج من أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون، وأنه ولد له ابنان: مَنَسَّى، وأفرايم، الله أعلم بمدى صحته، فإنه لا ذكر له في الكتاب والسنّة.

والقرآن صدق التوراة فيما ذكرته من مجيء إخوة يوسف إلى مصر، لما وقع الجوع في تلك السنوات جاؤوه، وقد نزل إخوة يوسف إلى مصر بأمر أبيهم كما ذكرت التوراة، ومع صحة الخبر في الجملة، فإن فيه تفاصيل غير صحيحة، وفيه بعض القصور والاضطراب، وفيه غياب بعض الحقائق التي ذكرها القرآن، فالتوراة تذكر أن إخوة يوسف جاؤوه وسجدوا له، وأن يوسف عرفهم فتكلم معهم بجفاء، وقال لهم: مِن أين جئتم؟ فحدثوه عن أنفسهم وعن أخيهم الصغير،

فطلب منهم أن يأتوه بأخيهم الصغير، وذكرت أنه حبسهم ثلاثة أيام، ثم أخبرهم أنه سيحبس واحداً منهم عنده حتى يأتوه بأخيهم الصغير، فتلاوموا فيما بينهم على تفريطهم في يوسف، وعدّوا ما يفعل بهم عقوبة من الله على ما فعلوه، وأعطاهم القمح، وردّ لكل واحد فضته.

والذي في القرآن أن يوسف عرف إخوته عندما دخلوا عليه وهم له منكرون، ولم يناقشهم، ولم يسألهم عن نسبهم، ولم يسجنهم، ولم يبقَ واحداً منهم عنده أسيراً، وأنه جهزهم بجهازهم، وطلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، فإن لم يأتوه به فلا كيل لهم عنده في المرة القادمة ولا يقربونه، وطلب من فتيانه أن يجعلوا ثمن بضاعتهم في رحالهم في قمحهم حتى يعملوا أنه جاد في ما يقوله لهم، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٨-٦٢].

فلما رجعوا كلهم إلى أبيهم سالمين حدثوه بما جرى، وحدثوه أنهم منعوا من البضاعة في المرة القادمة إلا إذا أرسل معم أخاهم، وطالبوه بإرساله معهم، حتى يأتوا بما يلزمهم من القمح، وتعهدوا له بحفظه، وذكر لنا القرآن أن أباهم قال لهم: هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الرحمين، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٣-٦٤].

ولما فتحوا متاعهم، وجدوا نقودهم في تلك البضاعة، فقالوا: يا أبانا هذه بضاعتنا ردت إلينا، وطلبوا من والدهم أن يرسل معهم أخاهم، فيأتـون بالقمح، ويحفظون أخاهم، ويزدادون كيل بعير، وهو كيل يسير، فقال لهم والدهم: لن

أرسله معكم، حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتُنَّني به إلا أن تحلّ بهم كارثة لا يستطيعون منها فكاكاً، فلما أتوه موثقهم وحلفوا له وفق ما طلبه منهم، قال: الله على ما نقول وكيل، وطلب منهم عندما أرادوا الانطلاق في سفرتهم الثانية أن لا يدخلوا جميعاً من باب واحد، بل من أبواب متفرقة، وقد فعلوا كما أمرهم أبوهم، وبيّن الله تعالى أن هذا التصرف لا يغني عنهم من الله من شيء، وأثنى على نبيه يعقوب بما علمه من العلم، ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٥-٦٨].

١٨ـ إخوة يوسف في حضرته مرة أخرى:

لم يذكر القرآن شيئاً من التفاصيل التي ذكرت في التوراة قبل أن ينطلق الإخوة مرة ثانية إلى مصر، ولم تذكر التوراة ما ذكره القرآن من وصية أبيهم لهم أن لا يدخلوا من باب واحد، بل من أبواب متفرقة.

وذكر القرآن أن يوسف عليه السلام قال لأخيه الصغير عندما دخلوا عليه: أنا أخوك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩].

ولم يذكر القرآن ما ذكرته التوراة من أن يوسف عليه السلام صنع لهم طعام غداء، ولم يذكر الحوار الذي ذكرته التوراة، وأنه تقبل هديتهم منهم، ولم يذكر خروج يوسف بعد رؤيته أخاه وبكاءه، ولكنها ذكرت ما ذكره القرآن من جعله طاس الفضة في

عدل أخيه، وذكرت أنه أرسل وراءهم يسألهم عن السقاية، فأنكروا أنهم سرقوا، وذكر القرآن أنهم قالوا: من وجد في رحله فهو جزاؤه، أي أنه يسترق ويستبعد، وقد أخطأت التوراة فيما قالته: إن من وجد في رحله يقتل، وأن هذا من قول إخوة يوسف.

وهذا غير صحيح، فدين الملك يمنع يوسف من أخذ أخيه، فاحتال عليهم بأخذه على الطريقة التي كانت في دينهم، حيث ذكروا أن من وُجد في رحله فهو جزاؤه، أي: يسترق ويستعبد.

فتش فتيان يوسف أحمال الإخوة، وبدؤوا بأحمال الأخ الكبير، واستخرجوها من بضاعة الصغير، فقال إخوته: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، يريدون يوسف ﷺ، وقد كانوا كاذبين فيما قالوه، ولذلك قال لهم يوسف: أنتم شرٌّ مكاناً، والله أعلم بما تصفون.

فقالوا له: يا أيها العزيز إن له أباً، وهو شيخ كبير، فخذ أحدنا مكانه، فأبى، وقال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[يوسف: ٧٠-٧٩].

١٩- الأثر الذي أحدثه أخذ بنيامين في إخوة يوسف:

لم يطل الاضطراب الذي وقع لإخوة يوسف ﷺ ، حسبما ورد في التوراة، لأن يوسف عرفهم على نفسه سريعاً بعد أن اشتكوا ما حلّ بهم وبأبيهم، ولكن القصة لم تجر وفق ما ذُكر في التوراة، فبعد أن أخذ يوسف أخاه واستعطفه إخوانه، رفض إطلاق سراح أخيه، عند ذلك خرجوا من عنده باستثناء الأخ الأصغر، وعقد الأخ الأكبر اجتماعاً لإخوته، وذكَّرهم بعهد أبيهم عليهم في حفظ أخيهم، وذكرهم بما كان من تفريطهم من قبل في يوسف ﷺ ، وأعلن لهم أنه سيبقى في أرض مصر حتى يأذن له أبوه، أو يحكم الله له، وهو خير الحاكمين.

وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم، ويعرفوه بأحداث ما وقع معهم، وكيف أن ابنه سرق، فأُخذ بسبب سرقته، وقالوا له: ما شهدنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين، وطلبوا منه أن يسأل أهل القرية التي كانوا فيها، ويسأل أهل القافلة التي كانوا معها، وأكدوا على صدقهم وعدم افترائهم.

ولم يرض أبوهم بما اعتذروا به، وعدّ ذلك كله مما سولت لهم أنفسهم من الشر، وأعرض عنهم صابراً محتسباً، وقال متوجعاً متألماً: يا أسفى على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن، وفقد النظر فيهما، بسبب الألم والحزن الذي ملأ قلبه.

ولامه أولاده على كثرة ذكره ليوسف، وخشوا عليه الهلاك بسبب ذلك، وقال لهم: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون.

وطلب منهم أن يرجعوا إلى مصر وأن يبحثوا برفق عن يوسف وأخيه، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، لقد كان يعقوب مع شدة حزنه وأساه ممتلئ إيماناً بأن كل هذا الذي يحدث سيكون إلى خير.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ

لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ
حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٠-٨٧].

٢٠- الخاتمة السعيدة للقصة:

ذكر القرآن الخاتمة السعيدة التي انتهت بها هذه القصة، لقد انتهت هذه القصة عندما جاء إخوة يوسف إلى يوسف بعد أن عصفت بهم تلك الزوبعة الهوجاء، جاؤوا مستسلمين خاضعين يشكون له ما حلَّ بهم وبأهلهم، فقال لهم بهدوء وروية: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ فكشف لهم هذا السؤال عن شخص الرجل الجالس أمامهم، إنه أخوهم الذي رموه في البئر، فقال لهم: أنا يوسف، وهذا أخي، إنه من يتقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين فقالوا عند ذلك: تالله لقد آثرك الله علينا، أي: فضلك علينا، واعترفوا بخطئهم، فقال لهم: لا تثريب عليكم اليوم، ثمّ بادر بالاستغفار لهم، وهو أرحم الراحمين.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ
مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ
أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٨٨-٩٢].

٢١ـ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا:

ذكر القرآن هنا ما لم تذكره التوراة، ذكر القرآن هنا أن يوسف عليه السلام أعطى إخوانه قميصه، وأمرهم أن يلقوه على وجه أبيه، فيرجع بصيراً، وطلب منهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين إلى مصر.

ولما اقتربت العير وفيها إخوة يوسف معهم القميص، قال إسرائيل لأولاده الذين عنده: إني لأجد ريح يوسف، فخطؤوه، وعدُّوه لا يزال عائشاً في ضلاله القديم.

وما هي إلا فترة يسيرة حتى جاء البشير، فألقي القميص على وجهه، فارتد بصيراً، فقال مؤنباً أولاده الذين لم يصدقوه فيما قاله: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون.

لقد كانت فرحة إسرائيل في غاية القوة، فقد علم أن ابنه يوسف في غاية الصحة والعافية، وليس ذلك فقط، بل إنه أصبح عزيز مصر، والرجل الثاني المتنفذ فيها، وأصبح الآمر الناهي في أرضها، وأصبح هو المسؤول الأول المالك لخزائن الأرض، وأمره نافذ فيها من غير اعتراض. ومع الفرحة العظيمة التي حلت بإسرائيل فقد عادت له صحته وعافيته، وعلم أيضاً أن ابنه الثاني أصبح في مقام أمين عند أخيه يوسف.

ومع ذلك كله فقد كان إسرائيل لا زال متألماً لما فعله أولاده في يوسف وأخيه، وبما تسببوا له من أوجاع وآلام امتدت لفترة تزيد على خمسة عشر عاماً، ولذلك لم يسارع بالاستغفار لهم عندما طلبوا منه ذلك، وقد وعدهم بأن يفعل ذلك في مستقبل الزمان.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ

لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٣-٩٨].

٢٢- تحقق الرؤيا في أرض الواقع:

لم يطل القرآن في ذكر ما أطالت به التوراة من الحديث عن طلب يوسف الموسع لإخوته أن يصعدوا أهلهم إلى مصر، وما قام به فرعون من إعطاء يوسف عجلات لحمل أهله من مصر، وما أعطاهم من زاد، وما وعدهم به عندما يدخلون إلى مصر، ولم يذكر القرآن رؤيا إسرائيل وما قاله الله في تلك الرؤيا، ولم يذكر القرآن أسماء الذين دخلوا مصر وأعدادهم، ولم يذكر خروج يوسف لاستقبال أبيه وأهله، وكل الذي ذكره القرآن أن إسرائيل وزوجته وإخوته الأحد عشر دخلوا على يوسف فرفع أبويه على العرش وخرّ الأب والأم والإخوة الأحد عشر ليوسف ساجدين، وعند ذلك قال يوسف لأبيه: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي عندما أخرجني من السجن، وجاء بكم من البدو، من بعد ما نزغ الشطيان بيني وبين إخوتي.

وقد توجه يوسف عليه السلام إلى ربه داعياً إياه معترفاً بما تفضل عليه وأنعم عليه، وكانت تلك خاتمة القصة في القرآن، وأنعم بها من خاتمة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠١].

٢٣- وفاة نبي الله يعقوب وتحنيط أطباء يوسف له:

ذكرت قصة يوسف في التوراة أن يوسف أمر عبيده الأطباء بتحنيط أبيه بعد أن توفاه الله، جاء في التوراة: «٢وَأَمَرَ يُوسُفُ عَبِيدَهُ الأَطِبَّاءَ أَنْ يُحَنِّطُوا أَبَاهُ. فَحَنَّطَ الأَطِبَّاءُ إِسْرَائِيلَ. ٣وَكَمَلَ لَهُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، لأَنَّهُ هكَذَا تَكْمُلُ أَيَّامُ الْمُحَنَّطِينَ» [سفر التكوين، الإصحاح الخمسون: ٢-٣].

وذكر في الإصحاح نفسه أن يوسف عليه السلام مات وهو ابن مائة وعشر سنين، فحنطوه، ووضعوه في تابوت، جاء في التوراة: «٢٦ثُمَّ مَاتَ يُوسُفُ وَهُوَ ابْنُ مِئَةٍ وَعَشْرِ سِنِينَ، فَحَنَّطُوهُ وَوُضِعَ فِي تَابُوتٍ فِي مِصْرَ» [سفر التكوين، الإصحاح الخمسون: ٢٦].

ثالثا: هذه القصة في الميزان

هذه القصة الطويلة الممتعة التي قال الله فيها إنها أحسن القصص، هي من أنباء الغيب الذي أوحى الله بها إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، وضمنها الله في سورة كاملة هي سورة يوسف عليه السلام، وقال الله في خاتمتها ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢].

ومع أن التوراة جاءت بوقائع كثيرة صحيحة من هذه القصة، إلا أن بعض الوقائع غابت عن القصة في التوراة، وبعض الوقائع كان فيها خلل، وبعض الوقائع لم تكن صحيحة.

وقد كان في القصة من الدروس والعِبَر الشيء الكثير، وفيها بيان للكيفية التي أجرى فيها قدره عبر أحداث القصة، فلو لم يكد إخوة يوسف له، ولم يلقوه في غيابة الجب، لما صار يوسف إلى مصر، ولو لم تجرِ له ما جرى من هوى سيدة بيته، ثم دخوله السجن، لما وصل إلى ما وصل إليه.

ولقد كان المفتاح الذي فتح الله له به ما فتح علمه بتأويل الرؤيا، وقد أظهر هذا المفتاح للملك الخصائص التي يمتاز بها يوسف، ولهذا أمر الملك بتولية يوسف خزائن الأرض، وعند ذلك تحقق قدر الله في رحيل إسرائيل وأبنائه معززين مكرمين إلى مصر، وهناك كثروا وتناسلوا وأصبحوا أمة عظيمة بعد مئات من السنين.

القصة السادسة عشرة
قصة نبي الله أيوب عليه السلام

أولا: تقديم

أيوب العبد الصالح، الذي يُضرب به المثل في الصبر، وتروى قصته ليواسى بها المصابون في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، كان صحيحاً فمرض، وغنياً فافتقر، وذا أهل وولد، فأخذ الله أهله وولده، فصبر على ذلك كله صبراً جميلاً، لم يشتك، ولم يتأفف، وطال بلاؤه، ولم تهن عزيمته على طول البلاء، وجاء الفرج من الله عندما دعاه أيوب وناداه، فأصح جسمه، ورد إليه ضعفي ما كان عنده من مال وولد، وبقي خبره من بعده حكاية تُروى، وقصة تُحكى، إنها قصة إمام الصابرين نبي الله أيوب.

ثانيا: قصة أيوب في التوراة

من يقرأ قصة أيوب في القرآن وصحيح الأحاديث، ثم يقرأ ما ورد في هذه القصة في التوراة يوقن أن أحد أهداف سوق هذه القصة في القرآن وإيراد تفصيلاتها في الحديث هو كشف التحريف الذي أصاب هذه القصة في أخبار بني إسرائيل، وتبرئة نبي الله أيوب مما نسبه إليه الظالمون المحرفون زوراً وكذباً.

وأول زعم يحتاج إلى تصويب وتصحيح هو زعم كتاب قصته في التوراة أنه كان رجلاً صالحاً مستقيماً فحسب، ولم يكن نبياً، والأمر الثاني الذي يحتاج إلى تصويب وتصحيح هو ما أخبرت به التوراة عن أيوب أنه كان ساخطاً على ربه أثناء بلائه، ويتمثل هذا التسخط في ذلك الحوار الطويل الذي جرى بين أيوب وثلاثة

من أصحابه، فأيوب مع إيمانه بربه وثقته به، يحاور أصحابه طويلاً مبدياً تألمه لابتلاء الله له مع صلاحه واستقامته وفعله الخير.

والحوار الذي جرى حوار طويل قصد به كاتبوه أن يعالجوا من خلاله مسألة عقدية، وهي الأسباب التي يُنزل الله بها بلاءه بالصالحين من عباده الذين اتقوه، واستقاموا على أمره، وقد تناول الحوار هذه المسألة بتفكير فلسفي، وأسلوب شعري، ولذا يعتبر اليهود سفر أيوب أحد أسفار الحكمة.

والعجيب أن يكون أيوب في التوراة هو الساخط المتبرم المبتعد عن الفقه السوي، الرافض للقضاء والقدر، وأن يكون أصحابه هم أهل الفقه والمعرفة الذين أجهدوا أنفسهم في سبيل تفهيمه وتعليمه ورده إلى جادة الصواب.

ويدل على كذب ذلك ما حدثنا به الرسول ﷺ عن صبر أيوب وعدم تبرمه بما حلّ به إلى أن أخذت الظنون مأخذها في قلب أحد صاحبيه، فاستدل بطول بلاء أيوب على أن أيوب أذنب ذنباً عظيماً حتى استحق هذا العذاب الطويل، فآلم ذلك أيوب، وردّ عليهم بما ذكره لهم من تقاه وورعه أيام صحته وعافيته.

إن الذي قرره الحديث يدل على أن أيوب كان الأفقه والأتقى والأعلم، وأن الشك لم يأت من قِبَله، بل من قبل أحد صاحبيه.

صحيح أن التوراة تذكر أن أيوب فقه وتاب وأناب، وأكرمه ربه، ولكن ما ذكرته التوراة من تبرم أيوب وضيقه وتسخطه غير صحيح أصلاً، وتوافق التوراة القرآن في الإخبار بأن أيوب كان ثرياً قبل أن ينزل به البلاء، وأنه كان صاحب أهل وولد، وأن الله أذهب ماله، وأخذ ولده، كما أصابه البلاء في جسده، وأن الله بعد أن عافاه رد إليه أهله ومثلهم معهم.

ولكن كُتّاب التوراة يضيِّعون الحقيقة عندما يدعون أن الله عوض أيوب عن ماله بما أهداه إليه إخوته وأصدقاؤه من الأموال، وقد علمنا من حديث رسولنا

كيف أفاض الله المال على أيوب من السحاب ذهباً وفضة، ولم يكن عودة المال إليه بهدايا أقاربه وأصحابه.

وتوافق التوراة ما أشار إليه القرآن من أن البلاء الذي أصاب أيوب في جسده كان سببه الشيطان، ولكن التفصيلات التي ذكرتها التوراة في المحاورة التي جرت بين الله وبين الشيطان غير صحيحة، وهي تخالف قواعد شرعية معلومة من الدين بالضرورة، فالله لا يحاور الشيطان بعد طرده من رحمته، وإن أذن له أن يصيب عباده بالأذى في بعض الأحيان لأمر يريده الله.

ثالثا: قصة أيوب في الكتاب والسنة

١. نبي الله أيوب في القرآن:

أيوب أحد أنبياء الله الكرام الذين أوحى الله إليهم في جملة من أوحى إليه من أنبيائه ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ ﴾ [النساء:١٦٣].

وهو من ذرية إبراهيم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ ﴾ [الأنعام:٨٤].

وقد أخبرنا الله عن قصته في موضعين من كتابه:

الأول: في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

والثاني: في سورة (ص) في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤١-٤٤].

٢- نبي الله أيوب في الأحاديث:

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به.

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما، كراهة أن يذكر الله إلا في الحق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحي إلى أيوب أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص:٤٢]، فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحاً، فقال: فإني أنا هو.

وكان له أندران (أي بيدران): أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض». [قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤) «رواه أبو يعلى في مسنده» (١/ ١٧٦-١٧٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤-٣٧٥)، وقال فيه: الحديث صحيح، وصححه الضياء المقدسي في المختارة].

ويستفاد من مجموع ما ورد في القرآن والحديث في شأن أيوب أنه كان قبل بلائه منعماً، يرفل في بحبوحة من العيش، وقد رزقه الله المال والأهل والولد، ثم شاء الله أن يبتليه، فأذهب ماله وولده، وأصيب في جسده، فانفض عنه من جمعتهم النعمة حوله، وجفاه القريب والبعيد، ولم يبقَ باراً به إلا زوجته، واثنان من كرام أصحابه، كانا يغدوان عليه ويأنس بهما.

٢- شرح الحديث الذي قص علينا قصة أيوب:

وقد تفكر أحد الرجلين اللذين بقيا على صحبته في حال أيوب، وامتداد بلائه به، فقد مضى على البلاء الذي حلّ به ثماني عشرة سنة، ولم يكشف الله عنه ما أصابه به، وجالَ بخاطره أن هذا البلاء ربما كان بسبب ذنب عظيم ارتكبه أيوب، وأطلع هذا الرجل صاحبه على ما دارَ في خلده، فلم يصبر أن صارح أيوب بما قاله عنه صاحبه، فآلم ذلك أيوب أشد الألم، وكشف لهما من حاله ما ينفي تلك المقالة، فقد بلغ به الأمر في حال سلامته وعافيته أنه كان يرى الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فيرجع إلى منزله فيتصدق عنهما، كراهة أن يذكر الله إلا في حق.

هناك توجه إلى ربه بالدعاء، طالباً منه كشف البلاء، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣]، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص:٤١].

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه، فالله على كل شيء قدير، وإذا شاء شيئاً كان، لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء.

وكان من عادته أنه إذا خرج ليقضي حاجته جاءته زوجته، فأمسكت بيده لضعف بدنه، فإذا أوصلته إلى المكان المقصود، تركته ريثما يقضي حاجته، ثم عادت إليه تمسك به، تعينه على الرجوع إلى مكان إقامته، وقد أبطأ عليها في ذلك اليوم الذي دعا فيه ربه، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الضعيفة الأرض، فانبثق الماء من موضع ضربته، فأمره الله أن يشرب من ذلك الماء، ويغتسل منه، فأذهب الماء

أمراضه التي في ظاهر جسده وباطنه، وعادت إلى الحيوية والنشاط في الحال، ورجعت له صحته وعافيته كأن لم يكن به مرض.

وعاد إلى زوجته يتدفق حيوية نشاطاً، كحاله قبل أن يداهمه المرض، فلما رأته لم تعرفه مع أنها رأت فيه شبه الزوج أيام كان صحيحاً معافى، وسألته عن زوجها النبي المبتلى، وذكرت له ما لاحظته من شبهه به أيام كان سوياً صحيحاً، ولم تكن تتوقع أن يصلح حاله، ويشفى من مرضه في هذه المدة الوجيزة التي غابها عنها، وكم كان فرحها وسرورها عظيماً عندما رأت نعمة الله عليه في رده عافيته وصحته إليه.

وكما رد الله عليه عافيته وصحته، رد عليه ضعفي المال الذي فقده، ورزقه ضعفي ما كان عنده من الأولاد، فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطراً، بل ذهباً وفضة، وكان لأيوب بيدران: أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب في بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة في بيدر الشعير.

وكان قد غضب على زوجته في مرضه، فنذر إن شفاه الله أن يضربها مائة ضربة، وعزّ عليه بعد شفائه أن يكون جزاؤها منه على صبرها ورعايتها الضرب والجلد، وشقّ عليه أن لا يفي لربه بنذره، فجعل الله له فرجاً ومخرجاً، إذ أمره أن يأخذ حزمة من قش القمح أو الشعير، فيضربها بها ضربة واحدة، فيكون قد وفى بنذره، ولم يضر زوجته، قال تعالى لأيوب: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص:٤٤].

وقد ذهب الإمام أحمد إلى جواز ضرب من أصاب حداً كالزاني غير المحصن والقاذف بمثل ما ضرب به أيوب إن كان المحدود مريضاً يخشى هلاكه بالضرب، وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يضربوا رجلاً مريضاً زنى بجارية بعثكال من نخل فيه مائة شمروخ ضربة واحدة. [انظر : إغاثة اللهفان لابن القيم: (٢/ ٩٨)، والحديث المشار إليه عزاه الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ١٢١٥) ورقمه: ٢٩٨٦ إلى النسائي في السنن الكبرى وابن ماجه والبيهقي وأحمد وغيرهم].

وكان أيوب ﷺ خفيف الظل، ندي الروح، فيه دعابة في صدق، فقد أخبرنا الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «بينما أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رِجْل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك» [البخاري: ٣٣٩١].

ولعلك تخيلت منظر أيوب، وهو يثب عرياناً، يجمع ذلك الجراد ويحثيه في ثوبه، ويناديه ربه، ألم أغنك عما ترى، أي بما أفاضته السحابتان من الذهب والفضة في بيدريه، ويأتي الجواب: لا غنى لي عن بركتك يا رب.

القصة السابعة عشرة
قصة نبي الله يونس عليه السلام

أولا: تقديم

قصة نبي الله يونس فيها عجب وطرافة، فقد ألقي في البحر، فابتلعه الحوت، وهناك دعا الله ربه، واستغاث به، فنجاه من الهلاك، وحفظه، وأمر الله الحوت بإلقائه على شاطئ البحر.

وفي الحديث مزيد بيان لما ذكره القرآن عن قصته، وتوضيح للأسباب التي أدت به إلى غضبه عليه، وركوبه البحر بعيداً عن أهله ودياره.

ثانيا: هذه القصة في التوراة

١ـ التعريف بيونان:

هذه القصة موجودة في التوراة في سفر كامل معقود لها، يدعى سفر يونان بن أمتان، وتذكر التوراة أنه أحد أنبياء بني إسرائيل.

ولا شك أن هذا النبي هو يونس بن متى، فالأسماء متشابهة في لفظها، والقصة فيها بعض المعالم والوقائع التي تحدث عنها القرآن، وتحدث عنها الحديث، وإن كان فيها قصور وتغيير بسبب التحريف الذي أصاب التوراة.

وقد صحّ في بعض الأحاديث أن اسم هذا النبي يونس بن متى [مسلم: ١٦٦].

وأصل اسم يونان عند اليهود: يوناثان، ومعناه (عطية الله)، أو كما يقول شُرّاح التوراة: (يهوه أعطى) أي الله أعطى، فيهوه عندهم هو الله [قاموس الكتاب المقدس: ١١٢٣].

وتذكر التوراة أنّ يونان (٧٨٥-٧٤٥ق.م) أو يونس هما الصيغة السريانية والعربية للاسم العبري (يوناه) ومعناه الحمام. ومنه (يونَس) باليونانية، والنون في اليونانية مفتوحة وضمت عند التعريب اتباعاً لضمة الياء. [المعرب للجواليقي، دار القلم، دمشق. وانظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية لعبدالوهاب المسيري] أنّ يونان من مدينة فلسطينية تدعى جت حافر [سفر الملوك الثاني الإصحاح الرابع عشر: ٢٥]، وهذه المدينة تقع قرب مدينة الناصرة على بُعد ثلاثة أميال منها.

وقد كان يسكن هذه المدينة سبط من أسباط بني إسرائيل يدعى (زبلون) [سفر يشوع، الإصحاح التاسع عشر: ١٠-١٦]. ولذلك يرجح شُرّاح التوراة أن يونان كان من هذا السبط.

وهذه الأخبار الله أعلم بمدى صحتها.

٢- إرسال الله يونس إلى نينوى:

ويزعم كُتّاب التوراة أن الله أرسل يونس من مدينته في فلسطين إلى أهل نينوى، لما كثر شرهم وفسادهم، ليحذرهم غضب الله وانتقامه، ونينوى مدينة عظيمة قرب مدينة الموصل في العراق، فأبى يونس السفر إلى تلك المدينة، خوفاً من شر أهلها، وهرب من الله تبارك وتعالى، فركب سفينة من مدينة يافا إلى مدينة بعيدة تدعى ترشيش، يزعم مفسرو التوراة أنها في المغرب أو في أسبانيا، ولا أدري كيف يكون نبياً، ويظن أنه يمكن أن يهرب من الله.

٣- إلقاء يونس في البحر وابتلاع الحوت له:

ولما توسطت السفينة البحر ثار البحر وماج، حتى كادت السفينة تنكسر، فأخذ ركاب السفينة يرمون بأمتعتهم حتى لا تغرق السفينة، وكان يونس نائماً في أثناء ذلك في أسفل السفينة، وجاء رئيس البحارة فأيقظه، وطلب منه أن يدعو ربه كي يخلصهم مما أحاط بهم.

واقترح بعض الركاب أن يقترعوا لا ليخففوا حمل السفينة، بل ليعرفوا الرجل الذي تسبب في البلاء الذي أصابهم، فأصابت القرعة يونس، فاستخبروا منه خبره، وفي هذا دلالة على أنهم لم يعرفوه، عندما حملوه، فلما عرفوا أنه هارب من وجه الله خافوا، فطلب منهم إلقاءه في البحر، فينجون من غضب الله، لأنه علم أن هيجان البحر كان بسببه، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت، وحبس في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، وذكر كُتّاب التوراة الدعاء الذي دعا به ربه، وليس فيه الدعاء الذي نص القرآن عليه، فأمر الله الحوت بقذفه إلى البر، وأمره بالذهاب إلى مدينة نينوى، لينذر أهلها، ويخبرهم أن مدينتهم سوف تعذب بعد أربعين يوماً.

٤- توبة أهل نينوى وايمانهم:

عندما علم أهل نينوى ما خوّفهم به يونس تابوا وأنابوا وآمنوا، وجأروا إلى الله بالدعاء، فتاب عليهم ورحمهم، فغم ذلك يونس وأغاظه، لأن الله رحمهم، وعاتب ربه على مغفرته لهم، وخرج يونس من المدينة، وجلس في الجهة الشرقية منها، تحت مظلة صنعها، وجلس هناك ليرى ما يحدث في المدينة، فأنبت الله له يقطينة كبيرة تظله، لتخلصه من غمِّه، ففرح بها، وفي اليوم التالي عند طلوع الفجر، يبست لأن الله أرسل عليها دودة ضربتها، فحزن عليها، فعاتبه ربه على حزنه على موت اليقطينة، وعدم حزنه على هلاك أهل نينوى، وهم جموع كثيرة من البشر.

٥- سرد القصة من التوراة:

جاء في الإصحاح الأول من سفر يونان: «١وَصَارَ قَوْلُ الرَّبِّ إِلَى يُونَانَ بْنِ
أَمِتَّايَ قَائِلاً: ٢«قُم اذْهَبْ إِلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ وَنَادِ عَلَيْهَا، لأَنَّهُ قَدْ صَعِدَ شَرُّهُمْ
أَمَامِي». ٣فَقَامَ يُونَانُ لِيَهْرُبَ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ، فَنَزَلَ إِلَى يَافَا وَوَجَدَ سَفِينَةً
ذَاهِبَةً إِلَى تَرْشِيشَ، فَدَفَعَ أُجْرَتَهَا وَنَزَلَ فِيهَا، لِيَذْهَبَ مَعَهُمْ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ
الرَّبِّ. ٤فَأَرْسَلَ الرَّبُّ رِيحًا شَدِيدَةً إِلَى الْبَحْرِ، فَحَدَثَ نَوْءٌ عَظِيمٌ فِي الْبَحْرِ حَتَّى
كَادَتِ السَّفِينَةُ تَنْكَسِرُ. ٥فَخَافَ الْمَلاَّحُونَ وَصَرَخُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى إِلهِهِ، وَطَرَحُوا

الأَمْتِعَةَ الَّتِي فِي السَّفِينَةِ إِلَى البَحْرِ لِيُخَفِّفُوا عَنْهُمْ. وَأَمَّا يُونَانُ فَكَانَ قَدْ نَزَلَ إِلَى جَوْفِ السَّفِينَةِ وَاضْطَجَعَ وَنَامَ نَوْمًا ثَقِيلاً. ٦فَجَاءَ إِلَيْهِ رَئِيسُ النُّوتِيَّةِ وَقَالَ لَهُ: «مَا لَكَ نَائِمًا؟ قُمِ اصْرُخْ إِلَى إِلهِكَ عَسَى أَنْ يَفْتَكِرَ الإِلهُ فِينَا فَلاَ نَهْلِكَ». ٧وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نُلْقِي قُرَعًا لِنَعْرِفَ بِسَبَبِ مَنْ هذِهِ البَلِيَّةُ». فَأَلْقَوْا قُرَعًا، فَوَقَعَتِ القُرْعَةُ عَلَى يُونَانَ. ٨فَقَالُوا لَهُ: «أَخْبِرْنَا بِسَبَبِ مَنْ هذِهِ المُصِيبَةُ عَلَيْنَا؟ مَا هُوَ عَمَلُكَ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ مَا هِيَ أَرْضُكَ؟ وَمِنْ أَيِّ شَعْبٍ أَنْتَ؟» ٩فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا عِبْرَانِيٌّ، وَأَنَا خَائِفٌ مِنَ الرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ الَّذِي صَنَعَ البَحْرَ وَالبَرَّ». ١٠فَخَافَ الرِّجَالُ خَوْفًا عَظِيمًا، وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا فَعَلْتَ هذَا؟» فَإِنَّ الرِّجَالَ عَرَفُوا أَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ، لأَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ. ١١فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَصْنَعُ بِكَ لِيَسْكُنَ البَحْرُ عَنَّا؟» لأَنَّ البَحْرَ كَانَ يَزْدَادُ اضْطِرَابًا. ١٢فَقَالَ لَهُمْ: «خُذُونِي وَاطْرَحُونِي فِي البَحْرِ فَيَسْكُنَ البَحْرُ عَنْكُمْ، لأَنَّنِي عَالِمٌ أَنَّهُ بِسَبَبِي هذَا النَّوْءُ العَظِيمُ عَلَيْكُمْ». ١٣وَلكِنَّ الرِّجَالَ جَذَفُوا لِيُرَجِّعُوا السَّفِينَةَ إِلَى البَرِّ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا، لأَنَّ البَحْرَ كَانَ يَزْدَادُ اضْطِرَابًا عَلَيْهِمْ. ١٤فَصَرَخُوا إِلَى الرَّبِّ وَقَالُوا: «آهِ يَا رَبُّ، لاَ نَهْلِكْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِ هذَا الرَّجُلِ، وَلاَ تَجْعَلْ عَلَيْنَا دَمًا بَرِيئًا، لأَنَّكَ يَا رَبُّ فَعَلْتَ كَمَا شِئْتَ». ١٥ثُمَّ أَخَذُوا يُونَانَ وَطَرَحُوهُ فِي البَحْرِ، فَوَقَفَ البَحْرُ عَنْ هَيَجَانِهِ. ١٦فَخَافَ الرِّجَالُ مِنَ الرَّبِّ خَوْفًا عَظِيمًا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَةً لِلرَّبِّ وَنَذَرُوا نُذُورًا. ١٧وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلِعَ يُونَانَ. فَكَانَ يُونَانُ فِي جَوْفِ الحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ» [سفر التكوين، الإصحاح الأول: ١-١٧].

وجاء في الإصحاح الثاني: «١فَصَلَّى يُونَانُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِ مِنْ جَوْفِ الحُوتِ، ٢وَقَالَ: «دَعَوْتُ مِنْ ضِيقِي الرَّبَّ، فَاسْتَجَابَنِي. صَرَخْتُ مِنْ جَوْفِ الهَاوِيَةِ، فَسَمِعْتَ صَوْتِي. ٣لأَنَّكَ طَرَحْتَنِي فِي العُمْقِ فِي قَلْبِ البِحَارِ، فَأَحَاطَ بِي نَهْرٌ. جَازَتْ فَوْقِي جَمِيعُ تَيَّارَاتِكَ وَلُجَجِكَ. ٤فَقُلْتُ: قَدْ طُرِدْتُ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيْكَ. وَلكِنَّنِي أَعُودُ أَنْظُرُ إِلَى هَيْكَلِ قُدْسِكَ. ٥قَدِ اكْتَنَفَتْنِي مِيَاهٌ إِلَى النَّفْسِ. أَحَاطَ بِي غَمْرٌ. الْتَفَّ عُشْبُ البَحْرِ بِرَأْسِي. ٦نَزَلْتُ إِلَى أَسَافِلِ الجِبَالِ. مَغَالِيقُ الأَرْضِ عَلَيَّ إِلَى الأَبَدِ. ثُمَّ أَصْعَدْتَ مِنَ الوَهْدَةِ حَيَاتِي أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي. ٧حِينَ أَعْيَتْ فِيَّ نَفْسِي ذَكَرْتُ الرَّبَّ، فَجَاءَتْ

إِلَيْكَ صَلاَتِي إِلَى هَيْكَلِ قُدْسِكَ. ٨اَلَّذِينَ يُرَاعُونَ أَبَاطِيلَ كَاذِبَةً يَتْرُكُونَ نِعْمَتَهُمْ. ٩أَمَّا أَنَا فَبِصَوْتِ الْحَمْدِ أَذْبَحُ لَكَ، وَأُوفِي بِمَا نَذَرْتُهُ. لِلرَّبِّ الْخَلاَصُ». ١٠وَأَمَرَ الرَّبُّ الْحُوتَ فَقَذَفَ يُونَانَ إِلَى الْبَرِّ» [سفر التكوين: الإصحاح الثاني: ١-١٠].

وجاء في الإصحاح الثالث من سفر يونان: «١ثُمَّ صَارَ قَوْلُ الرَّبِّ إِلَى يُونَانَ ثَانِيَةً قَائِلاً: ٢«قُمِ اذْهَبْ إِلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وَنَادِ لَهَا الْمُنَادَاةَ الَّتِي أَنَا مُكَلِّمُكَ بِهَا». ٣فَقَامَ يُونَانُ وَذَهَبَ إِلَى نِينَوَى بِحَسَبِ قَوْلِ الرَّبِّ. أَمَّا نِينَوَى فَكَانَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً لله مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ. ٤فَابْتَدَأَ يُونَانُ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَنَادَى وَقَالَ: «بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا تَنْقَلِبُ نِينَوَى». ٥فَآمَنَ أَهْلُ نِينَوَى بِالله وَنَادَوْا بِصَوْمٍ وَلَبِسُوا مُسُوحًا مِنْ كَبِيرِهِمْ إِلَى صَغِيرِهِمْ. ٦وَبَلَغَ الأَمْرُ مَلِكَ نِينَوَى، فَقَامَ عَنْ كُرْسِيِّهِ وَخَلَعَ رِدَاءَهُ عَنْهُ، وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَجَلَسَ عَلَى الرَّمَادِ. ٧وَنُودِيَ وَقِيلَ فِي نِينَوَى عَنْ أَمْرِ الْمَلِكِ وَعُظَمَائِهِ قَائِلاً: «لاَ تَذُقِ النَّاسُ وَلاَ الْبَهَائِمُ وَلاَ الْبَقَرُ وَلاَ الْغَنَمُ شَيْئًا. لاَ تَرْعَ وَلاَ تَشْرَبْ مَاءً. ٨وَلْيَتَغَطَّ بِمُسُوحٍ النَّاسُ وَالْبَهَائِمُ، وَيَصْرُخُوا إِلَى الله بِشِدَّةٍ، وَيَرْجِعُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيئَةِ وَعَنِ الظُّلْمِ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ، ٩لَعَلَّ الله يَعُودُ وَيَنْدَمُ وَيَرْجعُ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ فَلاَ نَهْلِكَ». ١٠فَلَمَّا رَأَى الله أَعْمَالَهُمْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا عَنْ طَرِيقِهِمِ الرَّدِيئَةِ، نَدِمَ الله عَلَى الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ أَنْ يَصْنَعَهُ بِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعْهُ» [سفر التكوين: الإصحاح الثالث: ١-١٠].

وجاء في الإصحاح الرابع: «١فَغَمَّ ذلِكَ يُونَانَ غَمًّا شَدِيدًا، فَاغْتَاظَ. ٢وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «آهِ يَا رَبُّ، أَلَيْسَ هذَا كَلاَمِي إِذْ كُنْتُ بَعْدُ فِي أَرْضِي؟ لِذلِكَ بَادَرْتُ إِلَى الْهَرَبِ إِلَى تَرْشِيشَ، لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ إِلهٌ رَؤُوفٌ وَرَحِيمٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَنَادِمٌ عَلَى الشَّرِّ. ٣فَالآنَ يَا رَبُّ، خُذْ نَفْسِي مِنِّي، لأَنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي». ٤فَقَالَ الرَّبُّ: «هَلِ اغْتَظْتَ بِالصَّوَابِ؟». ٥وَخَرَجَ يُونَانُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَجَلَسَ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ، وَصَنَعَ لِنَفْسِهِ هُنَاكَ مَظَلَّةً وَجَلَسَ تَحْتَهَا فِي الظِّلِّ، حَتَّى يَرَى مَاذَا يَحْدُثُ فِي الْمَدِينَةِ. ٦فَأَعَدَّ الرَّبُّ الإِلهُ يَقْطِينَةً فَارْتَفَعَتْ فَوْقَ يُونَانَ لِتَكُونَ ظِلاً عَلَى رَأْسِهِ، لِكَيْ

يُخَلِّصَهُ مِنْ غَمِّهِ. فَفَرِحَ يُونَانُ مِنْ أَجْلِ الْيَقْطِينَةِ فَرَحًا عَظِيمًا. ٧ثُمَّ أَعَدَّ اللهُ دُودَةً عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فِي الْغَدِ، فَضَرَبَتِ الْيَقْطِينَةَ فَيَبِسَتْ. ٨وَحَدَثَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَنَّ اللهَ أَعَدَّ رِيحًا شَرْقِيَّةً حَارَّةً، فَضَرَبَتِ الشَّمْسُ عَلَى رَأْسِ يُونَانَ فَذَبُلَ. فَطَلَبَ لِنَفْسِهِ الْمَوْتَ، وَقَالَ: «مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي». ٩فَقَالَ اللهُ لِيُونَانَ: «هَلِ اغْتَظْتَ بِالصَّوَابِ مِنْ أَجْلِ الْيَقْطِينَةِ؟» فَقَالَ: «اغْتَظْتُ بِالصَّوَابِ حَتَّى الْمَوْتِ». ١٠فَقَالَ الرَّبُّ: أَنْتَ شَفِقْتَ عَلَى الْيَقْطِينَةِ الَّتِي لَمْ تَتْعَبْ فِيهَا وَلاَ رَبَّيْتَهَا، الَّتِي بِنْتَ لَيْلَةٍ كَانَتْ وَبِنْتَ لَيْلَةٍ هَلَكَتْ. ١١أَفَلاَ أَشْفَقُ أَنَا عَلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رِبْوَةً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ، وَبَهَائِمُ كَثِيرَةٌ؟» [سفر التكوين: الإصحاح الرابع: ١-٩].

ثالثا: التعقيب على هذه القصة

١- نبي الله يونس في القرآن:

إذا رجعنا إلى الكتاب والسنّة نجد أن نبي الله يونس بن متى عليه السلام كان نبياً رسولاً، أوحى الله إليه كما أوحى على غيره من المرسلين ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصافات:١٣٩]، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنبياء:١٦٣]، وهو من الصالحين الأخيار الذين فضلهم الله على العالمين ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٦].

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه خرج من قومه مغاضباً ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧]، وأنه أبق إلى الفلك المشحون، أي: السفينة ذات الحمل الكبير ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٠].

٢- نبي الله يونس في الحديث:

وقد حدثنا رسولنا ﷺ عن يونس بن متى، في الحديث الذي يرويه عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «إن يونس ﷺ كان وعد قومه العذاب، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، فتفرَّقوا بين كل والدةٍ وولدها، ثم خرجوا فجأروا إلى الله واستغفروه، فكفَّ الله عنهم العذاب، وغدا يونس ﷺ ينتظر العذاب فلم يرَ شيئاً، وكان من كذب ولم يكن له بيِّنة قُتل، فانطلق مغاضباً، حتى أتى قوماً في سفينة، فحملوه، وعرفوه.

فلما دخل السفينة ركدت، والسفن تسير يميناً وشمالاً، فقال: ما بالُ سفينتكم؟ قالوا: ما ندري. قال: ولكني أدري، إن فيها عبداً أبَقَ من ربه، وإنها والله لا تسير حتى تلقوه، قالوا: أما أنت يا نبي الله فلا والله لا نُلقيك.

فقال لهم يونس ﷺ : اقترعوا فمن قُرِع فليقع، فاقترعوا، فقرعهم يونس ﷺ ثلاث مرار، فوقع وقد وُكِّل به الحوت، فلما وقع ابتلعه فأهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس ﷺ تسبيح الحصى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧]، قال: ظلمات ثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. قال: ﴿۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝١٤٥﴾ [الصافات:١٤٥].

قال: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان يستظل بها ويصيب منها فيبست، فبكى عليها حين يبست، فأوحى الله إليه: أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون، أردت أن تهلكهم؟

فخرج فإذا هو بغلام يرعى غنماً، فقال: ممن أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: فإذا رجعت إليهم فأقرئهم السلام، وأخبرهم أنك لقيت يونس.

فقال الغلام: إن تكن يونس فقد تعلم أنه من كذب، ولم يكن له بيِّنة قُتل، فمن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرة، وهذه البقعة. فقال الغلام ليونس: مُرْهما، فقال لهما يونس ﷺ: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم.

فرجع الغلام إلى قومه، وكان له إخوة، فكان في منعة، فأتى الملك، فقال: إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر به الملك أن يُقتل، فقال: إن له بيِّنة، فأرسل معه، فانتهوا إلى الشجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: أَنْشُدُكُما بالله هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين يقولون: تشهد لك الشجرة والأرض فأتوا الملك، فحدّثوه بما رأوه، فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، وأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة» [روى هذا الحديث ابن أبي شيبة في مصنفه: (١١/ ٥٤١) ورقمه ١١٩٥، كتاب فضائل يونس، وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (٧/ ١٢٣) إلى ابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود، ونقل الحافظ ابن حجر مقطعاً منه، وحكم بصحة رواية ابن أبي حاتم. فتح الباري (٦/ ٤٥٢) وصححه الشيخ إبراهيم العلي في الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء، ١٢٢، ورقمه: ١٧٧].

٣- شرح الحديث الذي أورد قصة يونس:

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ وجه كون يونس آبقاً، وكيف كان مغاضباً، ذلك أنه وعد قومه العذاب، بعد أن طال تكذيبهم لرسولهم، وأخبرهم أنه سيحل بهم بعد ثلاثة أيام، فلما أيقنوا من نزوله بهم، تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله، وندموا على ما كان منهم من تكذيبهم لرسولهم، وكان من أمرهم ما أخبرنا به الرسول ﷺ في هذا الحديث، فقد فرقوا الأولاد عن الأمهات من البشر والحيوان، ثم خرجوا فجأروا إلى الله، فاختلطت أصواتهم وهم يدعون الله، ويتوسلون به، وصاحت الأمهات من النساء والحيوانات، كما صاحت الأبناء تطلب أمهاتها، فكفّ الله عنهم العذاب.

قال ابن كثير: «قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف: لما خرج يونس من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم،

قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا، وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة، فكشف الله بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسبب، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم» [البداية والنهاية: ١/ ٢٣٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس:٩٨].

لقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن قوم يونس نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم، ورفعه الله عنهم بعد إحاطته بهم.

ومضت الأيام الثلاثة التي وعد بها يونس قومه، فجاء ينظر موعود الله فيهم، ولعله كان معتزلاً لهم، لم يدرِ بما فعلوه من التوبة والإنابة، فوجدهم لما أطلّ عليهم سالمين، فأغضبه ذلك، وكان جزاء الكاذب عندهم أن يقتل، فخرج هارباً من قومه، خشية القتل.

وسار حتى أتى شاطئ البحر، ويبدو من التأمل في نص الحديث أن خروجه لم يكن بإذن من الله تعالى، ولذا وصفه الله تبارك وتعالى في حاله تلك بأنه كان آبقاً، والآبق هو العبد الهارب من سيده ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٠].

وكان الواجب على يونس أن يرضى بقضاء الله تبارك وتعالى، ويسلم لأمره، فليس للعبد أن يغضبه فعل ربه، وما كان ليونس أن يخرج من غير إذن منه، ولذلك نهى الله رسولنا ﷺ أن يكون كصاحب الحوت، وصاحب الحوت هو يونس لالتقام الحوت له، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨].

ولما وصل شاطئ البحر وجد قوماً في سفينة، فعرفوه، وحملوه معهم بناءً على طلبه، فلما توسطت السفينة في البحر ركدت على مياهه فلا تتحرك، وكان أمرها عجباً، السفن عن يمينها وشمالها تنطلق غادية رائحة، وهي واقفة فوق الماء لا تتحرك [الموجود في أكثر الأحاديث التي ذكرت قصة نبي الله يونس أن سبب إلقائه كان هيجان البحر وخوفهم من الغرق، لا أن السفينة ركدت فلم تسر]، وعلم يونس عليه السلام أن وقوفها كان بسبب منه، وأخبر أصحاب السفينة أن سبب وقوف سفينتهم أنه حلّ بها عبد أبق من ربه، يعني نفسه ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات:١٤٠]، وأنها لن تسير وهذا العبد فوق متنها، ولا بد من إلقائه في البحر حتى تمضي في طريقها كما تمضي بقية السفن، فرفضوا أن يلقوه، وهم يعلمون كرامته على ربه، فهو نبي من أنبياء الله.

فقال لهم يونس: اقترعوا، أي: اضربوا بقرعة، فمن وقعت عليه القرعة، فهو الذي يلقى في البحر، فاقترعوا فوقعت القرعة عليه، فأبوا إلقاءه، فاقترعوا الثانية، والثالثة، وكل ذلك تقع القرعة عليه، وهذا الاقتراع هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات:١٤١].

فلما رأى يونس ذلك رمى نفسه في البحر، وما كاد يصل إلى البحر حتى ظهر حوت عظيم فابتلعه، ولعل أهل السفينة قد شاهدوا الحوت، وهو يبتلع نبي الله يونس، وبذلك يكونون قد استيقنوا من موته وهلاكه، فما نجا حي ابتلعه الحوت قبل يونس ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات:١٤١-١٤٢].

وقوله: مليم، فاعل ما يلام عليه، وهو تركه قومه غاضباً أن لم يقع العذاب بهم خارجاً عنهم من غير إذن من ربه.

وقد أمر الله الحوت أن لا يهلك العبد الصالح يونس، وهوى به الحوت إلى قعر البحر، فأحاطت به الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٧].

وقد سمع يونس من جوف الحوت تسبيح الحصى وحيوانات البحر في جوف البحر، فنادى ربه مسبحاً إياه، معترفاً بخطئه، نادماً على ما كان منه ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

فسمع نداءه «الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت» [البداية والنهاية: ١/ ٢٣٣]، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨].

ولولا تسبيحه وإنابته لربه لهلك في بطن الحوت وبقي فيه إلى يوم البعث ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

لقد أمر الله الحوت بعد دعائه أن يلقيه على شاطئ البحر، فألقاه حيث أمره الله، وقد سقم جسمه، وتآكل جلده، وأنهكت قواه، ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات:١٤٥].

وقد شبه لنا الرسول ﷺ يونس في حال ذهاب جلده وذوبانه بفعل العصارات الهاضمة التي في معدة الحوت، بأنه كان عندما ألقاه الحوت كالفرخ الممعوط، وهو الذي نتف ريشه، فلم يبقَ منه شيء.

وأنبت الله عليه في مكانه الذي ألقي فيه شجرة من يقطين ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات:١٤٦].

واليقطين: نبتة تدعى القرع أو الدُّبّاء، ويذكر العارفون بالطب أن اليقطين غذاء جيد للبدن، يوافق ضعاف المعدة، ويلائم المحرورين، وماؤه يقطع العطش، ويذهب الصداع، وأثبت الطب الحديث أنه هاضم، ومسكن، ومرطب، وملين، ومدر للبول، ومطهر للصدر، وملطف، ويستعمل علاجاً لأمراض كثيرة [قاموس الغذاء والتداوي بالنبات: ص٧٥٤].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن يونس كان يستظل بظل هذه الشجرة، ويأكل منها، وأنها يبست بعد مدة من الزمن، فبكى عليها نبي الله يونس حين يبست، فأوحى الله إليه معاتباً: «أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم».

ولما صحّ جسده، وأصبح قادراً على المشي والحركة، خرج يمشي، فوجد غلاماً يرعى غنماً، فسأله من أي الأقوام هو، فقال: إنه من قوم يونس، فطلب منه أن يسلم على قومه، ويخبرهم بأنه لقي يونس.

وكان الغلام حصيفاً نبيهاً عالِماً بما عليه قومه في شأن الكاذب، فقال ليونس: إن تكن يونس، فقد تعلم أنه من كذب، ولم يكن له بيّنة قُتل، فمن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرة، وهذه البقعة.

فقال الغلام ليونس، مرهما، أي: بالشهادة له.

فقال لهما يونس عليه السلام: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم.

وهذا كله بقدرة الله عز وجل.

فرجع الغلام إلى قومه، وكان له إخوة لهم جاه ومكانة في قومهم يمتنع بهم ممن يريد إيذاءه، فأتى الملك، وبلغه بلقائه بيونس وبلغه سلامه عليه وعلى قومه، ويبدو أنه قد استقر عند الملك وقومه أن يونس هلك، خاصة وأن ركاب السفينة لا بد أنهم قد حدثوا بما كان من غرقه في البحر وابتلاع الحوت له، فكان إخبار الغلام بما أخبر به كذب لا شك عندهم فيه، ولذا فإنه أمر بقتل الغلام في الحال.

فأخبره الغلام أن عنده دليلاً يدل على صدقه، فأرسل معه بعض خاصته، فلما وصلوا إلى الشجرة والبقعة التي أمرهما يونس بالشهادة له، خاطبهما قائلاً: أنشدكما بالله، هل أشهدكما يونس، قالتا: نعم.

فرجعوا خائفين وجلين، وأخبروا الملك بما سمعوه، فما كان من الملك إلا أنه نزل عن كرسيه، وأمسك بيد ذلك الغلام، وأجلسه ملكاً في مكانه، وقال له: أنت أحق بهذا المكان مني.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ذلك الغلام حكم أربعين سنة، أقام لهم فيها أمرهم، وصلح فيها حالهم.

والذي يظهر أن يونس إنما أمر الغلام بالسلام على قومه وإخبارهم بحياته، وإشهاد البقعة والشجرة على ذلك، ليدلّ قومه على أنه لم يكذب عليهم، وأن كل ما كان إنما كان بأمر الله، فشهادة البقعة والشجرة للغلام شهادة ليونس بالنبوة، والنبي صادق لا يكذب.

والذي يظهر من النصوص التي بين أيدينا أن يونس عاد إلى قومه بعد إيمانهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات:١٤٧]. وهؤلاء قومه كما في الحديث في معاتبة الله له أنه لم يحزن على هلاكهم، وهم يزيدون على مائة ألف، والله أعلم بما كان [راجع في هذه القصة كتابنا: صحيح قصص الحديث النبوي، ص١٢٨].

رابعا: هذه القصة في الميزان

إن من يقرأ هذه القصة في التوراة بعد أن يعلم علمها من القرآن وصحيح الأحاديث يجد أن التغيير والتحريف أصابها، فلم يبقَ فيها من الحق إلا القليل، فكأنها آثار أطلال مدينة خربة، لا يكاد يتعرف عليها من يعرفها حق المعرفة إلا بجهد ومشقة.

لا شك أن قصة يونس صحيحة، وليست أمثالاً مضروبة، كما يزعم بعض شرّاح التوراة، ولا ندري مدى صدق كون يونس من أرض فلسطين أرسله الله إلى نينوى من أرض العراق، ويبدو لي أن هذا ليس بصواب، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الله لم يرسل بعد لوط رسولاً إلا إذا كان في الذروة في أنساب قومه، فكيف يكون يونس من غير أهل البلد الذي أرسل إليه !!، وقد صرح القرآن أن أهل المدينة الذين أرسل إليهم يونس كانوا قومه، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨]. كيف يكونون قومه؟ وهو غريب عنهم هذا بعيد !!

ودعوى كتاب التوراة أن يونس رفض أمر الله إليه بالمسير إلى نينوى غير صحيح، فما كان يونس وهو النبي المرسل أن يرفض أمر الله إليه، ودعواهم أنه ركب البحر قبل أن يصل إلى نينوى أيضاً دعوى غير صحيحة، فالحديث صرح بوقوع هذا بعد أن خرج من قومه لعدم نزول العذاب بهم.

وفي الحديث أن أصحاب السفينة كانوا يعرفون يونس، لا كما تقول التوراة أنهم لا يعرفونه، وفيه أن يونس هو الذي طلب منهم أن يقترعوا لا كما تقول التوراة أنهم هم الذين طلبوا ذلك. وفي الحديث أنهم اقترعوا ثلاث مرات لا مرة واحدة، كما تذكر التوراة، وفيه أيضاً أن يونس هو الذي قذف بنفسه في البحر، ولم يقذفه فيه البحارة كما في التوراة.

وما ذكرته التوراة من أن يونس كان نائماً نوماً ثقيلاً عندما هاج البحر غير صحيح، وفي هذا غمز في نبي الله يونس، فليس النوم الثقيل في مثل هذا الحال من صفات أفذاذ الرجال.

ويصدق القرآن ما جاء في التوراة أن الحوت ابتلع يونس، ولكن لم تذكر التوراة ما ورد في الحديث من سماع يونس تسبيح حصا البحر، والدعاء الذي ذكر في التوارة أن يونس دعا به ليس فيه الدعاء الذي ذكره القرآن. وهو دعاء يناسب حاله، بخلاف دعاء التوراة فليس فيه اعترافه بخطئه.

والذي في القرآن وصحيح الأحاديث أن يونس دعا قومه أهل نينوى فأبوا الإيمان، فأنذرهم يونس العذاب والهلاك، وهكذا أقوام الرسل لا يعذبون إلا إذا قامت الحجة عليهم، أما ما ذكرته التوراة من أن يونس جاء منذراً لهم بالعذاب، مخبراً إياهم بأنه سينزل بهم بعد أربعين يوماً من غير إنذار سابق، ومن غير معاناة طويلة، مخالف للمعهود من حال الرسل مع أقوامهم.

ويصدق القرآن ما جاء في التوراة من توبة أهل نينوى ورجوعهم إلى الله، ويصدقه ما ذكر في الحديث من ذكر البهائم والتفريق بينها وبين أولادها، وفيها

تفصيل لا يبعد أن يكون صواباً، ولكن التعبير بندم الله على الشر الذي كان سيصنعه بأهل المدينة تعبير سيئ وخاطئ، فالندم فعل البشر، والصواب أن يقال: إن الله قَبِلَ توبتهم ورحمهم.

وليس صواباً ما جاء في التوراة من أن يونس غضب لرحمة الله إياهم، ومعاتبته لربه، والصواب أن يونس خشي القتل لأن العذاب لم ينزل، وكان حكم الكاذب عندهم القتل.

وليس صواباً أنه أنذرهم العذاب بعد أربعين يوماً بل بعد ثلاثة أيام كما ذكر في الحديث.

وما ذكرته التوراة من أن الله أنبت على يونس شجرة من يقطين، وأنها يبست فحزن عليها، وأن الله ضرب له المثل بها، فهو حزن على نبتة ولم يحزن على أمة يزيد عددها على مائة ألف كله صحيح، ولكن ليس صواباً أن الله أنبت عليه شجرة اليقطين بعد إنذاره لقومه، وما صرح به الحديث، وهو مفهوم من القرآن أن ذلك كان بعد أن ألقاه الحوت من جوفه.

ولا يوجد في التوراة كثير من التفصيلات التي وردت في القرآن والحديث فليس فيها السبب الذي دعا يونس إلى الخروج من قريته، وهو خوف القتل بسبب عدم نزول العذاب، وليس فيها أن يونس خرج من الحوت سقيماً كالفرخ الممعوط، وليس فيها قصة الغلام بتفاصيلها.

وقد حذر رسولنا ﷺ أن يعدّ أحدٌ من أمته نفسه أفضل من يونس بن متى، فيونس بن متى نبي، ولا يمكن لأحد أن يبلغ فضل نبي من الأنبياء، فعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» [البخاري: ٣٣٩٥].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن يونس عليه السلام حج إلى البيت العتيق، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «أتى على ثنية هَرْشَى[1]، فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: ثنية هَرْشَى، قال: كأني أنظر إلى يونس بن متَّى على ناقة حمراء جَعْدةٍ عليه جُبَّة من صوفٍ، خطام ناقتها خلبة، وهو يلبي» [مسلم: ١٦٦] ومعنى خلبة، أي: ليفاً.

(١) هو جبل قرب الجحفة.

القصة الثامنة عشرة
قصة نبي الله موسى عليه السلام

تقديم

هذه قصة نبي الله موسى عليه السلام أعظم أنبياء بني إسرائيل، وهي قصة طويلة متشعبة، وسأورد هذه القصة في خطوات متتابعة، وسأحاول أن أوفي كل خطوة من خطوات القصة حقها بإيرادها من التوراة، والتعقيب عليها بآيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ .

وقد أطال القرآن الحديث عن قصة موسى، وهو يصدق التوراة في الجملة، ولكنه يصوب أخطاء وقعت في التوراة، ويفصِّل في قضايا لم تذكرها التوراة، ويسدّد ما وقع في التوراة من خلط واضطراب.

١- **التعريف بنبي الله موسى عليه السلام:**

ذكرت التوراة أن موسى عليه السلام هو ابن أحد رجال بيت لاوي، وأم موسى كانت من بيت لاوي أيضاً.

ونبي الله موسى أعظم رسل بني إسرائيل، وتذكر التوراة أنه لم يبعث بعد موسى في بني إسرائيل مثله.

وموسى أحد أولي العزم من الرسل، وهم خمسة، وهم أفضل الرسل، وهم نبينا محمد، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ويأتي ترتيب موسى بين الرسل في المرتبة الثالثة، فأفضلهم محمد، ثم إبراهيم، ثم موسى، عليهم الصلاة والسلام.

وقد أثنى الله - تبارك وتعالى - على موسى في قرآننا كثيراً، فمن ذلك قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾ [مريم:٥١-٥٣].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن موسى عليه السلام كان عند الله وجيهاً ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾ [الأحزاب:٦٩] وقال ربنا لموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [الأعراف:١٤٣].

٢- صفة نبي الله موسى عليه السلام:

رأى رسولنا ﷺ نبي الله موسى عليه السلام مرتين، مرة عندما عرج برسولنا ﷺ إلى السماوات العُلى، فرأى موسى عليه السلام في السماء السابعة، ومثّل الله موسى عليه السلام لنبينا محمد ﷺ بينما كان رسولنا منطلقاً مع أصحابه، فجاء على موضع فقال: «وأما موسى فرجل آدم جعد، على جمل أحمر، مخطوم بخُلْبَة، كأني أُنظر إليه إذ انحدر في الوادي» [البخاري: ٥٩١٣]. وفي رواية أخرى عند البخاري: «كأني أنظر إليه إذا انحدر في الوادي يلبي» [البخاري: ١٥٥٥]. ووصفه عندما رآه في السماء، فقال: «ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ، كأنه من رجال شُنُوءَة» [البخاري: ٣٣٩٤، مسلم: ١٦٨]. وفي حديث ابن عمر أن الرسول ﷺ قال: «وأما موسى فآدم جسيم سبط، كأنه من رجال الزط» [البخاري: ٣٤٣٨].

وخلاصة ما وصف به رسولنا ﷺ موسى أنه كان رجلاً طويلاً، وهو رجل ضرب ليس بالضعيف، ولا بالضخم الممتلئ، أي: هو وسط بين ذلك، وأما شعره فإنه سبط، أي: مسترسل، وليس بالجعد، وشبهه رسولنا ﷺ في أحد الأحاديث برجال شَنُوءَة، وفي الحديث الآخر برجال الزط، ورجال شنوءة قبيلة في اليمن، والزط: السودان.

وفسر ابن حجر الجسيم بالطويل، والسبط: الذي ليس بجعد، والزط: جنس من السودان [فتح الباري: ٦/ ٥٩٢].

٣ـ التعريف بالفرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام:

الفرعون لقب لكل من حكم مصر في فترة من فترات التاريخ، وكان الفرعون الذي أرسل إليه موسى رجلاً ظالماً غشوماً جباراً متكبراً، ولظلمه واستكباره ادعى أنه ربُّ الناس، وإله الناس، ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

وبلغ من طغيانه أن استبعد بني إسرائيل، وذبّح أبناءَهم واستحيا نساءَهم، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤]، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس:٨٤].

٤ـ الغاية من وراء إرسال موسى إلى فرعون:

أراد الله من وراء إرسال موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل أن يرفع الظلم عنهم الذي سامهم به فرعون وقومه، ويجعل بعضاً من بني إسرائيل أئمة، ويجعلهم الوارثين، وينصرهم، ويمكّن لهم في الأرض، ويُري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخشونه من بني إسرائيل، فقد حكم الله أن يزول ملكهم على يد نبي من أنبياء بني إسرائيل ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٥-٦]، وقد تحقق هذا، فأغرق الله فرعون وجنوده في اليم، وأورث بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها.

٥- ولادة موسى عليه السلام:

ذكرنا فيما سبق انتقال إسرائيل وذريته ونسائهم من فلسطين إلى مصر، عندما أصبح نبي الله يوسف عليه السلام عزيزاً لمصر، وتوفي إسرائيل وأولاده جميعاً بما فيهم نبي الله يوسف في مصر، «فَأَثْمَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمَوْا وَكَثُرُوا كَثِيرًا جِدًّا، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ» [سفر الخروج، الإصحاح الأول: ٧].

وتذكر التوراة أنه قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فخاف من بني إسرائيل أن يعينوا عدوهم عليهم، فاستذلّ بني إسرائيل، واستعبدهم، وأجبرهم على العمل في الحقول، والأعمال الشاقة.

وأمر الملك القابلتين اللتين تولدان العبرانيات أن تقتلا أولاد بني إسرائيل وتستحييا بناتهم عند الولادة، فلم تفعلا خوفاً من الله، ولما استفسر منهما فرعون عن السبب اعتذرتا بأن العبرانيات قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة، فكثر بنو إسرائيل ونموا، فأمر عند ذلك فرعون شعبه أن يطرحوا أولاد الإسرائيليات في النهر [سفر الخروج، الإصحاح الأول: ٨-٢٢].

وتذكر التوراة أيضاً أن رجلاً من بيت لاوي، تزوج بامرأة من ذلك البيت، فحبلت المرأة ووضعت ابناً ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر، ولما رأت أنها لا تستطيع تخبئته أكثر من ذلك أخذت سفطاً من البردى وطلته، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد تنظر إليه، لتعرف ما يُفعل به، فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات إلى جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها فأخذته، ففتحته، وإذا ولد صغير يبكي، فرَّقت له، وقالت: هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فطلبت ابنة فرعون منها أن تأخذه وترضعه بأجر، ولما كبر جاءَت به إلى ابنة فرعون، وأصبح لها ابناً، وسمته موسى، وقالت: «إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ» [سفر الخروج، الإصحاح الثاني: ١-١٠].

٦- القرآن يصدق خبر التوراة في الجملة:

والقرآن يصدق ما أخبرت به التوراة في الجملة، ولكنه يصحح بعض التفصيلات الواردة في هذه القصة، فقد ذكر القرآن من طغيان فرعون الذي أصبح حاكماً لمصر في ذلك الوقت شيئاً عظيماً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص:٤].

وكان الذبح من فرعون لأبناء الإسرائيليين على مرتين، الأولى منهما كانت قبيل ولادة موسى عليه السلام، الثانية بعد أن جاء موسى فرعون رسولاً من رب العالمين، فالمذكور في الآية السابقة هو عن المرة الأولى، والمرة الثانية مذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [الأعراف:١٢٧].

٧- موسى يولد في الفترة العصيبة من تاريخ بني إسرائيل:

وقد وُلد موسى عليه السلام في تلك الفترة العصيبة من تاريخ بني إسرائيل، والقرآن يحدثنا أن الله أمر أم موسى في الرؤيا أن ترضعه بعد ولادته، ثم تلقيه في النهر، ولم تنتظر به مدة ثلاثة أشهر التي ذكرتها التوراة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص:٧]. ونهى الله أمّه في الرؤيا عن أن تخاف عليه أو تحزن عليه، فقد وعدها أن يعيده إليها، وأن يجعله من المرسلين ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص:٧].

٨- أمر الله أم موسى أن تلقيه بعد ولادته في النهر:

وقد بيّن لنا القرآن في موضع آخر أن الله أمر أم موسى أن تلقيه في التابوت، ثم تلقي التابوت في اليم، وهو النهر ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا

يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه:٣٧-٣٩].

وهذا النص يظهر عدم صحة ما قالته التوراة المحرّفة المغيّرة من أن أخته وضعته في الحلفاء، والصواب أن أمه جاءت بالتابوت، وهو صندوق صغير، فألقته فيه، ثم ألقته في النهر، فأمر الله النهر أن يلقيه في حديقة فرعون، فأخذه أعوان فرعون إلى الملكة زوجة فرعون.

والتوراة تقول: إن الذي أخذته هي ابنة فرعون، وهذا ليس بصواب، فالآخذة هي زوجة فرعون لا ابنته.

٩- الحالة التي أصبحت عليها أم موسى بعد إلقائها إياه في النهر:

ويذكر القرآن الحالة النفسية التي أصبحت فيها أم موسى بعد إلقائها له في النهر، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠] وفراغ قلب أم موسى كان من كل شيء، فلا شيء في قلبها إلا ذكر موسى، وقد كاد أن ينكشف أمرها بتصريحها أنها ألقت ابنها في النهر، لولا تثبيت الله لها.

١٠- كيف مكّن الله للطفل في قصر فرعون:

ويذكر لنا القرآن الكريم كيف مكّن الله لموسى عليه السلام في قصر فرعون، وهو الطفل الصغير الذي لا يملك لنفسه شيئاً، لقد ذهب أعوان فرعون بالطفل الصغير إلى الملكة، فلما رأته أُلقيت محبته في قلبها، فأصبحت متعلقة به، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه:٣٩]، عند ذلك طلبت امرأة فرعون من فرعون أن لا يؤذيه ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص:٩].

١١ـ كيف أعاد الله تعالى موسى إلى أمه:

تذكر التوراة أن أخت موسى انطلقت إلى بنت فرعون، وعرضت عليها أن تأتيها بامرأة ترضعه وتقوم عليه، ولو كان هذا صحيحاً لأثار الشك عند آل فرعون، والذي ذكره القرآن وهو غير موجود في التوراة أن أمه أمرت ابنتها بمتابعة خبره، فذهبت تتقصى خبره، وأظهرت نفسها غير عابئة به حتى لا تثير الشكوك حولها.

وواجهت امرأة فرعون مشكلة، فالطفل الصغير كلما جاؤوه بامرأة لترضعه، لم يقبل ثديها، وكان ذلك عن قدر أراده الله تعالى: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص:١٢] فأخذوا يبحثون له عن مرضعة خارج القصر، عند ذلك أمكن لأخته أن تتدخل، وتعرض على الباحثين أمها لترضعه، وتكفله، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص:١٢]. وتحقق وعد الله لأم موسى، فقد أعاد الله موسى لحضن أمه، فقرت عينها، وذهب حزنها، وعلمت أن وعد الله حق ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص:١٣].

وقال الله في موضع آخر: ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾ [طه:٤٠].

وما ذكرته التوراة من أن فرعون وَكَلَ أمر قتل أولاد العبرانيات إلى قابلتين غير صحيح كما ذكرته من قبل، فقد نسب الله القتل إلى فرعون، فلا بد أنه أقام على ذلك من هو قادر عليه.

١٢ـ سخرية الله من فرعون إذ جعله يربي الطفل الذي يريد قتله في قصره:

من أقدار الله العجيبة أن الله جعل فرعون يربي الطفل الذي كان يبحث عنه، وكان يقتل الأطفال من أجله في قصره، وقد قال ابن كثير مخاطباً هذا الفرعون

المغرور الجاهل: «يا أيهاذا الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه؛ قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره؛ أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحي إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم والحول والقوة، والمشيئة التي لا مرد لها !

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شَكَوْا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذي يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً، فذكروا أن هارون عليه السلام وُلد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام وُلد في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل. فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً، فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به» [قصص القرآن: ٢٨٦].

١٢ـ لما بلغ موسى أشده قتل رجلا مصريا:

تذكر التوراة أنه «لَمَّا كَبِرَ مُوسَى أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى إِخْوَتِهِ لِيَنْظُرَ فِي أَثْقَالِهِمْ، فَرَأَى رَجُلاً مِصْرِيًّا يَضْرِبُ رَجُلاً عِبْرَانِيًّا مِنْ إِخْوَتِهِ، ١٢فَالتَفَتَ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ وَرَأَى أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ، فَقَتَلَ المِصْرِيَّ وَطَمَرَهُ فِي الرَّمْلِ. ١٣ثُمَّ خَرَجَ فِي اليَوْمِ الثَّانِي وَإِذَا رَجُلاَنِ عِبْرَانِيَّانِ يَتَخَاصَمَانِ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: «لِمَاذَا تَضْرِبُ صَاحِبَكَ؟» ١٤فَقَالَ: «مَنْ جَعَلَكَ رَئِيسًا وَقَاضِيًا عَلَيْنَا؟ أَمُفْتَكِرٌ أَنْتَ بِقَتْلِي كَمَا قَتَلْتَ المِصْرِيَّ؟». فَخَافَ مُوسَى

وَقَالَ: «حَقًّا قَدْ عُرِفَ الأَمْرُ». ١٥ فَسَمِعَ فِرْعَوْنُ هذَا الأَمْرَ، فَطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى. فَهَرَبَ مُوسَى مِنْ وَجْهِ فِرْعَوْنَ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ مِدْيَانَ، وَجَلَسَ عِنْدَ الْبِئْرِ» [سفر الخروج، الإصحاح الثاني: ١١-١٥].

أجملت التوراة هذه الفترة من قصة موسى عليه السلام، ووقع فيها بعض الخطأ، وقد صوب القرآن هذا الخطأ، وأطال في بيان ما جرى فيها من وقائع، ذكر لنا قرآننا أن موسى عليه السلام بلغ أشدّه واستوى، فآتاه علماً وحكماً، وكذلك نجزي المحسنين، وفي ذلك إشارة إلى ما كان عليه موسى من الإحسان والفضل ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

وذكر لنا ربنا – عز وجل – في كتابه أن موسى دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، ويبدو أنه دخل المدينة والناس قد انصرفوا إلى منازلهم، ويكون ذلك في العادة عند منتصف النهار، فوجد رجلين يقتتلان، هذا من شيعه، وهذا من عدوه، فاستنصر به الرجل العبراني الذي من شيعته على الرجل الذي هو من عدوه، فأقبل موسى إلى ذلك الرجل المصري، فضربه بقبضته فقضى عليه ومات، فتألم موسى لما فعله، وتوجه إلى ربه، واعترف بذنبه، ودعا الله أن يغفر له ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص:١٥-١٧].

١٤ـ كان أحد الرجلين المقتتلين من شيعة موسى والآخر من عدوه:

وما ذكرته التوراة أن الرجل المصري كان يضرب الرجل العبراني ليس دقيقاً، والذي ذكره القرآن أنهما كانا يقتتلان، ويبدو أن أحدهما لم يكن بقادر على أن يصرع خصمه، وما ورد في التوراة يشعر بأن موسى كان مريداً لأن يقتل المصري، وهذا

غير ظاهر في القرآن، والذي فعله موسى كان يهدف نصرة الذي من شيعته فحسب، ولم يذكر القرآن أن موسى طمر القتيل في الرمل.

والتعبير القرآني أبرز حقيقة لم تُذكر في التوراة، فقد ذكر القرآن أن أحد المتقاتلين كان من شيعة موسى والآخر كان من عدوه.

وهذا يدلُّ على أن موسى أصبح له مكانة في المجتمع، وأن الناس تحلقوا حوله، وأصبحوا يحتمون به، ويستنصرون به، فموسى تربى على العزة، لأنه كان يعيش في قصر فرعون، وكانت زوجة فرعون تحميه، وتحيطه بعنايتها، فوجد فيه الإسرائيليون ملاذاً يلوذون به من الظلم والطغيان الذي يحيط بهم.

١٥ـ أصبح موسى في اليوم التالي خائفا يترقب:

ويذكر لنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام أصبح في اليوم التالي خائفاً في المدينة يترقب ما تسفر عنه الوقائع في أمر الرجل الذي قتله، وبينما هو كذلك، وجد الرجل الذي استنصره بالأمس يقتتل مع آخر، فاستصرخه، وطلب منه أن يعينه على الرجل الآخر الذي يقاتله، فقال له موسى عليه السلام: إنك لغوي مبين.

فلما أراد أن يبطش بالرجل الذي هو عدو لهما، قال له ذلك الرجل: أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين، ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:١٨-٢١].

١٦ـ موسى يفر من المدينة بأقصى ما يمكنه من السرعة:

لقد شاع خبر قتل موسى المصري وانتشر، وأصبح حديث الناس في المدينة، وبينما كان موسى يريد نصرة الرجل الذي من شيعته مرة أخرى، إذا رجل من محبيه

يأتي مسرعاً ويُعلِم موسى بأن الحكم صدر عليه من مجلس الحكم بقتله، ونصحه في أن يبادر بالخروج قبل أن يُقبض عليه، ويحاط به.

فخرج موسى عليه السلام سريعاً، ولم يودع أحداً من أقاربه، ولم يجهز شيئاً من حاجاته، كل همّه أن ينجو بنفسه قبل أن يصل جند فرعون إليه، فقد قال له الناصح الأمين الذي أبلغه أن الملأ ائتمروا به ليقتلوه ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠] فخرج منها خائفاً يدعو ربه أن ينجيه من القوم الظالمين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:٢١]. وساق قدر الله موسى عليه السلام إلى مدينة مدين، ولم يكن موسى يدري إلى أين يسير، وأي بلد يقصد، ولذلك توجه إلى ربه داعياً إياه أن يهديه إلى سواء السبيل: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢]. ومدين التي توجه إليها موسى ﷺ هي المدينة التي أرسل الله نبيه شعيباً فأهلكهم الله عندما كذبوه قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥] وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف:٩١].

١٧- موسى عليه السلام يصل إلى مدينة مدين:

تذكر التوراة أن موسى وصل إلى مديان، وسكن أرضها، وعندما وصلها جلس عند بئرها، وتذكر التوراة أنه: «١٦كَانَ لِكَاهِنِ مِدْيَانَ سَبْعُ بَنَاتٍ، فَأَتَيْنَ وَاسْتَقَيْنَ وَمَلأْنَ الأَجْرَانَ لِيَسْقِينَ غَنَمَ أَبِيهِنَّ. ١٧فَأَتَى الرُّعَاةُ وَطَرَدُوهُنَّ. فَنَهَضَ مُوسَى وَأَنْجَدَهُنَّ وَسَقَى غَنَمَهُنَّ. ١٨فَلَمَّا أَتَيْنَ إِلَى رَعُوئِيلَ أَبِيهِنَّ قَالَ: «مَا بَالُكُنَّ أَسْرَعْتُنَّ فِي الْمَجِيءِ الْيَوْمَ؟» ١٩فَقُلْنَ: «رَجُلٌ مِصْرِيٌّ أَنْقَذَنَا مِنْ أَيْدِي الرُّعَاةِ، وَإِنَّهُ اسْتَقَى لَنَا أَيْضًا وَسَقَى الْغَنَمَ». ٢٠فَقَالَ لِبَنَاتِهِ: «وَأَيْنَ هُوَ؟ لِمَاذَا تَرَكْتُنَّ الرَّجُلَ؟ ادْعُونَهُ لِيَأْكُلَ طَعَامًا». ٢١فَارْتَضَى مُوسَى أَنْ يَسْكُنَ مَعَ الرَّجُلِ، فَأَعْطَى مُوسَى صَفُّورَةَ ابْنَتَهُ. ٢٢فَوَلَدَتِ ابْنًا فَدَعَا اسْمَهُ «جَرْشُومَ»، لأَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ نَزِيلاً فِي أَرْضٍ

غَرِيبَةٍ». ٢٣وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الكَثِيرَةِ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ مَاتَ. وَتَنَهَّدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ العُبُودِيَّةِ وَصَرَخُوا، فَصَعِدَ صُرَاخُهُمْ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ العُبُودِيَّةِ. ٢٤فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ، فَتَذَكَّرَ اللهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. ٢٥وَنَظَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» [سفر الخروج، الإصحاح الثاني: ١٦-٢٥].

ويذكر القرآن وصول موسى عليه السلام إلى البئر الذي يشرب منه أهل مدينة مدين، وذكر أنه وجد على البئر جماعة من الناس يسقون أغنامهم، ووجد من دونهم امرأتين تذودان أغنامهما، فاستغرب حالهما وسألهما عن السبب الذي يمنعهما عن سقي أغنامهما، فقالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما، ثم تولى إلى مكان ظليل، وقال مخاطباً ربه: رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

وشكوى موسى إلى ربه فقره يدل على الحال البائسة التي كان فيها، فإنه خرج من قومه سريعاً، لم يأخذ مالاً، ولم يجلب معه لباساً، ولم يحضر طعاما، ولذلك كان في غاية الإرهاق والجوع والتعب وقلة ذات اليد، ولم يكن يعرف في المدينة أحداً يأوي إليه، ويشكو له خلته.

وذكرت التوراة أن والد الفتاتين اللتين كانتا على البئر كان كاهن مدين، وما أظن ذلك صواباً، فلو كان كاهناً لما أرسل بناته لتسقي غنمه من البئر، ولو اضطر إلى إرسالهما لاحترمهما الرعاة، وسقوا لهما قبل بقية السقاة، وما ذكرته التوراة أن عدد البنات اللاتي كنّ على البئر سبع بنات غير صحيح، والصواب أنهما كانتا اثنتين كما ذكر القرآن.

وما ذكرته التوراة أن البنات استقين وملأن الأجران فجاء الرعاة وطردوهن غير صحيح أيضاً، والصواب ما ذكره القرآن أن موسى وجدهما تمنعان غنمهما من الاستقاء، فسألهن، ولما علم عدم قدرتهما على السقي لضعفهما، تقدم وقام بالسقي لهما.

١٨ـ موسى عليه السلام كان دائم التعلق بربه:

من التأمل في النص القرآني نجد أن موسى كان دائم التعلق بربّه في كل أمر من أموره فعندما قتل المصريَّ من غير قصد، قال: هذا من عمل الشيطان، واستغفر ربه، وقال: إني ظلمت نفسي فاغفر لي، وعندما أبلغه الناصح له بأن الملأ قرروا قتله، دعا ربه قائلاً: رب نجني من القوم الظالمين، وعندما خرج سريعاً لا يدري أين يتوجه قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، وعندما سقى موسى للفتاتين، قال: رب إني لما نزلت إليّ من خير فقير.

إن حياة موسى كانت مع ربه دائماً، يناجيه، ويدعوه، ويستغفره، ويلجأ إليه، ويبثه حزنه، وهمه، ويتوكل عليه، ويثني عليه الخير كله.

١٩ـ موسى في حضرة والد الفتاتين:

يذكر القرآن أنه بعد تولي موسى عليه السلام إلى المكان الذي فيه ظل قرب البئر، جاءت إحدى المرأتين إلى موسى عليه السلام ، تمشي على استحياء، فأخبرته أن والدها، وهو الشيخ العجوز الكبير، الذي أخبرت الفتاتان موسى عنه فيما سبق، يدعوه إلى منزله ليجزيه أجر ما سقاه، فلما وصل إلى منزله، وجلس بين يديه، واستعلم منه عن خبره، قصّ عليه قصته، عند ذلك طمأن ذلك الشيخ موسى قائلاً له: لا تخف، نجوت من القوم الظالمين، فمُلْك فرعون لا يصل إلى مدينة مدين، وهو آمن بحلوله في هذه المدينة، ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص:٢٥].

لقد كانت الفتاة في غاية الأدب والوضوح، جاءَته وظاهر مشيتها يدل على مدى حيائها، وقالت له: إن أبي يدعوك ليجيزك أجر ما سقيت لنا، فالدعوة ليست موجهة منها أو من أختها، بل من أبيها، والدعوة ليجزيه أجر ما سقاه لهما، فلا حرج على موسى وهو الذي لا يعرف أحداً في المدينة أن يجيب دعوة أبيهما.

وهذه الواقعة تدل على خاصية من خصائص نبي الله موسى، فقد تدخل في أمر الفتاتين، ولم يعزل نفسه عن الواقعة التي يبصرها، وهذا شأن عظماء الرجال، يقحمون أنفسهم فيما يقع أمامهم، ويعملون بقدر ما يستطيعون، من غير انتظار لأجر أو ثواب.

٢٠- هيأ الله لموسى عليه السلام المسكن والزوجة والعمل في يوم وصوله مدين:

في اليوم الأول الذي وصل فيه موسى عليه السلام مدينة مدين هيأ الله سكناً وعملاً وزوجة، وذلك توفيق من رب العباد، فبعد أن قص موسى عليه السلام على والد الفتاتين قصته، قالت إحدى الفتاتين لأبيها: يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص:٢٦].

وقد عضدت الفتاة مشورتها لأبيها باستئجاره، بأنه قويٌّ أمين، ورأت قوته عندما سقى لهما الغنم على البئر، ولا بد أنها رأت منه ما يدل على أمانته.

وهذه المشورة من الفتاة على أبيها لم تذكر في التوراة، ولم يذكر القرآن ما ذكرته التوراة أن زوجة موسى ولدت له ولداً سماه جِرْشوم، فالله أعلم بمدى صحة ذلك.

وقد عرض والد الفتاتين على موسى عرضاً نال رضاه، عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يعمل عنده ثماني سنوات في رعي الغنم، فإن أتمَّ عشراً فذلك أمر متروك لموسى عليه السلام، وقال له: وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، فرضي موسى بما عرضه عليه ذلك الرجل الصالح، وأبقى الخيار له مفتوحاً في أي الأجلين يختار ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

وهذا العرض الذي عرضه والد الفتاتين على موسى، وتصريح موسى بقبول ما عرضه عليه لا وجود له في التوراة.

٢١ـ قبول موسى أن يعمل راعيا بعد أن كان أحد رجال القصر:

لقد قبل موسى أن يعمل راعياً في أرض غربته، وهو الذي كان في مصر أحد رجالات القصر الحاكم، وكان يحظى بالثراء والعزة، إن موسى يعلم أن الحال قد تغيرت وتبدلت، ومن لا يرضى بمثل ما رضي به موسى يتعب نفسه، لقد وجد بيتاً يؤويه، وزوجة يأنس إليها، وعملاً يقتات من ورائه، وهذا كلُّه نعمة من نِعَم الله عليه، وإلى جانب ذلك كله فإن البيت الذي احتضنه كان بيتاً صالحاً.

ويبدو أن هذا المدة التي قَبِلَ موسى أن يعمل فيها عند الرجل الصالح كانت لازمة كي يسقط حكم القتل عن القاتل في القانون المصري في ذلك الزمان، ولذا فإن موسى عاد إلى مصر بعد انقضائها.

٢٢ـ مدى نفع موسى للفتاتين وأبيهما:

ولا شك أن موسى عليه السلام قد حلّ مشكلة الشيخ الكبير، فهو لا يستطيع أن يقوم على غنمه لكبر سنِّه، وعمل ابنتيه في رعي الغنم يشقُّ عليهما مشقة كبيرة، وقد ملأ موسى الفراغ الذي في المنزل، فقد وُجد فيه رجل قادر على العناية بالبيت، وبالقيام بما يحتاجه من متطلبات. وما ذكرته التوراة أن ملك مصر هلك في أثناء الفترة التي غاب فيها موسى عن مصر غير صحيح، فسياق النصوص القرآنية يدلُّ على أن موسى عندما رجع إلى مصر، وجد الفرعون الذي كان موجوداً قبل مغادرته مصر لا يزال هو حاكم البلاد، والله أعلم بالصواب.

٢٣ـ المدة التي قضاها موسى في رعي الغنم:

لم يبين لنا القرآن الكريم المدة التي قضاها موسى في رعيه الغنم لحميه، هل كانت ثماني سنوات أو عشر سنوات، وقد سأل يهودي من أهل الحيرة سعيد بن جبير عن أي الأجلين قضى موسى، قال سعيد: قلت لا أدري، حتى أقدم على حبر

العرب فأسأل، فقدمت، فسألت ابن عباس، فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل» [البخاري: ٢٦٨٤].

وفي سنن النسائي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى، قال: أتمهما وأكملهما» [قصص الأنبياء، لابن كثير: ص٢٩٥، وعزاه محقق الكتاب إلى الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٠٧) وصححه].

٢٤- متى كان وحي الله لموسى أقبل رحيله من مدين أو في طريقه راجعا إلى مصر:

قضى موسى عليه السلام المدة التي اشترطها عليه حميه عندما زوجه ابنته، وأخذ زوجته وأولاده، وعاد بهما راجعاً إلى مصر، حيث يعيش قومه، وفيهم أمه وأخوه هارون وأقاربه.

وفي أثناء عودته أوحى الله إليه ما أوحاه عند طور سيناء، إلا أن التوراة تذكر أن الوحي الذي أوحاه الله عند جبل حوريب كان وموسى لا يزال يعمل لحميه، ففي سفر الخروج «١وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَسَاقَ الغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ البَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ الله حُورِيبَ. ٢وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ» [سفر الخروج، الإصحاح الثالث: ١-٢].

والصواب من القول الذي صرح به القرآن الكريم أن هذا الوحي وقع في أثناء عودة موسى من مدين إلى أهله في مصر، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص:٢٩]. وقال رب العزة: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه:٩-١٠].

٢٥- إضاعة موسى الطريق أثناء عودته في ليلة مظلمة باردة:

عندما كان موسى عائداً إلى مصر مع أهله أضاع الطريق، وكانت الليلة ليلة مظلمة باردة، فرأى على البُعد ناراً مشتعلة، فقال لأهله: امكثوا في هذا الموضع،

حتى آتيكم، فأنا رأيت على البُعد ناراً، سأذهب إليها لعلي أجد من يدلنا على الطريق أو آتيكم بجذوة من النار تستدفئون بها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

وقال ربنا - تبارك وتعالى - في موضع آخر: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه:٩-١٠].

وقال في موضع ثالث: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل:٧].

ذهب موسى عليه السلام يطلب هادياً يهديه إلى الجهة التي يقصدها، أو جذوة من النار يصطلي وأهله بها، فوجد هناك هدي الدنيا والآخرة.

٢٦- وحي الله عند جبل سيناء:

تذكر التوراة أن موسى عليه السلام عندما كان يرعى غنم حميه، ذهب بالغنم إلى جبل حوريب، «٢وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. ٣فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟». ٤فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». ٥فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ». ٦ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ». فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، ٨فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ

مِنْ أَيْدِي الِمصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ
تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً، إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ
وَالْيَبُوسِيِّينَ. ٩وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَتَى إِلَيَّ، وَرَأَيْتُ أَيْضًا الضِّيقَةَ
الَّتِي يُضَايِقُهُمْ بِهَا الِمصْرِيُّونَ، ١٠فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي
إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ». ١١فَقَالَ مُوسَى لله: «مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى
أُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟» ١٢فَقَالَ: «إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ، وَهذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلاَمَةُ
أَنِّي أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ، تَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى هذَا الْجَبَلِ». ١٣فَقَالَ
مُوسَى لله: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا
قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟» ١٤فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ:
«هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ». ١٥وَقَالَ اللهُ أَيْضًا لِمُوسَى: «هكَذَا
تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي
إِلَيْكُمْ. هذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. ١٦اِذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ
إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ظَهَرَ لِي قَائِلاً:
إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُكُمْ وَمَا صُنِعَ بِكُمْ فِي مِصْرَ. ١٧فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَذَلَّةِ مِصْرَ إِلَى
أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، إِلَى أَرْضٍ
تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً. ١٨فَإِذَا سَمِعُوا لِقَوْلِكَ، تَدْخُلُ أَنْتَ وَشُيُوخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى
مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُونَ لَهُ: الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ الْتَقَانَا، فَالآنَ نَمْضِي سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي
الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا. ١٩وَلكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لاَ يَدَعُكُمْ تَمْضُونَ وَلاَ بِيَدٍ
قَوِيَّةٍ، ٢٠فَأَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِكُلِّ عَجَائِبِي الَّتِي أَصْنَعُ فِيهَا. وَبَعْدَ ذلِكَ
يُطْلِقُكُمْ. ٢١وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الِمصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ
أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. ٢٢بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ
فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا، وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الِمصْرِيِّينَ» [سفر
الخروج، الإصحاح الثالث: ٢-٢٢].

٢٧ـ أول ما أوحاه الله لنبيه موسى كما يحكيه القرآن:

ذكرت من قبل أن وحي الله إلى نبيه موسى عليه السلام كان في رجوعه مع أهله إلى دياره، لا كما ذكرته التوراة أنه كان وهو لا يزال يرعى غنم حميه، ويصدق القرآن التوراة أن النداء كان عند الشجرة، ولكن القرآن زاد الأمر تحديداً فذكر أن نداء الله موسى كان من شاطئ الوادي الأيمن، وأن الله قال لموسى: يا موسى إني أنا الله ربُّ العالمين ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص:٣٠]، وما ذكرته التوراة أن الشجرة كانت عليقة، وأن النار كانت تشتعل فيها وهي خضراء فتزداد اخضراراً الله أعلم بمدى صحته.

وما ذكرته التوراة أن الله أمر موسى أن يخلع نعليه، لأن الموضع الذي يقف فيه أرض مقدسة، صحيح جاء القرآن به في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه:١٢] وقد زاد القرآن عما في التوراة أن المكان الذي كان يقف فيه كان وادياً اسمه طوى.

والذي في القرآن أنّ الله ابتدأ وحيه لموسى بذكره أن النار التي يراها موسى مشتعلة مباركة، ومبارك ما حولها، ثم سبح الله نفسه وعرَّف الله موسى بنفسه. قائلاً: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل:٨-٩].

وفي موضع آخر توسع ربنا في ذكر ما أوحاه إلى عبده موسى في ذلك الوادي المبارك المقدس، فقد أخبره أنه هو الله المعبود الذي يستحقُّ العبادة، ولا يستحقها أحد غيره، وأمره بعبادته وحده لا شريك له، وأمره بإقامة الصلاة لذكره، وأعلمه أن الساعة، وهي القيامة آتية، يكاد يخفيها عن نفسه، لتجزى في ذلك اليوم كلُّ نفس بأعمالها التي عملتها، وأمره أن لا يصدنه أحد ممن لا يؤمن بها من الذين يتبعون

أهواءهم فيردى ويهلك، قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٣-١٦].

وهذا الذي ذكره الله لعبده موسى في وحيه إليه، من تعريف موسى بنفسه، وأنه المستحق للعبادة، وأمره إياه بعبادته وحده، وأمره بإقام الصلاة، وتعريفه بالآخرة، وأن يكون دائماً على ذكر لها، فإن هذا أصل الدين، ولبّ ما خلقه الله له، وموسى مرسل أولاً لبني إسرائيل لتحقيق هذه الغاية، ولم تذكر التوراة هذا الذي ذكره القرآن، وإنما أكثرت من أمر الله لموسى بالذهاب إلى فرعون ليطلق بني إسرائيل ليعبدوا الله خالقهم، وهذا ذكره القرآن في المرحلة الثانية، بعد أن عرف الله موسى بنفسه وحقه وأمره بعبادته، وبعد أن أراه الآية الكبرى، والآية الثانية وهي اليد.

وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

٢٨ـ إعطاء الله موسى الآيات العظيمة:

تذكر التوراة أن الله تعالى أعطى موسى وهو في ذلك المكان الذي أوحى إليه آيتين عظيمتين، العصا التي تتحول إلى حيّة، واليد التي تتحول إلى مثل الثلج إذا أدخلها في عبّه «١أَجَابَ مُوسَى وَقَالَ: «وَلكِنْ هَا هُمْ لاَ يُصَدِّقُونَنِي وَلاَ يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي، بَلْ يَقُولُونَ: لَمْ يَظْهَرْ لَكَ الرَّبُّ». ٢فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَا هذِهِ فِي يَدِكَ؟» فَقَالَ: «عَصًا». ٣فَقَالَ: «اطْرَحْهَا إِلَى الأَرْضِ». فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً، فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا. ٤ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ وَأَمْسِكْ بِذَنَبِهَا». فَمَدَّ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ، فَصَارَتْ عَصًا فِي يَدِهِ. ٥«لِكَيْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَكَ الرَّبُّ إِلهُ آبَائِهِمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ». ٦ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّبُّ أَيْضًا: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي عُبِّكَ». فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي عُبِّهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا، وَإِذَا يَدُهُ بَرْصَاءُ مِثْلَ الثَّلْجِ. ٧ثُمَّ قَالَ لَهُ: «رُدَّ يَدَكَ إِلَى عُبِّكَ». فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى عُبِّهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا مِنْ عُبِّهِ، وَإِذَا هِيَ قَدْ عَادَتْ مِثْلَ جَسَدِهِ. ٨«فَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوكَ وَلَمْ يَسْمَعُوا لِصَوْتِ الآيَةِ الأُولَى، أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ صَوْتَ

الآيَةِ الأَخِيرَةِ. ٩وَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، وَلَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِكَ، أَنَّكَ تَأْخُذُ
مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى اليَابِسَةِ، فَيَصِيرُ المَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَمًا عَلَى
اليَابِسَةِ». ١٠فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ
أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الفَمِ وَاللِّسَانِ».
١١فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ
أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ ١٢فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ
بِهِ». ١٣فَقَالَ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَرْسِلْ بِيَدِ مَنْ تُرْسِلُ». ١٤فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ
عَلَى مُوسَى وَقَالَ: «أَلَيْسَ هَارُونُ اللاَّوِيُّ أَخَاكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ يَتَكَلَّمُ، وَأَيْضًا هَا
هُوَ خَارِجٌ لاسْتِقْبَالِكَ. فَحِينَمَا يَرَاكَ يَفْرَحُ بِقَلْبِهِ، ١٥فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ،
وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعَلِّمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ. ١٦وَهُوَ يُكَلِّمُ الشَّعْبَ عَنْكَ.
وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا. ١٧وَتَأْخُذُ فِي يَدِكَ هذِهِ العَصَا الَّتِي تَصْنَعُ بِهَا
الآيَاتِ». ١٨فَمَضَى مُوسَى وَرَجَعَ إِلَى يَثْرُونَ حَمِيهِ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا أَذْهَبُ وَأَرْجعُ إِلَى
إِخْوَتِي الَّذِينَ فِي مِصْرَ لأَرَى هَلْ هُمْ بَعْدُ أَحْيَاءٌ». فَقَالَ يَثْرُونُ لِمُوسَى: «اذْهَبْ
بِسَلاَمٍ». ١٩وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى فِي مِدْيَانَ: «اذْهَبْ ارْجعْ إِلَى مِصْرَ، لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ
جَمِيعُ القَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَكَ». ٢٠فَأَخَذَ مُوسَى امْرَأَتَهُ وَبَنِيهِ وَأَرْكَبَهُمْ عَلَى
الحَمِيرِ وَرَجَعَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ. وَأَخَذَ مُوسَى عَصَا اللهِ فِي يَدِهِ. ٢١وَقَالَ الرَّبُّ
لِمُوسَى: عِنْدَمَا تَذْهَبُ لِتَرْجعَ إِلَى مِصْرَ، انْظُرْ جَمِيعَ العَجَائِبِ الَّتِي جَعَلْتُهَا فِي يَدِكَ
وَاصْنَعْهَا قُدَّامَ فِرْعَوْنَ. وَلكِنِّي أُشَدِّدُ قَلْبَهُ حَتَّى لاَ يُطْلِقَ الشَّعْبَ. ٢٢فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ:
هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي البِكْرُ. ٢٣فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فَأَبَيْتَ
أَنْ تُطْلِقَهُ. هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ البِكْرَ» [سفر الخروج، الإصحاح الرابع: ١-٢٣].

٢٩ـ ذكر القرآن للآيات العظيمة التي أعطاها الله لموسى:

ذكرت التوراة أن موسى عليه السلام بعد أن قال الله له ما قاله مما ذكرته التوراة أعطاه الله تبارك وتعالى آيتين عظيمتين في ذلك المكان، الأولى: تحويل عصاه التي كان

يحملها معه في أثناء رعيه للغنم، وقد صحبته دهراً طويلاً إلى ثعبان مبين عندما كان يطرحها على الأرض.

والثانية: إخراج يده برصاء كالثلج إذا أدخلها إلى عبه، ثم أخرجها منه. والصواب الذي صرح القرآن به، أن إعطاءه الآيتين كان بدون طلب من موسى عليه السلام، فالله تبارك وتعالى ابتدأ موسى بسؤاله عما يحمله في يده، فلما أجابه بأنها عصاه، أمره بإلقائها، فألقاها فتحولت إلى حيّة تسعى، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه:١٧-٢١].

وقوله: أهش بها على غنمي، أي أضرب بها أغصان الشجر، فيتساقط الورق، فتأكل الغنم منه، وسيرتها الأولى: أي نعيدها عصاً كما كانت أولاً.

وذكر لنا ربنا في موضع آخر أنه عندما ألقى عصاه تحولت إلى أفعى تهتز كأنها جان، والجان هنا نوع من الأفاعي سريع الحركة والاضطراب، عند ذلك ولى موسى عليه السلام مدبراً، ولم يعقب، فناداه ربه قائلاً له: لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل:١٠]. وقوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يلتفت وراءه، وقال الله في موضع ثالث: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص:٣١].

إن هذا الجانب من القصة في التوراة يذكر أن موسى عندما سأله ربه عما في يده، أجاب: هي عصاي، ولم يزد على ذلك، بينما قال في القرآن: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨]. وذكرت التوراة

أن الله أمر موسى عليه السلام أن يطرح العصا إلى الأرض، فطرحها إلى الأرض، فصارت حية، فهرب موسى منها، فقال له الرب: مدّ يدك وأمسك بذنبها.

ولم تذكر التوراة أن العصا عندما تحولت إلى أفعى أخذت تهتز كأنها جان، وذكرت التوراة أن موسى خاف، وأنه هرب منها، ولكن القرآن بيّن لنا أن هروبه كان هروباً غاية في القوة، قال الله فيه: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

وذكرت التوراة أن الله أمره أن يمسك بذنبها، ولم تذكر ما ذكره القرآن أن الله قال لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص:٣١]، وقال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل:١٠].

أما الآية الثانية التي ذكرتها التوراة أنه كان يدخل يده في عبّه، ثم يخرجها فتصبح برصاء مثل الثلج، فهذا تعبير غير سديد، فقد أخبرنا ربنا في القرآن أنه كان يدخل يده في جيبه، فتخرج بيضاء من غير سوء، قال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص:٣٢]. وقال في آية أخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢]. وقد صرحت الآيتان بأن يد موسى كانت تخرج من جيبه بعد إدخالها فيه بيضاء من غير سوء، أي: من غير آفة بها، والبرص آفة من الآفات، فليس صحيحاً ما ذكرته التوراة أن يد موسى كانت تخرج برصاء مثل الثلج.

وما ذكرته التوراة أن الله أمر موسى أن يمسك بذنبها، الله أعلم بمدى صحته، فالقرآن ذكر أن الله أمره أن يأخذها، ولم يحدد لنا موضع أخذه بها.

وما ذكرته التوراة من أن جميع الذي يريدون قتل موسى في مصر ماتوا في المدة التي غاب فيها عن مصر غير صحيحة، ففرعون الذي هرب موسى من وجهه، هو فرعون الذي أرسل إليه موسى كما سيأتي معنا.

٣٠ـ أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون:

تذكر التوراة أن الله بعد أن أوحى لموسى ما أوحى أمر موسى أن يذهب لفرعون ويقول له: إن إسرائيل ابنه البكر، وبما أن فرعون رفض إطلاقه فإنه سيقتل ابن فرعون البكر، وتذكر التوراة أيضاً أن الرب التقى موسى في طريق عودته وأراد قتله، فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها فانفك عنه، حينئذ قالت: «عريس دم من أجل الختان».

وتذكر التوراة أن الله أمر هارون أن يخرج إلى البرية لاستقبال موسى، فخرج واستقبله عند جبل الله، وأخبر موسى هارون بجميع ما أرسله الله به، وجمع موسى وهارون جميع شيوخ بني إسرائيل، وأروهم الآيات، فآمن الشعب، ولما سمعوا أن الله افتدى بني إسرائيل، ونظر إلى مذلتهم خرُّوا وسجدوا [سفر الخروج، الإصحاح الرابع: ٢٢-٣١].

وما ذكرته التوراة أن الله أمر موسى أن ينطلق إلى فرعون فهذا صحيح لا شك فيه، أما أنه قال له: إنه سيقتل ولده البكر في اللقاء الأول فهو بعيد عن الصواب، فموسى لم يبلغ فرعون بعد حتى يواجهه بمثل هذا. ولا شك أن ما ذكرته التوراة من إرادة الله قتل موسى بسبب عدم ختانه لولده فمما افتراه الذين حرفوا التوراة على الله وعلى موسى عليه السلام، وما كان للنبي العظيم أن يعصي الله، ليستحق القتل.

وما ذكرته التوراة من أمر هارون أن يخرج لاستقبال موسى الله أعلم بمدى صحته، فإن كان صحيحاً فلا يمكن أن ينتظر موسى عند الجبل إلى أن يأتي هارون، وإنما يكون التقاه في بعض الطريق.

أما أن موسى حدَّث هارون بما أوحاه الله إليه بعد لقائه به، فهذا صحيح لا شك فيه، أما اجتماع موسى وهارون ببني إسرائيل واطلاعهم على الآيات فهذا محتمل.

٣١ـ النصوص القرآنية الآمرة لموسى أن يذهب إلى فرعون:

النصوص القرآنية التي أمرت موسى بالانطلاق إلى فرعون ومطالبته بإطلاق بني إسرائيل كثيرة.

فالقرآن يذكر أن الله بعد أن عرَّف موسى بنفسه، وأمره بعبادته وحده لا شريك له، وأراه آيتين عظيمتين، أمره أن ينطلق إلى فرعون ويدعوه إلى أن يطلق معه بني إسرائيل، قال تبارك وتعالى لموسى بعد أن أراه الآيتين ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤] وقال في موضع آخر ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢] وقال لموسى أيضاً: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ﴾ [القصص:٣٢]. وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء:١٠-١١].

وقال لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

٣٢ـ أمر الله موسى وهارون أن يخاطبا فرعون بالحسنى:

أمر الله تبارك وتعالى موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون، ويحسنا مخاطبته، ويقولا له قولاً ليناً ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤] وهذا منهج أصيل في الدعوة إلى الله ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل:١٢٥] وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقد خاطباه كما أمرهما الله - تبارك وتعالى - وقالا له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧].

٣٣ـ ما قاله موسى لربه عندما أرسله الله لفرعون:

ما ذكرته التوراة مما أجاب به موسى ربه عندما طلب منه أن يذهب إلى فرعون لا يليق بموسى الرسول المخبت المتبتل، ولعل هذه الصيغة مما لم يحسن مترجمو التوراة ترجمته، جاء في التوراة «١٠فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ». ١١فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ ١٢فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ». ١٣فَقَالَ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَرْسِلْ بِيَدِ مَنْ تُرْسِلُ». ١٤فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى مُوسَى وَقَالَ: أَلَيْسَ هَارُونُ اللاَّوِيُّ أَخَاكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ يَتَكَلَّمُ، وَأَيْضًا هَا هُوَ خَارِجٌ لاسْتِقْبَالِكَ. فَحِينَمَا يَرَاكَ يَفْرَحُ بِقَلْبِهِ، ١٥فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعَلِّمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ. ١٦وَهُوَ يُكَلِّمُ الشَّعْبَ عَنْكَ. وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا. ١٧وَتَأْخُذُ فِي يَدِكَ هذِهِ الْعَصَا الَّتِي تَصْنَعُ بِهَا الآيَاتِ» [سفر الخروج، الإصحاح الرابع: ١٠-١٧].

أفيليق أن يخاطب موسى ربنا عزَّ وجلَّ بقوله: «استمع أيها السيد»؟ وهل يليق أن يقول له: «أرسل من ترسل» إن ما جاء به القرآن مما ذكره من تواضع موسى وتذلله هو اللائق بمخاطبة موسى ﷺ ربَّه العظيم الحليم الكريم.

٣٤ـ ماذا سأل موسى ﷺ ربه تبارك وتعالى:

حدثنا القرآن أنه عندما أمر الله موسى قائلاً: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤] نادى ربَّه - تبارك وتعالى - سائلاً إياه أن يهبه ما يعينه على المهمة التي كلفه بها، ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٥-٢٨] هذه الدعوات دعا بها موسى ﷺ ربَّه لنفسه، دعاه أن يشرح له صدره، وييسر له أمره، ودعاه أن يحلّ عقدة من لسانه، حتى يستطيع أن يبلغ الحقَّ الذي أرسل به.

وكان موسى عليه السلام يضيق صدره إذا خوصم، فلا يستطيع الكلام ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء:١٣].

والأمر الثاني الذي طلبه ليكون عوناً له على إبلاغ ما كلَّفه الله به أن يجعل له وزيراً من أهله، وهو هارون أخوه، كي يشدَّ من أزره، ويشركه في أمره قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٩-٣٥]. وقد أجاب الله دعاءه، قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦].

وطلب من ربّه أن يرسل هارون معه، لكونه أفصح لساناً منه، ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤]. فأجاب الله دعاءه و﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥] وأخبره بأنه سيجعل لهما سلطاناً، فلا يستطيع فرعون وملؤه أن يصلوا إليهما لما أعطاهما الله من آياته ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٥].

٢٥- موسى وهارون يصلان إلى فرعون طاغية عصره:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن موسى وهارون انطلقا إلى فرعون وأبلغاه أنهما رسول رب العالمين، وطلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

فما كان من فرعون إلا أن امتنّ على موسى بتربيته له في قصره الفترة الأولى من عمره، وكيف أنه أساء إليه وإلى قومه عندما قتل واحداً منهم، فكفر النعمة التي أنعم بها عليه، وكفر الإحسان الذي أحسن به إليه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء:١٨-

١٩]. وهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن فرعون هذا الذي بعث إليه موسى هو الفرعون الذي فرَّ منه موسى، لقوله له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨] لا كما تقول التوراة، إن فرعون الذي فرّ منه موسى مات في الفترة التي كان فيها موسى في مدين.

وقد أجاب موسى عليه السلام فأحسن الجواب، لم يكابر، بل اعترف بخطئه في قتله للرجل الذي قتله، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء:٢٠] أي: فعلتها قبل أن أكون نبياً رسولاً، ففرت منكم خوفاً على نفسي، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء:٢١].

ثم انتقل نبي الله موسى من الدفاع إلى الهجوم قائلاً لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢] يقول لفرعون: تذكر يا فرعون نعمتك عليَّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، بينما أنت قد عبدت شعباً كاملاً لسخطك وأهوائك.

٣٦ـ موسى يظهر لفرعون الآيات الدالة على صدقه:

عندما جاء موسى فرعون ودعاه إلى ربه، وطالبه بأن يرسل معه بني إسرائيل، وحاور فرعون موسى في ربه، وانتهى به الأمر إلى تهديده بالسجن إن اتخذ إلهاً غيره ربّاً، فجاء موسى فرعون بالآيات العظيمة الدالة على صدقه، ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٢٩-٣٣].

«وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذي بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان

مبين، أي: عظيم الشكل، بديع في الضخامة والهول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه، أخذه رهب شديد وخوف عظيم.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها، وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى.

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله -بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة. فأرسل يجمعهم من سائر مملكته، ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته.. ولله الحمد والمنّة» [قصص الأنبياء: ص٣٠٤].

٣٧ـ تأييد الله موسى بالآيات البينات التي أنزلها الله بفرعون وقومه:

أرى الله - تبارك وتعالى - فرعون العصا التي تتحول إلى ثعبان مبين عندما يطرحها إلى الأرض، وأراه يده عندما يدخلها في جيبه، فتصبح بيضاء للناظرين، وتذكر التوراة أن موسى ضرب بعصاه ماء النهر فتحول إلى دم، ومات السمك في الماء، وكذلك وقع لجميع مياه المصريين من الأنهار والسواقي والآجام [سفر الخروج، الإصحاح السابع]. وعندما أبى فرعون أن يستجيب إلى ما دعاه إليه موسى ضرب بعصاه الأنهار والسواقي والآجام ففاضت كلها بالضفادع، ودخلت الضفادع إلى البيوت والمخادع والسرر، وطلب فرعون من موسى وهارون أن يرفعا الضفادع عنه وعن شعبه، ليطلق الشعب، ولكنه لم يفعل.

وتذكر التوراة أن موسى ضرب الأرض فامتلأت بعوضاً، ثم ضربها أخرى فامتلأت ذباباً [سفر الخروج، الإصحاح الثامن].

وضرب موسى بعصاه فماتت مواشي المصريين من الخيل والحمير والجِمال والبقر والغنم بما أرسله الله عليها من الأوبئة، ولم يمت شيء مما للعبرانيين، ولما لم

يستجب فرعون أمر الله موسى وهارون أن يأخذا من رماد الأتون فيذريه موسى نحو السماء أمام فرعون فانتشرت الدمامل بثوراً طالعة في الناس وفي البهائم.

ولما لم يستجيب فرعون أمر الله موسى أن يمدَّ يده نحو السماء، فنزل البرد والثلج والأمطار الهائلة الشديدة على أرض مصر، وفسدت المزروعات، ووعد فرعون موسى وهارون بإطلاق بني إسرائيل إن انقطع المطر والرعود والبروق والثلج، ولكنه أخلف وعده بعد ذلك [سفر الخروج، الإصحاح التاسع].

ثم ضرب الله مصر بالجراد الذي ملأ السهل والجبل، وغطى وجه الأرض، وملأ البيوت، ولم يكن قبله مثله، ولن يكن بعده مثله، فوعد فرعون بإطلاق بني إسرائيل، فلما زال الجراد نكث بوعده.

ثم مد موسى يده على أرض مصر فوقع الظلام على تلك الأرض مدة ثلاثة أيام، لا يبصر أحد أخاه، أما بنو إسرائيل فكان لهم نور في مساكنهم، فأذن فرعون لموسى أن يخرج ببني إسرائيل، ولكن من غير الحيوانات، فأبى موسى، ثم نكث فرعون بوعده، فلم يطلقهم [سفر الخروج، الإصحاح العاشر].

وقد ذكرت فيما سبق أن القرآن حدد الآيات التي أرسلها على قوم فرعون وقومه كانت تسعاً، وهي العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وقد زادت التوراة في الآيات إرسال البعوض والذباب وإيقاع الدمامل وإحلال الظلام، وأنقصت ذكر القمل.

وقد أجملت النصوص القرآنية ذكر ما وقع من آيات على يد موسى في فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

وأخبرنا ربنا في موضع آخر أن فرعون وقومه طلبوا من موسى عليه السلام عندما كان يقع بهم العذاب بسبب الآيات التي ينزلها الله بهم أن يدعو الله لهم، ليرفع ما بهم، فإذا رفع الله عنهم العذاب فإنهم كانوا ينكثون في عهودهم ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) ﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٥].

وذكر لنا ربنا في موضع ثالث أن فرعون وقومه كانوا يضحكون من الآيات التي أنزلها الله إليهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) ﴾ [الزخرف:٤٧].

وأخبرنا كيف أرسل الآيات عليهم، فالآية اللاحقة تكون أكبر من الآية السابقة ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾ [الزخرف:٤٨]. وذكر لنا ربنا - تبارك وتعالى - أن فرعون وقومه كانوا يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو ربه ليرفع عنهم ما حلَّ بهم، فعندما يرفع العذاب عنهم يرجعون إلى مسيرتهم، وينكثون عهودهم معه.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾ [الزخرف:٤٩-٥٠].

وقد أخبرنا ربنا - عز وجل - أن فرعون وقومه مع تكذيبهم بالآيات التي أنزلت إليهم وجحدوهم بها، إلا أنهم في قرارة قلوبهم كانوا يعلمون أنها حق منزلة من عند الله العليم الخبير، فكان تكذيبهم ليس بسبب جهلهم، وإنما لظلمهم واستكبارهم وعلوهم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾ [النمل:١٤].

٢٨ـ ما وقع بين موسى وفرعون من المحاجة والمناظرة:

وصل موسى وهارون إلى مجلس فرعون، وقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء:١٦] وطالباه أن يرسل معهما بني إسرائيل ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء:١٧].

وتذكر التوراة أن موسى ذهب إلى فرعون وقال له: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعَيِّدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ. ٢فَقَالَ فِرْعَوْنُ: مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ» [سفر الخروج، الإصحاح الخامس: ١-٢].

وهذه المحاورة التي وقعت بين موسى وفرعون محاورة مبتورة ناقصة، وقد جاء هذا الحور كاملاً في القرآن، وقد ذكر القرآن أن فرعون طلب من موسى وهارون أن يعرفاه برب العالمين الذي أرسلهما ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣] فعرَّف موسى ربه بأنه رب السموات والأرض وما بينهما، أي: خالقهما ومبدعهما وخالق ما بينهما ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:٢٤].

فالتفت فرعون إلى من حوله معجباً إياهم مما قاله موسى ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء:٢٥] فزاد موسى الأمر وضوحاً في التعريف بالله ربه ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء:٢٦].

عند ذلك لجأ فرعون ليجبر عجزه عن الحجاج والخصام إلى رمي موسى بالجنون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٧] فلم يلتفت موسى إلى قول فرعون الذي أراد أن يخرج به موسى عن الحوار الجاد إلى المهاترات، ومضى موسى يعرف بالله ربه، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨].

فلما انقطع فرعون عن الحجاج واستنفذ كل ما عنده لجأ إلى التهديد والوعيد، وتهدد موسى بالسجن ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩].

وذكر لنا ربنا - عز وجل - حواراً آخر جرى بين موسى وفرعون، فقد سأل فرعون موسى ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [طه:٤٩] فأخبره أن ربه هو الذي خلق كل شيء، ثم هداه إلى التصرف المناسب لذلك الخلق، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٥٠] عند ذلك سأله موسى عن القرون السابقة الذين عبدوا آلهة شتى من دون الله ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [طه:٥١] فأخبره بأن الله تبارك وتعالى أحصى على تلك الأمم أعمالها، وسيحاسبها ربها عما كان منها ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه:٥٢].

ثم انطلق موسى يعرف بربه الذي سأله عنه فرعون، ويعرف بأفعاله الدالة عليه ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٣-٥٥].

وهناك بعض التفصيلات وردت في التوراة جرت لبني إسرائيل في تلك الفترة أعرضت عن ذكرها لعدم ذكر القرآن لشيء منها، فالله أعلم بمدى صحتها.

٣٩ـ المواجهة بين موسى وبين السحرة:

ذكرت التوراة المواجهة التي جرت بين موسى والسحرة بإيجاز شديد، جاء فيها: «٨وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلاً: ٩«إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائِلاً: هَاتِيَا عَجِيبَةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا». ١٠فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلاَ هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا. ١١فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ

عَرَّافُو مِصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذلِكَ. ١٢ طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثَعَابِينَ. وَلكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ. ١٣ فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ» [سفر الخروج، الإصحاح السابع: ٨-١٣].

وقد أطال القرآن في عرض هذه المواجهة التي حضَّر لها فرعون بكل ما أوتي من قوة، وليس بصحيح ما ذكرته التوراة أن موسى أمر هارون أن يطرح العصا أمام فرعون، فقد أخبرنا ربنا في غير ما آية أن الذي طرح العصا هو موسى عليه السلام.

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن الحوار الذي وقع بين فرعون وموسى عندما سأل فرعون موسى عن ربه، وانتهى ذلك الحوار بتهديد فرعون موسى بالسجن، عند ذلك قال موسى لفرعون: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء:٣٠].

أي أإذا جئتك ببينة تدلُّ على صدقي أتسجنني؟ فقال له فرعون عند ذلك: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣١-٣٣].

عند ذلك التفت فرعون إلى مستشاريه قائلاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥]. فأشاروا عليه و﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:٣٦-٣٧].

وقال الله - عز من قائل - في سورة طه حاكياً قول فرعون: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه:٥٧-٥٨] وطلب فرعون من موسى أن يختار اليوم الذي تقع فيه المواجهة، فحدد موسى يوم الزينة، وهو يوم عيد من أعيادهم، وطلب أن تكون المواجهة في وقت الضحى.

طلب موسى أن تكون المواجهة في يوم العيد الذي يتوقف فيه الناس عن العمل، فيكون احتمال حضور جمع كبير من الناس وارداً، وتكون المواجهة في أشد

ساعات النهار وضوحاً، لتقوم الحجة على جميع من حضر من الناس، ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾ [طه:٥٨-٥٩].

٤٠. كيف جرت المواجهة بين موسى والسحرة:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن فرعون استدعى السحرة لمواجهة موسى ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ [طه:٦٠]. أي ذهب فرعون وجميع السحرة، وكانت بلاد مصر في تلك الأيام مملوءة بالسحرة، فجمع لفرعون عدد كبير من كبارهم، ودعا الناس إلى حضور هذه لمواجهة، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن السحرة لما حضروا بين يدي فرعون طلبوا منه أن يجزل لهم العطاء، فوعدهم بالأجر الجزيل، كما وعدهم بأن يكونوا من المقربين عنده ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾ [الشعراء:٤١-٤٢].

جاء يوم الزينة، وأعدّ فرعون ساحة المواجهة وميدانها، وجاءت جموع السحرة يحملون حبالهم وعصيهم، وجاء فرعون وجنده، وحشر الناس من مختلف البقاع والأصقاع، وابتدأ موسى عليه السلام المواجهة الكلامية مع السحرة، فقد أنذرهم وحذرهم وخوّفهم، و﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه:٦١] لقد حذر موسى السحرة أن يقفوا في وجه آياته وحججه وبراهينه بسحرهم وأباطيلهم وترهاتهم، عند ذلك اختلفوا وتنازعوا فيما بينهم، وأسروا النجوى، أي: تحدثوا حديثاً خافتاً فيما بينهم، ولكن العزيز الحكيم يعلم السر وأخفى، علم ما تسارّوا به ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ

﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه:٦٢-٦٤].

لقد اختلف السحرة فيما بينهم، فلعل بعضهم قال: هذا كلام نبي وليس بكلام ساحر، وبعضهم قال: هذان ساحران عليمان متقنان لصنعة السحر، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما، ويحظيان بالمكانة عند الملك وحاشيته، ولا يبقيان لكم مكانة عند حكام البلاد، وطلب بعضهم من بعض أن يتعاضدوا ويتعاونوا ويتحدوا فيما بينهم، ويأتوا صفاً واحداً، وقالوا: وقد أفلح اليوم من استعلى.

٤١ـ السحرة يخيرون موسى فيمن يكون البادئ:

لما عزم السحرة على مواجهة موسى وأخاه، خيروا موسى ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه:٦٥].

واختار موسى أن يكون السحرة هم البادئين ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه:٦٦]. فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خيل إلى موسى أن تلك العصي والحبال تتحرك وتسعى، فتسرب الخوف إلى قلب موسى، فأوحى الله إليه بأن لا يخاف، وأنه سيكون الأعلى، وأمره بإلقاء عصاه ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٦-٦٩].

إن الذي جاء به السحرة خدع وصناعة، أما الذي جاء به موسى عليه السلام فمعجزة إلهية ربانية، ألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان عظيم من لحم ودم، وتوجهت هذه الأفعى إلى تلك العصي وتلك الحبال المزورة الباطلة، وأخذت تبتلعها بسرعة عظيمة، ويدل على هذه السرعة قوله: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ فما صنعوه كيد ساحر، والساحر لا يفلح حيث أتى، ونظر الناس إلى الميدان، فوجدوا الميدان خالياً إلا من أفعى موسى، أما صناعة السحرة فزالت وتلاشت.

ونظر السحرة إلى ما جرى فعلموا أن هذا الذي فعلته عصا موسى ليس سحراً، وهم أعلم الناس بحدود ما يقدر الساحر عليه، ولذلك لم يملكوا إلا أن يخروا ساجدين لله رب العالمين رب موسى وهارون ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه:٧٠].

٤٢- فرعون يتهدد السحرة الذين خروا ساجدين لرب العالمين:

عند ذلك صبَّ فرعون جام غضبه على السحرة، ليردع الناس عن الإيمان، فتهددهم وتوعدهم لإيمانهم من غير إذنه، فكل شيء عنده يحتاج إلى إذن، حتى الإيمان بالله، واتهم السحرة بأن ما كان منهم هو مؤامرة تمت بينهم وبين موسى، وتهددهم إن لم يرجعوا عن إيمانهم أن بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف يكون بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى، وتهددهم بأن يصلبهم على جذوع النخل، ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه:٧١].

وهذا الذي قاله فرعون كذب وافتراء، فالسحرة لم يكونوا قد التقوا بموسى من قبل حتى يتآمروا معه على نصره وتأييده، والسحرة عندما جاؤوا إلى فرعون كانوا راغبين في نصره وتأييده، وطلبوا منه أن يجزل لهم الأجر إن كانوا هم الغالبين، فوعدهم بالأجر الكبير إن هم انتصروا على موسى، وعندما تهدد موسى السحرة قبل النزال والمواجهة تحاوروا فيما بينهم، واختلفوا، ثم تعاضدوا وأصبحوا على قلب رجل واحد في العزم على مواجهة موسى وأخيه، لقد كان فرعون يعلم أن ما نطق به باطل من القول والزور، ولكنه تهويش ليمنع الناس أن يتابعوا السحرة في استجابتهم لموسى.

٤٣- ثبات السحرة المؤمنين وعدم تأثرهم بتهديد فرعون:

ولكن هذا التهديد والوعيد الشديد لم يكن له أثر في نفوس السحرة، لقد دخل الإيمان في قلوبهم، وانسكب في نفوسهم، فأصبح الإيمان عندهم ثميناً، وثميناً جداً،

وهم على استعداد إلى أن يلاقوا أشد العذاب، ولا يتنازلون عن دينهم ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه:٧٢-٧٧].

وهكذا يفعل الإيمان بالنفوس، فبينما هم جاهدون في تسخير أنفسهم للفرعون، فلما دخل الإيمان قلوبهم خروا ساجدين لرب العالمين، ولم يعبؤوا بتهديد الطاغية الكبير، فالله خير وأبقى.

٤٤ـ اشتداد المواجهة بين موسى وفرعون:

اشتدت المواجهة بين موسى وفرعون، وعاد فرعون لقتل الأطفال الذكور من أولاد بني إسرائيل عند ولادتهم، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٧]، وقال الله في موضع آخر متحدثاً عن هذه الواقعة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ [غافر:٢٥].

وبلغ الأمر مداه عندما طلب فرعون من زبانيته أن يأذنوا له بقتل موسى، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر:٢٦].

وقد التجأ موسى عليه السلام إلى الله يحتمي به من هذا الرجل الطاغية المتكبر الذي لا يؤمن بيوم الحساب ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر:٢٧].

٤٥- بروز الأمير المؤمن من آل فرعون في المجلس الفرعوني الأعلى:

لما اشتد الأمر بين موسى وفرعون وبحث هذا الموضوع في المجلس الفرعوني الأعلى، وأخبر مستشاريه أنه سيقتل أبناء الإسرائيليين الذكور ويستحيي نساءَهم، وطلب ممن حوله أن يأذنوا له بقتل موسى، هناك برز أمير مؤمن من أمراء الأسرة الحاكمة حذر قومه مما يريده فرعون من قتل موسى، وحاور أعضاء ذلك المجلس أحسن الحوار، وحذرهم وخوفهم مما هم مقدمون عليه.

وقال هذا الرجل المؤمن من آل فرعون منكراً على الملأ من قومه أن يقتلوا رجلاً لأنه يقول ربي الله، يريد به موسى ﷺ، وجاءهم بالبينات من الله، أي جاءَهم بالمعجزات الظاهرات الواضحات كالعصا التي تصبح ثعباناً مبيناً عندما يلقيها، واليد التي تخرج بيضاء للناظرين عندما يخرجها من جيبه. وقال لهم: إن كان كاذباً فيما يدعيه فكذبه على نفسه، وإن كان صادقاً فيما يخبر من النبوة والرسالة، فسيصيبكم بعض الذي يتوعدكم به ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٨] ونادى هذا المؤمن بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ [غافر:٢٩] لعلهم يحسنون الاستماع إليه فيما يخاطبهم به قائلاً لهم: لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض، أي حاكمين على الناس، عالين عليهم، فمن ينصرنا من عذاب الله إن جاءَنا وأحاط بنا، فقال فرعون مجيباً هذا الصوت الصادق التقي: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

وهذا هو الاستبداد والطغيان، فهو يريدهم أن يكونوا على مثل ما هو عليه، وهذا هو سبيل الرشاد عنده، وبئس الرأي ما رآه ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر:٢٩]. ويدلُّ على كذب فرعون فيما ادعاه أنه في قرارة نفسه

يعلم أن موسى على حقٍّ، وأن ما جاء به من الآيات هو من عند الله، وهو حقٌّ وصدق، قال موسى لفرعون، وهو صادق فيما قاله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وفرعون كاذب فيما يدعيه أنه يهدي قومه لسبيل الرشاد، فلا كفر أشد من كفره، ولا ضلال أعظم من ضلاله، فهو قد ادعى الألوهية، وادعى أنه رب الناس الأعلى، فهو على ضلال وسفه وخبال.

وخاطب ذلك الأمير الذي يكتم إيمانه محذراً قومه من عذاب الله الذي إذا حلّ بقوم فقد خابوا وخسروا وساء صباحهم، حذَّرهم أن يحلّ اللهُ بهم مثل ما أحله بقوم نوح أو عاد أو ثمود والأمم التي من بعدهم، وإذا أحل بهم الله عذابه، فلا يكون لهم ظالماً، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣٠-٣١].

وحذر هذا الذي يكتم إيمانه قومه من عذاب الله في يوم القيامة، وهو الذي سماه بيوم التناد، أي يوم الفرار ولكن كيف يفرون، وعذاب الله بهم محيط؟ وفي ذلك اليوم يولي الكفرة المجرمون مدبرين ما لهم من الله من عاصم، أي: لا حامي يحميهم من عذاب الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر:٣٣].

وذكرهم صاحبهم المؤمن بمجيء نبي الله يوسف ﷺ من قبل بالبينات، فلم يزالوا في شكٍّ مما جاءَهم به، حتى إذا توفاه الله، قالوا لن يبعث الله من بعده رسولاً: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر:٣٤].

لقد نصح هذا المؤمن قومه وفيهم فرعون، وقد أخلص لهم النصح، حتى كاد أن يصرح بإيمانه إن لم يكن صرح، ولكن كلمة الحق لم يبق لها موضع عند قوم غشى قلوبهم الضلال.

وتابع الأمير الذي كان يكتم إيمانه حديثه مع قومه داعياً إياهم أن يتبعوه، فيهديهم إلى سبيل الرشاد، وقال لهم: يا قوم إنما هذه الدنيا متاع، أي شيء يتمتع به ثم يزول، والآخرة هي دار القرار، أي التي يقر فيها المؤمنون في الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر:٣٨-٣٩].

ثم قارن بين حاله وحالهم ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر:٤١-٤٣].

قال لهم مصرحاً ومبصراً وهادياً: أنا أدعوكم إلى النجاة من النار، وأنتم تدعونني لأدخل النار، أنتم تدعونني لأكفر بالله، وأشرك به ما لا يقوم دليل على صحة عبادته، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالله العزيز الغفار، وقال لهم: لا جرم أنما تدعونني إليه، والذي يدعونه إليه الإيمان بربوبية فرعون وألوهيته، وفرعون لا يملك دعوة صحيحة لا في الدنيا ولا في الآخرة، فدنياه زائلة فانية، وقدراته محددة، وهو محكوم عليه في أخراه، وهو يساق إلى النار سوقاً، ويدع إليها دعاً.

وسلم هذا المؤمن بعدما صرح بإيمانه أمره لله الواحد الأحد ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر:٤٤] وحاول فرعون وآله الإيقاع بهذا الرجل المؤمن، فحماه الله منهم، وأحاط العذاب بآل فرعون ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر:٤٥].

٤٦- إهلاك الله فرعون وقومه:

لقد طغى فرعون وبغى، واستطال ظلمه، وكثرت بلاياه، ولكل ظالم نهاية، وقد قال موسى عليه السلام لقومه عندما انتفش فرعون وقومه، واستكبروا في الأرض ﴿ وَقَالَ

مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

ولما رأى موسى مدى ضلال فرعون، وشدّة كفره، دعا عليه وعلى قومه حتى لا يؤمنوا إلا إذا رأوا العذاب الأليم ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

٤٧- استخف فرعون قومه فأطاعوه:

اعتز فرعون بالعرض الدنيوي الذي آتاه الله إياه، وافتخر به أمام قومه، واستهان فرعون بموسى وحقّره، وطالبه أن يأتي بالمال العظيم، أو يأتي بالملائكة مقترنين، كل ذلك وقومه يتابعونه ويسيرون وراءه، حتى أهلكه الله وأهلكهم، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف:٥١-٥٥].

٤٨- تهويش فرعون بأمره وزيره هامان ببناء صرح عالٍ يصعد فيه ليطلع إلى إله موسى:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن طاغية مصر أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً عالياً ليصعد فيه، فيطلع إلى إله موسى عليه السلام، ليدلل على كذب موسى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

وقال الله في موضع آخر مبيناً أن فرعون قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

إن صغار طلبة المدارس اليوم عندما يقرؤون ما طلبه فرعون من وزيره هامان يعلمون أن فرعون كان يستخفُّ بأحلام الناس، ويسخر بهم، فالمسافة التي يمكن أن يرتفع بها هامان لا تأتي عشر معشار نقطة في بحر عظيم من المسافة بيننا وبين الكواكب التي تزين السماء الدنيا، ولكنه التهويش والتضليل من فرعون لقومه. لقد أراد أن يضحك بعقول الناس في إرادته الوصول إلى السماوات العلى ليطلع إلى إله موسى، وهناك يثبت للناس أنه لا إله.

٤٩ـ خروج بني إسرائيل من مصر كما تذكره التوراة:

أمر الله بني إسرائيل أن يخرجوا مع موسى من مصر، وذكرت التوراة أن بني إسرائيل خرجوا من مصر في نحو ستمائة ألف من الرجال عدا الأولاد بعد أن أقاموا في مصر أربعمائة وثلاثين سنة [سفر الخروج، الإصحاح الثاني عشر: ٣٧-٤٠].

وكان خروجهم في اليوم العاشر من شهر أبيب، وأمر الله بني إسرائيل أن يذكروا هذا اليوم الذي أخرجهم فيه من مصر من بيت العبودية، وقد وجد الرسول ﷺ اليهود في المدينة المنورة عندما هاجر إليها يصومون يوم العاشر من محرم، وعندما سألهم عن سبب ذلك، قالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم فرعون، فقال أنا أولى بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه [البخاري: ٢٠٠٤، مسلم: ١١٣٠].

وأخذ موسى معه عظام نبي الله يوسف، لأنه كان استحلف بني إسرائيل أن يصعدوا عظامه معهم، وذكرت التوراة أن الربُّ كان يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا ليلاً ونهاراً [سفر الخروج، الإصحاح الثالث عشر: ٥، ١٩، ٢١].

وذكرت التوراة أن بني إسرائيل طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وأعارهم المصريون ما طلبوه منهم، وتذكر التوراة أن الله ضرب كل بكر في أرض مصر في تلك الليلة، فكان صراخ عظيم في مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت، وعند ذلك خرج بنو إسرائيل من مصر، تاركين المصريين مشغولين بموتاهم [سفر الخروج، الإصحاح الثاني عشر: ٢٩، ٣٥].

ولما علم فرعون خروج بني إسرائيل خرج بجنوده وراءَهم، واقترب فرعون من بني إسرائيل، ونظر بنو إسرائيل وراءَهم فرأوا فرعون وقومه، ففزعوا، وظنوا أن فرعون سيبطش بهم، وأمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر، ودخله بنو إسرائيل، وانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءَهم، ودخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل، وأراد المصريون أن يهربوا لأن الرب يقاتل معهم، فأمر الله موسى أن يمد يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقائه، فدفع الله المصريين في وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءَهم في البحر، ولم يبقَ منهم أحد، وأما بنو إسرائيل فمشوا في اليابسة في وسط البحر، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، فأنجى الله بني إسرائيل، وأهلك فرعون وقومه [سفر الخروج، الإصحاح الرابع عشر].

وتذكر التوراة أن موسى وبني إسرائيل رنموا للرب بتسبيحه، أثنوا بها على ربهم بسبب إنجائهم بالطريق الذي شقّه لهم في البحر، وبسبب إهلاكه لفرعون وقومه، وتذكر التوراة أن مريم النبية أخت هارون أخذت الدف بيدها، وخرجت وجميع النساء وراءَها بدفوف ورقص [سفر الخروج، الإصحاح الخامس عشر].

٥٠ـ قصة خروج بني إسرائيل في القرآن:

ذكر القرآن قصة خروج بني إسرائيل من مصر، وأخبرنا ربنا أنه أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل في الليل، ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

[الشعراء:٥٤] وأخبرنا أن فرعون لما علم بخروجهم أرسل وراء الناس، فجمع جيشاً كبيراً ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الشعراء:٥٣-٥٦] وأخبرنا ربنا أنه أخرج قوم فرعون من تلك الديار وذلك النعيم ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الشعراء:٥٨-٥٩].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن فرعون أدرك موسى وقومه على شاطئ البحر عند طلوع الشمس، ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء:٦٠] فلما تراءى الجمعان، جزم أصحاب موسى بأن فرعون مدركهم، وقاضٍ عليهم، فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم، وأين المفر ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء:٦١] فقال موسى على الفور: كلا، لن يدركنا فرعون، والله معنا، وهو ناصرنا، ولن يكلنا إلى عدونا ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢].

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء:٦٣].

وأخبرنا ربنا في موضع آخر أن البحر انفلق عن طريق يابس ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه:٧٧].

ودخل بنو إسرائيل في ذلك الطريق الذي شقه الله لهم في البحر، فنجوا جميعاً ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الشعراء:٦٤-٦٥].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن موسى بعد خروجه من البحر أراد أن يضرب البحر حتى لا يخلص إليه فرعون وجيشه من خلاله، فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يتركه على حاله، فدخل فرعون وقومه في ذلك الطريق، فلما دخلوا فيه كلهم أمر الله

البحر فانطبق عليهم، فأهلكهم جميعاً ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان:٢٤]. وفي هذا تصويب لما في التوراة، أن الله أمر موسى أن يمدَّ يده على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم، فمدَّ موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائم، والمصريون هاربون إلى لقائه [سفر الخروج، الإصحاح الرابع عشر: ٢٦-٢٧].

وأخبرنا ربنا - عز وجل - أن الله أرجع البحر كما كان بعد دخول فرعون وجنده فيه، فغشيت أمواج البحر فرعون وجنده ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [طه:٧٨-٧٩]. وأخبرنا في موضع آخر بانتقامه من فرعون وقومه بإغراقهم في اليم: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

٥١- إيمان فرعون عندما أدركه الغرق:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن فرعون عندما أدركه الغرق آمن بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل، هذا الطاغية المستبد الظالم الذي ادعى زوراً وكذباً أنه رب العالمين ومعبودهم، والذي رفض الاستجابة لرسول الله بعد أن أظهر له الدلائل والآيات، والذي أصرَّ على أن يتبع بني إسرائيل الفارين من ظلمه وإفكه، والذي سفك دماء الأطفال من بني إسرائيل، عندما دخل البحر وراء بني إسرائيل، فانطبق البحر عليه وعلى قومه، عند ذلك خضع وخنع، وعلم أنه عبد ضعيف مربوب مخلوق، فآمن بالله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأسلم دينه لله، ولكن الإيمان بعد نزول العذاب لا ينفع صاحبه، وقد أنجاه الله تبارك وتعالى ليكون لمن خلفه آية، وها قد أخرجت جثته المحنطة في هذا العصر، وقد وقفت على جثته المحنطة يوماً، وقلت: إنه فرعون، نجى الله جثته لنعتبر بها بعد ألوف السنين ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ

﴿إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

٥٢- أورث الله بني إسرائيل الأرض المقدسة:

بعد تلك المذلة التي كان فيها بنو إسرائيل في مصر وبعد أن أغرق الله فرعون وقومه، أورث الله بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين مستذلين مشارق الأرض المباركة ومغاربها، وتمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بصبرهم، ودمر المصانع التي كانت لفرعون وقومه في أرض مصر، ودمر ما كانوا يعرشونه ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٦].

وأنعم الله على بني إسرائيل بنعم كثيرة، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠].

٥٣- مصير فرعون وقومه في يوم القيامة:

أخذ الله فرعون وقومه بالعذاب المهين في الدنيا، وذلك بإغراقهم في البحر، وجعلهم الله في الدنيا دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٤٠-٤٢].

وكما كان يقود فرعون قومه في الدنيا إلى الضلال، فإنه يقودهم في الآخرة إلى النار، وبئس الورد الذي يوردهم إليه، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة بئس

الرفد المرفود ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود:٩٦-٩٩].

سيرة موسى عليه السلام وبني إسرائيل بعد النجاة:

٥٤- إنزال المن والسلوى لبني إسرائيل:

تذكر التوراة أن بني إسرائيل بعد نجاتهم ووصولهم إلى الأرض المقدسة ارتحلوا إلى برية سين فتذمروا بسبب الجوع، فقال الربُّ لموسى: أنا أمطر لكم خبزاً من السماء، فيخرج الشعب ويلتقطون ما يكفيهم لليوم الذي هم فيه، وذكرت التوراة أن الله يعطيهم في المساء لحماً وفي الصباح خبزاً، فأعطاهم في المساء السلوى، وفي الصباح أعطاهم سقيط الندى، وهو شيء دقيق مثل القشور كالجليد على الأرض، ونهاهم موسى أن يبقي أحد منهم من الطعام إلى الصباح، والذين أبقوا من طعامهم إلى الصباح أنتن طعامهم ودوَّد.

وكان الزائد عما يلتقطونه إذا حميت الشمس يذوب، وكانوا يأخذون يوم الجمعة ليومين، لأنه لا ينزل عليهم ذلك الخبز في يوم السبت.

ودعا بنو إسرائيل الخبز الذي يمطرونه مناً، وأكل بنو إسرائيل المنَّ أربعين سنة.

وصدق القرآن ما ذكرته التوراة من إنزال المن والسلوى على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٥٧].

٥٥- استسقى موسى لقومه فأمره الله بضرب الحجر بعصاه:

تذكر التوراة أن الشعب عطش، وطلب من موسى أن يعطوا ماءً ليشربوا، وتذمروا على موسى، فأمر الله موسى أن يأخذ شيوخ بني إسرائيل، ويضرب بعصاه الصخرة التي في حوريب، فيخرج منها الماء [سفر الخروج، الإصحاح السابع عشر: ١-٦].

وقد صدق القرآن هذه الواقعة التي ذكرتها التوراة، وزاد فيها تفصيلات لا وجود لها في التوراة، فقد ذكر القرآن أنه كان ينفجر من الحجر اثنتا عشرة عيناً، أي عدة أسباط بني إسرائيل، لكل سبط عين من العيون، وكان كل سبط يعلم بالعين الخاصة به، فيشرب منها ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٦٠]، ولم يذكر القرآن أن الحجر كان من حوريب.

٥٦ـ عدم صبر بني إسرائيل على طعام واحد:

أخبرنا ربنا - عز وجل - أن بني إسرائيل لم يصبروا على هذا الطعام الفاخر الذي رزقهم الله إياهم، وطلبوا من موسى أن يدعو الله لهم ليخرج لهم مما تنبت الأرض من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، فذمهم نبيهم، لاستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقال هذا الذي طلبتموه موجود في كل مصر من الأمصار، وحيثما طلبتموه تجدونه، وأخبرنا أنه بسبب هذه التصرفات العوجاء ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة:٦١].

٥٧ـ موسى يطلب من الله أن يراه عيانا:

جاء موسى إلى جبل الطور لملاقاة ربه - تبارك وتعالى - ومكث هناك صائماً ثلاثين يوماً، ثم زاده عشراً، فأتمَّ ميقات ربّه أربعين ليلة، ولما كلّمه ربه طلب منه أن يراه، فأخبره أنه لا يستطيع أن يراه، وأخبره أنه سيتجلى للجبل، وطلب منه أن ينظر لما سيحدث للجبل عند تجليه له، فجعل الله الجبل دكاً عندما تجلى له، وخرَّ موسى

صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكࣰّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقࣰاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَـٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد ذكر لنا نبينا ﷺ فضيلة من فضائل موسى في يوم القيامة، فذكر أن الناس يصعقون يوم القيامة، فيكون رسولنا ﷺ أول من تنشقّ الأرض عنه، فيجد موسى قد أفاق آخذاً بقائمة من قوائم عرش الرحمن، قال: فلا أدري أفاق قبلي، أم لم يصعق مجازاة له بصعقة الطور، عن أبي سعيد الخدري قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، جاء يهودي، فقال: يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك، قال: «من؟»، قال: رجل من الأنصار، قال: «ادعوه» فقال: «أضربته؟».

قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ ؟ فأخذتني غضبة، فضربت وجهه، فقال النبي ﷺ : «لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشقُّ الأرض عنه، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، أم حوسب بصعقة الأولى» [البخاري: ٢٤١٢. مسلم: ٢٣٧٤].

٥٨ـ عبادة بني إسرائيل العجل:

ذهب موسى لمقابلة الله كما تذكر التوراة، ولما رأى الشعب موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمعوا إلى هارون، وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن موسى لا نعلم ما أصابه، فطلب منهم أن ينزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائهم وبنيهم وبناتهم، فنزع الشعب ذلك الذهب الذي في آذانهم، وأتوا بها هارون، فصنع منها هارون عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.

وعند ذلك بنى هارون مذبحاً، ونادى وقال: غداً عيد للربّ، فبكروا واصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم

قاموا للعب. وأخبر الرب موسى بما فعله الشعب من بعده، وقال له: اتركني ليحمى غضبي عليهم، وأفنيهم، فتضرع موسى أمام الربّ، وقال له: ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك، فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه[1].

ونزل موسى من الجبل ولوحا الشهادة بيده، وهما مصنوعان صنعة الله. والكتابة كتابة الله، وسمع موسى صوت الغناء، وأبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى، وطرح اللوحين وكسرهما أسفل الجبل، وأخذ العجل الذي صنعوا، وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء، وسقى بني إسرائيل منه.

ووجه الخطاب إلى هارون مؤنباً إياه، فاعتذر بأن بني إسرائيل طلبوا منه ذلك، فصنعه وفق طلبهم من الحلي الذي أعطوه إياه.

ورأى موسى أن الشعب معرًّى، لأن هارون كان عراه للهزء بين مقاوميه، وقال موسى من للرب فليأتي إليَّ، فاجتمع إليه جميع بني لاوي، فأمرهم أن يقتلوا أقرباءَهم وإخوانهم وأصحابهم، ففعلوا وقتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل، ودعا موسى ربه، فضرب الله الشعب، لأنهم عبدوا العجل الذي صنعه هارون [سفر الخروج، الإصحاح الثاني والثلاثون].

٥٩ـ هذه القصة في القرآن:

وقد صدق القرآن أصل هذه القصة، وتحدث عن ضلال بني إسرائيل بعبادتهم العجل في أكثر من موضع، ولكن ما ذكرته التوراة من أن الذي صنع العجل من الذهب هو نبي الله هارون كذب وإفك وافتراء، وهارون نبي رسول،

---

(١) حاشا موسى أن يخاطب بهذه الألفاظ ربه، والله أعلى وأجلّ أن يندم.

والأنبياء معصومون عن الوقوع في مثل هذه المعاصي، وقد برأ الله هارون مما افتراه عليه بنو إسرائيل.

وقد حدد لنا ربنا الوقت الذي اتخذ فيه بنو إسرائيل العجل، وكان ذلك بعد ذهاب موسى لمقابلة ربه، ومكث هناك أربعين ليلة ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة:٥١]. وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنهم صنعوا هذا العجل من حليهم، فكان يخرج منه صوت خوار، وقد بيّن الله أن هذا العجل الجسد لا يصلح لأن يكون إلهاً، فهو لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف:١٤٨].

وقد سأل ربُّ العزة موسى عن السبب الذي أعجله عن قومه، ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه:٨٣] فأخبرنا أنه ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه:٨٤] هناك أخبره ربّه أن قومه ضلوا من بعده، وعيّن له الرجل الذي أضلهم وهو السامري، فهو الذي صنع العجل، وليس نبي الله هارون، فحاشاه أن يكون منه ذلك الضلال العظيم ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه:٨٥].

فلما أخبره الله بهذا الخبر العظيم المؤسف، رجع إلى قومه مملوءاً غضباً، وعندما وصل إليهم خاطبهم واعظاً لهم مؤنباً إياهم مبكتاً لهم على ما اقترفوه، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه:٨٦].

وقال موسى لقومه: بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم، ثم ألقى الألواح وهي الألواح المكرمة المعظمة التي كتبها له الرحمن بيده، ثم أمسك بتلابيب

أخيه، وأخذ يجره إليه، فقال له مبدياً عذره: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وأجاب قومه على سؤاله قائلين: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٧-٨٩]، وما اعتذر به قومه، لا يصلح أن يكون عذراً.

وبينت لنا الآيات أن الذهب الذي صنع العجل منه لم يكن من أقراط نساء بني إسرائيل وأقراط بناتهم وأولادهم كما تزعم التوراة، بل هو الذهب الذي أخذه بنو إسرائيل من المصريين ليلة خروجهم من مصر، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧].

وبينت الآيات أن الذي صنع العجل هو السامري وليس نبي الله هارون، وأخبرنا ربنا عز وجل أن هارون أنكر على قومه فعلتهم، وأنهم فتنوا بهذا العجل، وأن ربهم هو الله تعالى وليس هو العجل، وطلب منهم أن يطيعوه، ويطيعوا أمره، فقالوا له: لن نبرح عاكفين على عبادته حتى يرجع إلينا موسى ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠-٩١].

وقد خاطب موسى أخاه هارون خطاباً شديداً، فبين هارون عذره، ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٢-٩٤].

بعد ذلك توجه موسى بالسؤال والمحاسبة إلى الذي صنع العجل، ودعاهم إلى عبادته، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ٩٥] فأجاب السامري ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى

نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه:٩٦] يريد السامري بالرسول جبريل عليه السلام، ويبدو أنه رأى أثر الرسول في الأرض التي يمسها، فأخذ قبضة من أثره، فلما ألقى تلك القبضة في العجل الذي صنعه أصبح له خوار، ودعا الناس إلى عبادته، عند ذلك ﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه:٩٧].

لقد دعا موسى على السامري بأن لا يمسَّه أحد، معاقبة له على مسّه ما لم يكن له مسُّه، وهذا معاقبة له في الدنيا، وأخبره أن له موعداً في الآخرة، وهناك الجزاء والحساب، وأمره أن ينظر إلى ما سيفعله بذلك العجل الذهبي، حيث سيحرقه في النار، ثم يذريه في مياه البحر، ثم قرر أن الإله الحقيقي هو الله رب العالمين ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٩٨].

وأخبرنا ربنا – تبارك وتعالى – أن الله جعل من توبة بني إسرائيل في عبادتهم العجل أن يقتل بعضهم بعضاً ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٥٤].

وكانت جريمة بني إسرائيل في عبادتهم للعجل جريمة عظيمة كبيرة وعقوبتها عظيمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٢]. وقد نالهم ذلك الغضب الإلهي، كما نالتهم الذلة في الحياة الدنيا، وأخبرنا ربنا أنهم ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ [البقرة:٥٤].

٦٠- توفيق الله موسى في معالجة هذا الأمر الخطير:

من يدرس قصة موسى عليه السلام في موقفه من عبادة قومه العجل تتبدى شخصيته القيادية الفذة في معالجة المشكلة والقضاء عليها، وتصحيح مسيرة بني إسرائيل،

وإقامتهم على العدل والصواب، لقد تألم موسى كثيراً، وغضب كثيراً بسبب فعلتهم الشنعاء، ولكن التأمل والغضب وحدهما لا يعالجان المشكلة، وقد أظهر موسى سخطه على بني إسرائيل، وألقى الألواح التي جاءَ بها من عند الله، ووعظ قومه، ونصحهم وبيّن لهم ضلالهم الذي فعلوه، وابتدأ المحاسبة بسؤال أخيه، وهو نبي، فأخذ بشعر رأسه ولحيته، وأخذ يجره إليه، ووجه إليه اللوم والتأنيب، وقومه ينظرون، وهارون لم يقترف ذنباً، ولم يعبد العجل، وأنكر على بني إسرائيل، ولكن موسى أراد أن يعلم عنه موقفه من هذه الطامة الكبرى.

ووجه موسى بعد ذلك اللوم إلى السامري، الذي صنع تلك الجاهلية العمياء، والداهية الدهياء، ودعا عليه، وأخبره بحاله في الدنيا والآخرة، وأمر بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضاً، فألقيت عليهم الظلمة، وسقط كثيرون منهم قتلى بسيوفهم.

لقد قضى موسى على الفتنة، وسكت عنه الغضب، وعاد إليه هدوؤه، وأخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين يخافون الله ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٤].

قصة موسى والخضر

أولا: تمهيد

قصة موسى والخضر المذكورة في سورة الكهف من روائع القصص، فقد خرج موسى من دياره طالباً العلم، عندما أعلمه ربه أن في الأرض من هم أعلم منه، وقد جاء في السنّة النبوية مزيد بيان وتفصيل لما ذكره القرآن في هذه القصة، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ بالسبب الذي أخرج موسى من دياره، كما أخبرنا باسم العبد الصالح الذي رحل إليه موسى، وبعضاً من أقواله وأحواله، وليس لهذه القصة ذكر في التوراة.

ثانيا: نص الحديث الذي أورد هذه القصة

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سعيد بن جبير، قال: «قلت لابن عباس: إن نوْفاً البكاليّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله، حدّثني أُبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، فتجعله في مِكْتَلٍ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ.

فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف:٦١].

وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يُخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى: ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف:٦٢]، قال: ولم

يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف:٦٣]، قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤].

قال: رجعا يقصان آثارهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى ثوباً، فسلَّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام!! قال: أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتُعلِّمني مما عُلِّمت رشداً، قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف:٦٧]، يا موسى، إني على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علَّمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف:٦٩]، فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٧٠].

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧١-٧٣].

قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً.

قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده، فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا

زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الكهف:٧٤-٧٥]، قال: وهذه أشد من الأولى.

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف:٧٧]، قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف:٧٧-٧٨]، إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف:٨٢] [البخاري: ٤٧٢٥، مسلم: ٢٣٨٠].

فقال رسول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر، حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ، (وكان أَمامَهُمْ ملك يأخذ كل سفينةٍ صالحةٍ غصباً) [الكهف:٧٩] وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافراً، وكان أبواه مؤمنين) [الكهف:٨٠].

وفي رواية أيضاً في الصحيحين: عن سعيد بن جبير، قال: إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال: سلوني، قلتُ: أيْ أبا عباس، جعلني الله فداءَك، بالكوفة رجلٌ قاصٌّ يقال له: نوف، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل، أما عمرو فقال لي: قال: قد كذب عدو الله، وأما يعلى فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ : «موسى رسول الله عليه السلام قال: ذكّر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون، ورقّت القلوب ولّى، فأدركه رجل، فقال: أي رسول الله ﷺ ، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب عليه إذ لم يردَّ العلم إلى الله، قيل: بلى، قال أي رب فأين؟ قال: بمجمع البحرين.

قال: أي ربِّ، اجعل لي عَلَماً أعلم ذلك به، فقال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لي يعلى: قال: خذ نوناً ميتاً حيث يُنفخ فيه الروح، فأخذ حوتاً، فجعله

في مِكْتَل، فقال لفتاه، لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال ما كلفت كثيراً، فذلك قوله جل ذكره ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ ﴾ [الكهف:٦٠]، يوشع بن نون ليست عن سعيد.

قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثَرْيان، إذ تضرَّب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نَسِيَ أن يخبره، وتضرَّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر، حتى كأنّ أثره في حَجَر، قال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر، وحلَّق بين إبهاميه واللتين تليانهما.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف:٦٢]، قال: قد قطع الله عنك النصب - ليست هذه عن سعيد - أخبره، فرجعا، فوجدا خِضراً، قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طِنْفِسَة خضراء، على كبد البحر، قال سعيد بن جبير: مُسجًّى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلَّم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما عُلِّمتَ رَشَداً. قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟ يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، وقال والله ما علمي وما علمك في جنب الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر.

حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخرِ، عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح - قال: قلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم - لا نحمله بأجر، فخرقها، وَوَتدَ فيها وَتِداً.

قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف:٧] - قال مجاهد منكراً - ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف:٧٢]، كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٣].

﴿لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف:٧٤]، قال يعلى: قال سعيد، وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

لم تعمل بالحِنْث، وكان ابن عباس قرأها زكية (زاكية) مسلمة، كقولك غلاماً زكياً.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف:٧٧]، قال: سعيد بيده هكذا، ورفع يده فاستقام.

قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف:٧٧]، قال سعيد: أجراً نأكله.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ [الكهف:٧٩]، وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: (أمامهم ملك)، يزعمون عن غير سعيد أنه هُدَد بن بُدَد، والغلام المقتول اسمه - يزعمون - جيسور.

﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف:٧٩]، فأردت إذا هي مرّت به أن يدعها لعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها، فانتفعوا بها، ومنهم من يقول سدُّوها بقارورة، ومنهم من يقول بالقار.

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف:٨٠]، وكان كافراً.

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف:٨٠]، أن يحملها حُبُّه على أن يُتابعاه على دينه.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف:٨١]، لقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ [الكهف:٧٤].

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف:٨١]، هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خضر وزعم غير سعيد أنهما أُبدِلا جارية. وأما داود بن أبي عاصم، فقال عن غير واحد: إنها جارية» [البخاري: ٤٧٢٦].

في رواية ثالثة: «عن عبدالله بن عبدالله بن عُتبة بن مسعود عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحُرُّ بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فمر بهما أُبيُّ بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقِيِّه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟

فقال أُبيّ: نعم سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه، يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل. إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خَضِر، فسأل السبيل إلى لُقِيِّه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت، فارجع، فإنك ستلقاه، فكان موسى ﷺ، يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣]، قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤]، فوجدا خضراً فكان من شأنهما ما قصّ الله في كتابه» [البخاري: ٧٨، مسلم: (٢٣٨٠)، (١٧٤)].

والسياق في الأحاديث الثلاثة للبخاري [البخاري: ٧٤، ٧٨، ١٢٢، ٢٢٦٧، ٢٢٧٦، ٣٤٠٠، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧. مسلم: ٢٣٨٠].

القصة التاسعة عشرة
قصة نبي بني إسرائيل الذي دعا الله أن يحبس له الشمس

أولا: تقديم

كان القادة العسكريون يحشدون لمواجهة أعدائهم أكثر عدد يستطيعونه من الجند، ويظنون أن الكثرة أحد أسباب الانتصار في الحروب، ولكن نبي الله يوشع الذي فتح الله على يديه الأرض المقدسة لبني إسرائيل من بعد موسى لم يهتم بكثرة العدد عند مواجهة أعدائه، وإنما اهتم بالنوعية المقاتلة، ولذا أخرج من صفوف جنده أولئك الذين تعلقت قلوبهم بأمر من الأمور الدنيوية التي تملك على العباد نفوسهم.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه غزا بذلك الجيش إحدى القرى، وخشي أن يدخل عليه الليل قبل أن يتم الفتح، فدعا ربه أن يحبس عليه الشمس، فحبسها، حتى تمّ النصر، وتلك آية من آيات الله، وأجرى الله على يديه آية أخرى عندما كشف له الذين غَلُّوا من الغنيمة، فأغضبوا الله عليهم.

ثانيا: قصة هذا النبي في التوراة

يوجد سفر طويل في التوراة باسم سفر يوشع، إلا أن لفظة هذا الاسم هي يشوع، ويشوع اسم عبري معناه «يهوه خلاص» ويهوه عند اليهود اسم من أسماء الله تعالى، ويذكر كتاب (قاموس الكتاب المقدس) أخذاً مما جاء في التوراة في مواضع

عدة أن اسم يشوع في الأصل: هوشع، أو يهوشع، وأن موسى هو الذي دعاه يشوع، وأن يشوع هو خليفة موسى، وكان أولاً خادماً له، كلفه موسى في حياته ببعض المهمات الكبيرة [قاموس الكتاب المقدس: ص١٠٦٨]. وتذكر التوراة في السفر المنسوب إلى يشوع أن بني إسرائيل دخلوا فلسطين بعد وفاة موسى بقيادة يشوع، وتوجد تفصيلات كثيرة لكيفية دخولهم، وللحروب التي خاضوها بقيادة يشوع، والانتصارات التي حققوها.

وقد ذكر في الإصحاح السابع من سفر يشوع خبر الغلول الذي كان من بعض بني إسرائيل، وكيف استخرج يوشع الرجال الذين فيهم الغلول، وحدد كيف فعل بهم بعد ذلك.

ثالثاً: نص الحديث الوارد في هذه القصة

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضْعَ امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولما يبْنِ بها، ولا أحدٌ بنى بيوتاً، ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلِفات وهو ينتظر وِلادها، فغزا فَدَنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبِسها علينا، فحُبست حتى فتح الله عليهم.

فجمع الغنائم، فجاءت يعني النار لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غُلولاً، فليُبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول.

فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس بقرة من الذهب، فوضعوها فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلّ الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلّها لنا» [البخاري: ٣١٢٤، ٥١٥٧. مسلم: ١٧٤٧].

رابعا: شرح هذا الحديث

يحدثنا الرسول ﷺ أن نبياً من أنبياء الله غزا غزوة لفتح إحدى القرى، وهذا النبي هو يوشع بن نون أحد أنبياء بني إسرائيل، وقد صحّ بذلك حديث رواه أحمد في مسنده [انظر: فتح الباري: ٦/ ٢٢١]، وكان يوشع قد صحب موسى في حياته، وسار معه في رحلته إلى الخضر كما سبق بيانه في قصة موسى والخضر، وقد أوحى الله إليه بعد وفاة موسى، واستخلفه موسى على بني إسرائيل من بعده، وهو الذي تم على يديه فتح الأرض المقدسة.

وقد حرص نبي الله يوشع عند انطلاقته لفتح المدينة التي يقصدها على أن يكون جيشه قوياً متماسكاً، ولذلك أخرج من جيشه المقاتلين الذين قد يكونون سبباً في الهزيمة، لانشغال قلوبهم انشغالاً كبيراً بمسائل الدنيا التي لا يستطيعون التخلص من إعمال قلوبهم وعقولهم بشأنها، فقد استثنى ثلاثة أصناف من المقاتلين أمرهم بعدم الخروج معه.

الصنف الأول: الذي عقد نكاحه، ولم يدخل بزوجته، ولا شك أن هذا الصنف يكون متعلقاً قلبه بزوجه أشد التعلق، وبخاصة إذا كان في مرحلة الشباب.

والصنف الثاني: المشغول ببناء لم يكمل بناءه بعد.

والثالث: الذي اشترى غنماً أو نوقاً حوامل وهو ينتظر أن تلد أو تنتج.

إن المبدأ الذي اعتمده هذا النبي يدل على أنه قائد فذٌّ، صاحب نظرية في قيادة الجيوش وإعدادها للقتال الذي يكون به النصر، إن الجيوش لا تنتصر بكثرة عددها، بل بالنوعية التي تقاتل، فالنوعية أهم من العدد والكمية.

ولذا أخرج من جيشه المشغولي القلوب، الذين يكونون في أرض المعركة وقلوبهم معلقة بالزوجة التي سيدخل بها، أو البناء الذي سيسكنه، أو الماشية والأنعام التي ستلد وتنتج.

وفعله هذا شبيه بما أمر به طالوت جيشه من عدم الشرب من النهر، إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، وبذلك صفى طالوت جيشه من العناصر الضعيفة التي قد تكون سبباً في الهزيمة.

وقد أخبر الله رسوله ﷺ أن نكوص المنافقين في معركة أحد كان فيه خير للمؤمنين ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة:٤٧].

خرج يوشع بجيشه متجهاً إلى القرية التي يريد غزوها، فدنا من القرية في عصر ذلك اليوم، ومعنى ذلك أن فرصته في فتح المدينة ليست قوية، لأن القتال في الليل ليس سهلاً، وقد يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، وعليه أن يوقف القتال إذا غربت الشمس، لأن دخول الليل يعني دخول يوم السبت، والقتال محرم على بني إسرائيل في يوم السبت، ومعنى ذلك أنه سيعود عن القرية قبل فتحها، وهذا سيعطي أهل القرية فرصة لتقوية جيشهم، وإصلاح أسوارهم، وإعداد المزيد من السلاح، فتوجه يوشع إلى الشمس مخاطباً لها قائلاً: إنك مأمورة، وأنا مأمور، ثم دعا ربه قائلاً: اللهم احبسها علينا، واستجاب الله دعاءه، فأخَّر الغروب حتى تم النصر.

إن إيمان يوشع كان عظيماً، فهو يوقن بقدرة الله على كل شيء، وهو قادر على إطالة النهار حتى يتم الفتح قبل الغروب، ولا يستعصي مثله على الله، ونحن نعلم اليوم أن النهار والليل يحدثان من دوران الأرض حول نفسها، والذي يظهر - وعِلْم ذلك عند الله - أن دورة الأرض تباطأت بقدرة الله حتى تم الفتح.

ولم يبح الله الغنائم لأمة من الأمم من قبلنا، فكانت الغنائم تجمع ثم تنزل نار من السماء فتأكل الغنائم إن لم يغلَّ أحد من الجيش شيئاً منها، فإن غُلَّ من الغنيمة شيء فلا تأكلها، وهذا يعني أن الله غير راضٍ عنهم.

وعندما جمعت الغنائم، ونزلت النار لم تأكل منها شيئاً، فقال يوشع فيكم غلول، وكشف الغالين بأن بايع من كل قبيلة رجلاً، فلصقت يده بيد رجل القبيلة التي فيها الغلول، فبايع أفراد القبيلة التي فيها الغلول، فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: الغلول فيكم، عند ذلك جاؤوا بقطعة كبيرة من الذهب مصنوعة على شكل رأس بقرة، فوضعت مع الغنائم، فنزلت النار فأكلتها، وقد نسخ هذا الحكم في حقنا، فأبيحت لنا الغنائم، رحمة من الله بنا وتفضلاً علينا، وكان إباحة الغنائم إحدى خصائص هذه الأمة [صحيح قصص الحديث النبوي، للمؤلف، ص١١٣].

خامسا: هذه القصة في الميزان

لم تذكر التوراة ما أخبر به رسولنا ﷺ من إرجاع ذلك النبي من أرجعه من جيشه بهدف تخليص ذلك الجيش من نقاط الضعف التي قد تكون سبباً في الهزيمة.

وقد ذكر رسولنا ﷺ أن يوشع استخرج المال الذي غلّه بعضهم بطريقة واضحة جلية، وكانت من غير اعتراف من الغالين، ولم يذكر أنه قتل الغالين أو رجمهم كما ذكرت التوراة.

وذكرت التوراة أن الذي قام بالغلول رجل واحد فقط والحديث ذكر أنهم كانا رجلين أو ثلاثة، والتوراة ذكرت أن الرجل قد غلّ رداء شِنْعارياً نفيساً، ومائتي شاقل فضة، ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً، والصواب أن المال المغلول كان رأس بقرة من ذهب كما ذكر الحديث.

وذكرت التوراة في الإصحاح العاشر من سفر يشوع حبس الشمس ليوشع، فقد جاء في ذلك السفر فقرة (١٢-١٣) «١٢حِينَئِذٍ كَلَّمَ يَشُوعُ الرَّبَّ، يَوْمَ أَسْلَمَ الرَّبُّ الأَمُورِيِّينَ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ أَمَامَ عُيُونِ إِسْرَائِيلَ: «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ، وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ». ١٣فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هذَا مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ».

وهذا النص يحتاج إلى تصويب في ضوء الحديث، فيوشع لم يأمر الشمس بالوقوف، بل دعا الله بأن يحبسها عليه، والشمس لم تكن في كبد السماء وهو وسطها، بل كانت قد مالت للغروب، لأن دعاءه كان عند العصر أو بعدها.

وهناك أمر آخر يحتاج إلى تصويب، وهو من التحريف الذي أصاب التوراة، فقد ذكرت التوراة في الإصحاح العاشر أن المعركة التي حبست فيها الشمس ليوشع كانت متأخرة عن المعركة التي وقع فيها الغلول، والصواب الذي دلّ عليه الحديث أنهما كانتا في معركة واحدة.

ومما وقع من تحريف في التوراة أنها ذكرت أن بني إسرائيل جعلوا الغنائم التي غنموها من فتح أريحا في خزانة بيت الرب، ذهباً كانت أو فضة أو آنية من النحاس أو الحديد، وكان ذلك بأمر الله إليهم، أما المال المغلول فقد أحرقه بنو إسرائيل مع الرجل الذي أخفاه مع بنيه وبناته وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله.

أما الغنائم التي غنموها بعد ذلك، فيذكر الإصحاح الثامن فقرة (٢) من سفر يشوع أن الرب أباحها لهم، وقد جاء فيه: «غَيْرَ أَنَّ غَنِيمَتَهَا وَبَهَائِمَهَا تَنْهَبُونَهَا لِنُفُوسِكُمْ» وجاء في فقرة (٢٧) من السفر نفسه «٢٧لكِنِ الْبَهَائِمُ وَغَنِيمَةُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ نَهَبَهَا إِسْرَائِيلُ لأَنْفُسِهِمْ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ يَشُوعَ».

وهذا المذكور هنا من التحريف الذي أصاب التوراة، فالغنائم لم تحلّ لأمة قبلنا، وكانت النار تنزل فتأكل الغنائم من الأثاث واللباس والذهب والفضة، كما قررته نصوص كثيرة صحيحة، ومن ذلك ما ذكره الرسول ﷺ في هذا الحديث، فقد أخبرنا أن السماء لم تحرق الغنيمة من أجل الغلول، فلما ظهر الغلول وجيء به ووضع مع الغنيمة نزلت النار فأحرقته، وليس صحيحاً أن بني إسرائيل هم الذين أحرقوه، وإذا كان يصح حرق الغال من الغنيمة عقوبة له، فليس عدلاً أن تحرق زوجته وأولاده وبهائمه، كما يزعم محرفو التوراة.

القصة المتممة للعشرين

قصة الملأ من بني إسرائيل الذين قالوا لنبي لهم ابعث ملكا نقاتل في سبيل الله

أولا: تقديم

هذه القصة في التوراة تتحدث عن فترة ضعف كبير مرّ بها بنو إسرائيل، وكانت هذه الفترة قبيل تولي نبي الله داود الحكم، وهي قصة غير واضحة المعالم في التوراة، وفيها كثير من الخطأ والاضطراب، وقد بيّن القرآن معالمها، وحدّد أبعادها، وجاء فيها بالقول الفصل الذي لا باطل فيه، ولا اضطراب معه.

ثانيا: هذه القصة في التوراة

ذكرت التوراة أن بني إسرائيل فسدوا في أيام نبيهم صموئيل، وأن أعداءَهم تسلطوا عليهم، فجاءت شيوخ إسرائيل وطلبوا من نبيهم صموئيل أن يختار لهم ملكاً يحكمهم، ويقضي على ما بينهم من نزاعات، ويقودهم في الحروب، فاختار لهم نبيهم شاباً قوياً طويل القامة، اسمه شاول.

وتذكر التوراة أن شاول لم يقم لمحاربة أعدائه عندما تجمعوا له بأعداد كبيرة، فوبخه النبي صموئيل، وأخبره أنه قد انحمق، وأن مملكته لن تدوم، لأنه لم يحفظ وصية الله، وتذكر التوراة أنه لم يكن بيد الإسرائيليين أي سلاح، ليقاتلوا به، كما تذكر أن يوناثان ابن شاول صعد إلى أعدائه من الفلسطينيين، فضرب أعداءَه، ثم جاء والده ومن معه من الجند وضربوا الأعداء، فخرج المختبؤون من بني إسرائيل،

وقاتلوا الأعداء، وحلف شاول للشعب قائلاً: ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً حتى المساء، حتى أنتقم من أعدائي، فلم يذق الشعب خبزاً، وجاء كل الشعب إلى الوعر، وكان العسل على وجه الحقل، ولما دخل الشعب الوعر إذا بالعسل يقطر، ولم يمدّ أحد يده إلى فيه، لأن الشعب خائف من القسم، وأما يوناثان فلم يسمع حلفان أبيه، ولم يعلم به، فمدّ طرف النشابة، التي بيده، وغمسه في قطر العسل، وردّ يده إلى فيه فاستنارت عيناه. فقال له واحد من الشعب: قد حلف أبوك قائلاً: ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً اليوم، فأعيا الشعب، فقال يوناثان: قد كدَّر أبي الأرض، انظروا كيف استنارت عيناي، لأنني ذقت قليلاً من هذا العسل، فكم بالحري لو أكل اليوم الشعب من غنيمة أعدائهم التي وجدوها، أما كانت ضربة أعظم على الفلسطينيين.

وذكرت التوراة أن الشعب ثار على الغنيمة، فأخذوا غنماً وبقراً وعجولاً، وذبحوا على الأرض، وأكل الشعب على الأرض، وذكرت التوراة أن شاول والمقاتلين معه خاضوا حروباً مع أعدائهم، وانتصروا عليهم.

وتذكر التوراة أن النبي صموئيل قال لشاول: إياي أرسل الربّ لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل، وأخبره أن الله يأمره بضرب العماليق، واستعرض شاول الشعب، فكانوا مئتي ألف راجل، وعشرة آلاف فارس، وذكرت أن شاول ضرب العماليق من حويلة إلى شور، فأخبر الرب صموئيل أنه ندم على جعله شاول ملكاً[1]، لأنه لم يقم كلام الله، وبيّن صموئيل لشاول وجه مخالفته لما طلبه الله منه.

وبعد أن رفض صموئيل شاول، ذهب إلى يسّي البيتلحمي، ومسح ابنه داود ملكاً، وحلّ روح الرب على داود من ذلك اليوم. وحلّ روح رديٌّ على شاول، وذهب داود إلى شاول، وحسن داود في عيني شاول، وتذكر التوراة أن الفلسطينيين تجمعوا للحرب، وخرج أحد قوادهم، لابساً آلة الحرب، وهو مقاتل شديد البأس، وطلب أن يبارز أحد بني إسرائيل فمن قتل صاحبه، يخضع شعب المقتول لشعب القاتل.

(١) الله أعلى وأجلّ وأكرم من أن يتندم على فعل فعله.

ويخرج الفتى الصغير داود لجليات، فيضربه بمقلاعه بحجر في رأسه، فيصرعه، ويخترط داود سيف جليات، ويقتله به، فهرب الأعداء لما رأوا جبارهم قد مات، ففرح بنو إسرائيل، وأحب يوناثان ابن شاول داود وقطع له عهداً لأنه أحبه، وخلع عليه، وجعله شاول قائداً لجنود الحرب، ولكن شاول جنّ في اليوم التالي، وحلّ عليه روح رديئة، وحاول قتل داود، ثم خفض شاول مرتبة داود، وجعله رئيس ألف.

وقد أطال سفر صموئيل الأول في ذكر المحاولات الكثيرة والمتعددة التي حاول شاول أن يقتل فيها داود، ولكن كان دواد دائماً يفلت منه، وفي نهاية السفر تذكر التوراة أن النبي صموئيل توفي، ودفنه بنو إسرائيل باحترام.

وفي خاتمة السفر يموت شاول بسبب جراحه من معركة هزم فيها وجرح.

وتذكر التوراة في سفر صموئيل الثاني أن بني إسرائيل اجتمعوا على داود، ونصبوه ملكاً عليهم، وأراد داود أن يبني بيت المقدس، فلم يأذن الله له، وأخبره أن ابنه هو الذي سيبنيه.

وتذكر التوراة أن داود قد وقع في خطيئة الزنى، عندما زنى بامرأة أحد رجال الحرب، وهو أوريا الحثي، وقد حملت هذه المرأة بعد أن زنى داود بها، وقد أمر داود قواده أن يجعلوا أوريا في طليعة المقاتلين فقتل، وتزوج داود امرأته، وتذكر التوراة أن هذه المرأة هي أم الملك سليمان.

وتذكر التوراة أن النبي ناثان وبّخ داود بسب زناه، وأخبره أن الله سيقيم عليه الشر من بيته، بسبب فعلته تلك، وبسبب تلك الفعلة مات الولد الذي حبلت به تلك المرأة، ولكن بعد ذلك رزقه الله منها بابنه سليمان.

وتذكر التوراة أن ابن داود أمنون زنى بأخته من أبيه، ثم بعد ذلك أبغضها بغضاً شديداً، فثار شقيق تلك المرأة على أمنون وقتله.

وهذا الذي ذكرته التوراة عن داود يعارض قول داود في النشيد الذي أنشده داود ممجداً ربه، وفيه يقول: «لأني حفظت طرق الربّ، ولم أعص إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي، وفرائضه لا أحيد عنها، وأكون كاملاً لديه، وأتحفظ من إثمي».

وتذكر التوراة في سفر الملوك الأول، أن داود شاخ، وتقدم في الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب فلا يدفأ، فجاؤوه بامرأة عذراء جميلة تضطجع معه في حضنه ليدفأ، وأوصى بالمُلك بعده لابنه سليمان، ومات في مدينة داود.

ثالثا: التعقيب على هذه القصة

١ - الملأ من بني إسرائيل يطلبون من نبي لهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله:

ما ذكرته التوراة من أن الشيوخ من بني إسرائيل طلبوا من نبيهم صموئيل أن يختار لهم ملكاً يقودهم في الحروب جاء تصديقه في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] ولكن القرآن لم يذكر اسم النبي الذي قال له الملأ هذا القول، واسم الملك المختار كما ورد في القرآن طالوت، وليس شاولاً كما ورد في التوراة.

والقرآن وإن صدق أصل القصة التي وردت في التوراة، إلا أن التفاصيل التي ذكرها بعد ذلك مخالِفَة مخالَفَة كبيرة لما ورد في التوراة، إن تفاصيل القصة في التوراة جعلت القصة أشبه بالأسطورة منها بالحقيقة، والقصة الحقيقية التي جاء بها القرآن واضحة المعالم، محكمة السبك، ليس فيها التخبط والافتراء الذي ذكرته التوراة على الملك الذي اختاره النبي، ولا على نبي الله داود وابنه أمنون.

والقرآن يذكر أن نبي بني إسرائيل عندما طلب منه قومه ذلك الطلب حذرهم من أن يُفرض عليهم القتال فلا يقاتلون، فقالوا له: ولماذا لا نقاتل في سبيل الله، وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا، ومع أن جوابهم للملك كان حسناً وسديداً، إلا أن

القرآن صدق نبيهم فيما حذرهم منه، فعندما فُرض القتال عليهم تولوا إلا قليلاً منهم، والله عليم بالظالمين ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة:٢٤٦].

٢- نبي بني إسرائيل يحدد لهم الملك الذي اختاره الله لهم:

استجاب نبي بني إسرائيل لقومه، وأعلمهم أن الله اختار لهم طالوت ملكاً، وليس شاولاً كما تذكر التوراة، فاعترض الملأ من بني إسرائيل على هذا الاختيار، وقالوا في اعتراضهم على نبيهم: أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحقُّ بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، ويبدو أن الملك المختار لم يكن من البيوتات التي كان المُلك متداولاً فيها، فهم على ما تصوروه أحق بالملك منه، والأمر الثاني: أن طالوت لم يكن عنده الكثير من المال.

فأجابهم نبيهم مذكراً إياهم أن الله اختاره واصطفاه، وما ينبغي لهم أن يعترضوا على من اصطفاء الله واختياره، والأمر الثاني أن الله زاده بسطة في العلم والجسم، وهذا هو الذي يحتاجه الملك الناجح في حكمه، أما الملك الحسيب النسيب صاحب المال إن لم يعط القوة في الجسم، ولا القوة في العلم، فإنه لا ينجح في قيادة شعبه، وفي الذود عن حماهم، وقرر لهم نبيهم أن الله تبارك وتعالى يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقال لهم نبيهم ليطمئنهم، ويثبت قلوبهم: إن الله جعل لهم آية تدلهم على أن طالوت يستحق الملك، وتتمثل الآية في إتيان الله لهم بالتابوت، فيه سكينة من الله،

وبقية مما تركه آل موسى وآل هارون، والتابوت صندوق مستطيل، إذا كان في بني إسرائيل وهبهم الله به السكينة، وفي داخل التابوت بقايا مما تركه آل موسى وآل هارون، وهما نبيا بني إسرائيل، ولا ندري ما هذه البقية الموجودة في الصندوق.

وقد ذكرت التوراة أن بقرتين جاءتا بالتابوت، وقد كان أعداؤهم أخذوه واستولوا عليه لعدة أشهر، فلما أضرَّ التابوت بالأعداء مدة وجوده عندهم أرسلوه محمولاً على بقرتين، فوصل بني إسرائيل، وهذا غير صحيح، فقد أخبرنا القرآن أن الملائكة هم الذين حملوه وجاؤوا به بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨].

٣ـ انطلاق طالوت بالجيش لمواجهة الأعداء:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - في كتابه أن طالوت سار بجيشه لمواجهة الأعداء، وقال للجنود الذين معه: إن الله مختبرهم بالمرور على نهر، فمن شرب منه، فليس منه، وعليهم أن يرجعوا عنه، ومن لم يشرب من النهر فإنه يكون من جيشه، ويصحبه إلى القتال، وأذن لهؤلاء أن يأخذ الواحد منهم غَرفة واحدة بيده فيشربها.

إن التوراة المحرفة أوغلت في البُعد عن الحق، عندما زعمت أن شاول لعن الذين يأكلون من الخبز والطعام حتى تنتهي المعركة، وكان وجه الأرض في ذلك اليوم عسلاً، فالتزموا ما نهاهم عنه، إلا يوناثان بن شاول، فإنه لم يسمع بلعن شاول من يأكل من غنائم أعدائه، فأخذ بعض العسل وأكله، فلما أعلمه أحد الجنود بلعن أبيه من يأكل من غنائم أعدائه، خطّأ يوناثان أباه، لأنه تسبب بهذا اللعن في إضعاف المقاتلين، وبيّن لهم كيف أن ما أكله من العسل قوّاه ولم يضعفه.

كل هذا الذي ذكرته التوراة غير صحيح، فالذي نهى عنه طالوت هو الشرب من النهر، إلا من اغترف غرفة واحدة، وكانت حصيلة الاختبار أن الغالبية العظمى

من الجنود شربوا من النهر، والذين اغترفوا غرفة واحدة كانوا قلة قليلة، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٤٩].

لقد صفّى طالوت جيشه من الكثرة الضعيفة، التي قد تكون سبباً في الهزيمة، ولم يتجاوز معه إلا ثلاثة مائة وبضعة عشر مقاتلاً، وكان عدة أهل معركة بدر بمقدار عدة الذين جاوزوا النهر مع طالوت كما أخبرنا نبينا ﷺ .

٤- النصر في المعركة:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن طالوت والذين آمنوا معه، وكانوا فئة قليلة لما جاوزوا النهر، قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فقالت الفئة الأكثر إيماناً وتقىً وصلاحاً، وهم الذين سماهم الله بالذين يظنون أنهم ملاقوا الله، أي: يؤمنون بيوم القيامة: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، لقد فقه هؤلاء القاعدة التي تحقق النصر للمؤمنين، فالنصر لا يكون بكثرة العدة والعدد، فإذا كان أحد الطرفين في المعركة مؤمناً، واعتصم بالله، وصبر على تكاليف القتال نصره الله وأيده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

وذكر لنا ربنا أن المؤمنين لما برزوا لجالوت وجنوده دعوا الله واستنصروه، واعتصموا به، وقالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة:٢٥٠].

وانجلت المعركة عن انتصار المؤمنين، وهزيمة الكافرين، وكان أحد الجنود في هذه المعركة نبي الله داود عليه السلام ، ويبدو أنه لم يكن نُبِّئ في ذلك الوقت، فقتل داود عليه السلام رأس الأعداء جالوت، وآتى الله بعد ذلك داود الملك والحكمة، وعلّمه مما

يشاء الله تعليمه إياه ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٥١].

رابعا: هذه القصة في الميزان

هذه القصة واضحة المعالم محددة الأبعاد في القرآن، تتحدث عن فترة زمنية محددة من تاريخ بني إسرائيل، هذه الفترة بعد نبي الله موسى، وآخرها في عهد داود، بل إن نبي الله داود شارك في وقائعها وأحداثها، ومع أن بني إسرائيل ترددوا فيها، واختلفوا على نبيهم، إلا أن الأخيار منهم، وعددهم قليل استطاعوا الاستقامة على المنهج الأقوم، وانتصروا في ميدان القتال، وضربوا بذلك مثلاً للذين من بعدهم، فالنصر على الأعداء ليس بكثرة العدد والسلاح، وإنما بالالتجاء إلى الله، والاستنصار به، والصبر على الحرب واللأواء، وهذه سنّة من سنن الله في الأرض.

وهذه القصة في التوراة غائمة المعالم، حوادثها ووقائعها مضطربة، والحقائق التي في التوراة قليلة جداً، والمخالفات والمناكفات كثيرة، ولذلك فإن القرآن عندما قصّ علينا هذه القصة كما وقعت بين الخلط الكبير الذي ورد في التوراة وأصلحه.

القصة الحادية والعشرون
قصة نبي الله داود ﷺ

أولا: تقديم

عندما نذكر نحن المسلمين الذين علِمنا كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ نبيّ الله داود ﷺ يتبادر إلينا العفاف والتقى والصلاح، والقوة في العبادة، والاستقامة على أمر الله تبارك وتعالى، فإذا ما قرأنا سيرته في التوراة، وجدنا فيها ما يؤكد لنا صلاحه، ثم تأتي الداهية الدهياء، والضلالة العمياء التي تقذر في نفوسنا سيرة العبد الصالح نبي الله داود، والتي تزعم أنه زنى بزوجة أحد جنوده في غيبته في ميدان القتال، وتزيدنا التوراة ألماً وأسىً عندما نعلم أن بيت داود الطاهر قد أصابه المزيد من القذارة بزنى أحد أولاد داود بأخته من أبيه.

قصة داود رجل الحرب في التوراة ليست هي صورته عندنا نحن المسلمين التي رسمها في قلوبنا القرآن والحديث، لقد رسم في قلوبنا أن صيام داود خير الصيام، وقيامه خير القيام، وأنه كان لا يفرّ في ميدان الحروب إذا التقى بالأعداء.

لقد رسمت في قلوبنا النصوص أن داود الملك لم يكن يمدُّ يديه إلى أموال الملك، بل كان يأكل من عمل يده، إنها صورة راقية لنبي الله العبد الملك الذي كان غاية في الصلاح والتقى.

ثانيا: قصة داود في التوراة

أول ما ذكرت التوراة داود ﷺ في قصة شيوخ بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم أن يرسل لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فقد ذكرت التوراة أن داود قتل جالوت قائد جيش الأعداء.

ووقع بعد ذلك نزاع بين شاول وداود، واكتفى داود بالتخلص مما يريده به شاول وجيشه من الإيقاع به، فلما مات شاول نصب بنو إسرائيل داود ملكاً عليهم، وكل ما يهمنا مما ذكرته التوراة القضايا التي عرض لها القرآن والأحاديث الصحيحة، وقد ذكرت في القصة السابقة بعض ما جاء في قصة داود.

ثالثا: التعقيب على هذه القصة

١- مكانة داود وفضله:

أثنت التوراة على داود عليه السلام، ولكنه ثناء ناقص مطعون فيه، أما ثناء القرآن على داود فليس له حدود، فهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقد آتاه الله كتاباً هو الزبور ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء:٥٥].

وقد أخبرنا ربنا أن داود عليه السلام كان نبياً من ذرية إبراهيم ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ [الأنعام:٨٤] أي من ذرية إبراهيم كما دلّ عليه الآيات السابقة.

وأخبرنا تبارك وتعالى أن داود كان رجل حرب، قتل قائد جيش الأعداء جالوت، وذكر أنه أتاه الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

٢- ذكر الله ما سخره الله لعبده ونبيه داود:

أخبرنا ربنا - عز وجل - بما سخره لداود، فقد سخر له الجبال يسبحن معه بالعشي والإشراق، والطيور محشورة له كل له أواب ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:١٧-٢٠].

أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يذكر عبده الذي اختاره واصطفاه، وهو داود عليه السلام، ووصفه بأنه ذو الأيد، والأيد القوة في العبادة والطاعة والعمل الصالح، ولذا

فإن رسولنا أخبرنا أن أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صوم داود، قال رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً، ويفطر يوماً» [البخاري: ١١٣١، مسلم: ١١٥٩].

وقوله في صفة عبده داود (أواب) أي: كان رجّاعاً إلى الله في جميع أموره وشؤونه. وذكر لنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سخر لداود الجبال يسبحن بالعشي والإشراق، والعشي آخر النهار، والإشراق: شروق الشمس، وقوله: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص:١٩] أي: محبوسة في الهواء لسماع صوته، وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ أي: مطيع، يسبح تبعاً له.

وقال ربنا في هذا الذي خص به داود ﷺ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٩].

وقال في موضع ثالث: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ:١٠].

٣ـ أوتي داود أحسن الأصوات:

أُعطي نبي الله داود ﷺ من حسن الصوت ما لم يعطه أحد قط، حتى إن الجبال والطير تؤوب معه، أي يرددن التسبيح معه، وقد سمع الرسول ﷺ صوت أبي موسى الأشعري، وهو يقرأ، فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود» [عزاه ابن كثير في قصص الأنبياء، ص٢٥٤ إلى أحمد، وقال: هذا على شرط الشيخين، ولم يخرجاه من هذا الوجه]. وكان أبو موسى حسن الصوت في تلاوة القرآن.

٤ـ خفف على داود قراءة القرآن:

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «خفف على داود ﷺ القرآن، فكان يأمر دوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه» [البخاري: ٣٤١٧].

والمراد بالقرآن في الحديث الزبور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء:٥٥]. وفي الحديث أن داود كان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع.

٥- شد الله ملكه وآتاه فصل الخطاب:

ومما وهبه الله - تبارك وتعالى - لداود ما ذكره الله في قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠] أي: جعل الله له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال مجاهد: «كان أشد أهل الدنيا سلطاناً» والحكمة، قال مجاهد: «الفهم والعقل والفطنة»، وقال مرة: «الحكمة والعدل» [تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٩٠].

٦- ألان الله الحديد لداود:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه ألان لعبده داود الحديد، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠] قال بعض أهل العلم: كان لا يحتاج أن يدخل الحديد ناراً، ولا يطرقه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١١] أي: دروعاً سابغة، وهذا تعليم من الله لنبيه داود ﷺ صناعة الدروع، قال ابن عباس: (السرد) حَلَق الحديد، وقال بعضهم: درع مسرودة: إذا كانت مسمورة الحَلَق [ابن كثير: ٣/ ١٨٩٩].

٧- إعجاب نبي الله داود ﷺ بجيشه:

تذكر التوراة أن داود عدّ الرجال المقاتلين من شعبه، فبلغوا عدداً كبيراً، فأعجب بهم، فخيّره الله بين ثلاث، ففي التوراة، أن داود بعدما كان من إعجابه بالمقاتلين من شعبه أمر الله جاد النبي رائي داود قائلاً: «١٢«اِذْهَبْ وَقُلْ لِدَاوُدَ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: ثَلاَثَةٌ أَنَا عَارِضٌ عَلَيْكَ، فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وَاحِدًا مِنْهَا فَأَفْعَلَهُ بِكَ». ١٣فَأَتَى جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَأَخْبَرَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَأْتِي عَلَيْكَ سَبْعُ سِنِي جُوعٍ فِي أَرْضِكَ، أَمْ

تَهْرُبُ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ أَمَامَ أَعْدَائِكَ وَهُمْ يَتْبَعُونَكَ، أَمْ يَكُونُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَبَأٌ فِي أَرْضِكَ؟ فَالآنَ اعْرِفْ وَانْظُرْ مَاذَا أَرُدُّ جَوَابًا عَلَى مُرْسِلِي». ١٤ فَقَالَ دَاوُدُ لِجَادٍ: «قَدْ ضَاقَ بِيَ الأَمْرُ جِدًّا. فَلْنَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ وَلاَ أَسْقُطْ فِي يَدِ إِنْسَانٍ».
١٥ فَجَعَلَ الرَّبُّ وَبَأً فِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمِيعَادِ، فَمَاتَ مِنَ الشَّعْبِ مِنْ دَانٍ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ سَبْعُونَ أَلْفَ رَجُلٍ. ١٦ وَبَسَطَ الْمَلاَكُ يَدَهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ لِيُهْلِكَهَا، فَنَدِمَ الرَّبُّ عَنِ الشَّرِّ[1]، وَقَالَ لِلْمَلاَكِ الْمُهْلِكِ الشَّعْبَ: «كَفَى! الآنَ رُدَّ يَدَكَ». وَكَانَ مَلاَكُ الرَّبِّ عِنْدَ بَيْدَرِ أَرُونَةَ الْيَبُوسِيِّ. ١٧ فَكَلَّمَ دَاوُدُ الرَّبَّ عِنْدَمَا رَأَى الْمَلاَكَ الضَّارِبَ الشَّعْبَ وَقَالَ: هَا أَنَا أَخْطَأْتُ، وَأَنَا أَذْنَبْتُ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ الْخِرَافُ فَمَاذَا فَعَلُوا؟ فَلْتَكُنْ يَدُكَ عَلَيَّ وَعَلَى بَيْتِ أَبِي» [سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الرابع والعشرون: ١٢-١٧].

وذكرت التوراة هذه القصة في أخبار الأيام الأول الإصحاح الحادي والعشرون: ٩-١٦.

٨- قصة هذا النبي في الحديث الصحيح:

روى الإمام أحمد في مسنده عن صهيب، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى هَمَسَ شيئاً لا أفهمه، ولا يُخبرنا به، قال: أفطنتم لي؟ قلنا: نعم، قال: إني ذكرت نبياً من الأنبياء أُعطي جنوداً من قومه، (وفي رواية: أُعجب بأمته). فقال من يكافئ هؤلاء؟ - أو من يقوم لهؤلاء؟ أو غيرها من الكلام -.

فأُوحي إليه: أن اختر لقومك إحدى ثلاث: إما أن نُسلِّط عليهم عدواً من غيرهم، أو الجوعَ، أو الموتَ، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنت نبي الله، فكل ذلك إليك، خِرْ لنا، فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة، فصلّى ما شاء الله.

(١) الله لا يندم تبارك وتعالى.

قال: ثم قال: أي رب، أما عدو من غيرهم فلا، أو الجوع، فلا، ولكن الموت، فسُلِّط عليهم الموت، فمات منهم سبعون ألفاً، فهمسي الذي ترون أني أقول: اللهم بك أُقاتل، وبك أُصاوِل، ولا حول ولا قوة إلا بالله» [عزاه الألباني في سلسلة الصحيحة: ٥/ ٥٨٨، ورقمه فيها: ٢٤٥٥ إلى أحمد والترمذي ومسلم].

٩- شرح هذا الحديث:

أخبرنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث قصة نبي من أنبياء الله رزقه الله أمة كثيرة العدد قوية البأس، فنظر فيها أعطاه الله، فأعجبه ما رأى، ووقع في نفسه أنه لا يقوم لأمته أحد، ولا يستطيع أن يتغلب عليها متغلب، وهذه القصة موجودة في التوراة، والنبي الذي جرت له هو نبي الله داود كما سبق بيانه.

وما هكذا يكون موقف من بلغ مرتبة النبوة، فإن الإعجاب بالنفس أو بالأولاد أو الأموال أو الأمة مرض خبيث، والمؤمن الحق لا تغرُّه في مواجهة الأعداء كثرة جيشه، ولا تضيره قلته، فالنصر من عند الله وحده ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

وفي بعض الأحيان يكون الإعجاب بالكثرة سبب الهزيمة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

وقد عوقب ذلك النبي في أمته، طلب الله منه أن يختار لقومه واحدة من ثلاث، إما أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، أو يسلط عليهم الجوع، أو يصيبهم بالموت.

وقد سألت نفسي عن السر في تخييره بين هذه الخصال الثلاث، فوجدت أن كل واحدة من الثلاث تُذهِب قوة هذه الأمة وتضعفها، وتزيل العجب الذي حلّ في قلوبها وقلب نبيها، فإذا سلط الله عليهم عدوهم، فإنه يذلهم ويستبيح بيضتهم،

وإن سلط عليهم الجوع فإن قوتهم تذهب، ويسهل التغلب عليهم، وإن أصابهم الموت قلّ عددهم.

واختيار واحدة من هذه الثلاث أمر محير، يحتاج إلى موازنة بين الثلاثة، وقد استشار هذا النبي قومه، فردُّوا الأمر إليه، فهو نبي الله، والأنبياء مهديون مسدَّدون.

وقد كان اختيار النبي موفقاً، لأنه اختار لهم الموت، دون الإصابة بالجوع أو تسليط عدوهم عليهم، ولو كان الذي اختار واحدٌ من أصحاب المقاييس الدنيوية لاختار غير ما اختاره داود.

قد يظن بعض الذين لم يوفقوا للسداد أن الخيار الأنسب هو تسليط أعدائهم عليهم، لأنهم لا يفقدون أرواحهم، وإن كان العدو قد يسفك دماء بعضهم، ولكن ذلك النبي لا يرضى لقومه الإذلال والإهانة، وقد لا ينجيهم تسليط العدو عليهم من القتل.

وتسليط الجوع فيه عذاب شديد، وقد يكون الجوع سبباً للضعف الذي يسلط الأعداء به عليهم، وقد يميت الكثير منهم.

أما خيار الموت فإنه اختيار لأمر آتٍ لا بد منه، فمن لم يمت اليوم سيموت غداً أو بعد غد، وليس منه مهرب أو مفر.

اختار لهم الموت، فالذين يمضون إلى ربهم يرجى لهم أن يكونوا مقبولين عنده، والذين يبقون بعدهم سيتعظون بما وقع لهم، وقد يكثرهم الله - إن شاء - بعد قِلَّتهم، فالأمر بيد الله.

لقد فزع داود إلى الصلاة، وهكذا الأنبياء والصالحون عندما يحزبهم أمر يقومون إلى الصلاة، فصلّى ما شاء الله له أن يصلي، فوفقه الله لاختيار أهون الأمور، وقال لربه: أما عدو من غيرهم فلا، أو الجوع فلا، ولكن الموت.

وسَرَى فيهم الموت سريان النار في الهشيم، فحصدهم حصداً، وأباد خضراءهم، فمات منهم في يوم واحد سبعون ألفاً.

إن عاقبة إعجاب ذلك النبي بقومه مخيفة، وقد كان الرسول ﷺ يخاف على أصحابه مثل تلك العاقبة، فكان عقب الصلاة يقول همساً: «اللهم بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل» وهو في ذلك يستحضر قصة ذلك النبي، فيدعو بهذا الدعاء الذي يتوجه به إلى الله متبرئاً من حوله وقوته، ومن الاعتماد على قوة أصحابه وبأسهم، فهو في مواجهة الأعداء يعتمد على الله دون سواه، فمنه وحده العون وبه النصر، ولا حول ولا قوة إلا به.

١٠ـ تشويه اليهود سيرة نبي الله داود:

رمى اليهود نبي الله داود وهو الشريف العفيف الورع التقي بالفاحشة، فذكروا فيما نسبوه إلى داود زوراً وكذباً أنه رأى امرأة جميلة المنظر تستحم، فأرسل إليها وجيء بها إليه، فضاجعها، وحملت منه، وكان زوجها رجلاً مقاتلاً في ميدان القتال اسمه «أوريا الحثي».

وقد أمر داود قواده أن يجعلوا (أوريا) في مقدمة المقاتلين، فإذا احتدم القتال رجعوا عنه، فلما فعلوا ما أمرهم داود به سقط (أوريا) صريعاً، عند ذلك تزوج داود بزوجته من بعده، ومات الولد الذي حملت به، ثم حملت بعد ذلك، فكان ذلك الولد سليمان [صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر: ٣-٢٧].

وتذكر التوراة أن الله أرسل (ناثان) إلى (داود) فجاء إليه، وقال له «كَانَ رَجُلاَنِ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَنِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ. ٢وَكَانَ لِلْغَنِيِّ غَنَمٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا. ٣وَأَمَّا الفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ اقْتَنَاهَا وَرَبَّاهَا وَكَبِرَتْ مَعَهُ وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا. تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ. ٤فَجَاءَ ضَيْفٌ إِلَى الرَّجُلِ الغَنِيِّ، فَعَفَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الفَقِيرِ وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ». ٥فَحَمِيَ غَضَبُ دَاوُدَ عَلَى الرَّجُلِ جِدًّا، وَقَالَ لِنَاثَانَ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، إِنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ الفَاعِلُ ذلِكَ، ٦وَيَرُدُّ النَّعْجَةَ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ لأَنَّهُ فَعَلَ هذَا الأَمْرَ وَلأَنَّهُ لَمْ

يُشْفِقْ». ٧فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا
مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، ٨وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ
سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. وَإِنْ كَانَ ذلِكَ قَلِيلاً، كُنْتُ أَزِيدُ
لَكَ كَذَا وَكَذَا. ٩لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا
الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. ١٠وَالآنَ
لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ
لَكَ امْرَأَةً. ١١هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ
عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. ١٢لأَنَّكَ
أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ». ١٣فَقَالَ
دَاوُدُ لِنَاثَانَ: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ». فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ
خَطِيَّتَكَ. لاَ تَمُوتُ. ١٤غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ
يَشْمَتُونَ، فَالابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ». ١٥وَذَهَبَ نَاثَانُ إِلَى بَيْتِهِ» [صموئيل الثاني،
الإصحاح الثاني عشر: ١-١٥].

وهذه القصة فيها كثير من الكذب، فقد شوهوا سيرة نبي الله داود، عندما نسبوا إليه الزنى، وزادوا في تشويه سيرته عندما زعموا أنه زنى بزوجة أحد الجنود الذين يقاتلون في الميدان، وكذبوا عليه عندما زعموا أن الله أرسل إليه نبياً يؤنبه ويحاسبه، وهو النبي المعصوم من الوقوع فيما افتروه عليه من الفواحش.

والقصة التي ذكروها مدعين أن نبياً ضربها مثلاً لداود جرت على خلاف ما ذكروا أنها جرت عليه، قال الله تعالى في كتابه العزيز القرآن، ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ

﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص:٢١-٢٦].

إن هذه القصة التي أوردها القرآن قصة كاملة، واضحة المعالم مفسرة بينة والمشكلة التي في القصة أن داود عليه السلام حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الخصم الثاني، ولذلك قال الله له: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص:٢٦].

وليس في هذه القصة ذكر ما افتراه اليهود على نبي الله داود عليه السلام، إلا بشيء من التعسف في فقه النص القرآني.

١١ـ قصة وفاة نبي الله داود في التوراة:

تذكر التوراة أن عمر داود عندما توفي كان سبعين سنة، ففي [سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس: ٤-٥] أن «داود كان ابن ثلاثين سنة حين ملك، ومَلَكَ أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا».

وهذا غير صحيح، والصواب أن عمره كان مائة سنة، كما أوردت ذلك في قصة آدم عليه السلام، عندما ذكرت عمر آدم عليه السلام.

وقد ذكرت التوراة خبراً آخر غير صحيح أيضاً، ذكرت في سفر الملوك الأول أن داود شاخ في آخر عمره، ولزم الفراش، وفَقَدَ قواه، فكانوا يدثرونه بالثياب، فلا يدفأ، فجاؤوه بفتاة جميلة تبيت في حضنه لتدفئه.

تصويب الحديث النبوي لتحريف التوراة:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أُغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع.

قال: فخرج ذات يوم وغُلِّقت الدار، فأقبلت امرأته تطّلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار، والدار مغلقة؟ والله لَنُفْتَضَحَنَّ، بداود.

فجاء داود: فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني شيء. فقال داود: أنت والله ملك الموت، فمرحباً بأمر الله، فرمل داود مكانه حيث قُبضت روحه، حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس.

فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلّت عليه الطير، حتى أظلمت عليهما الأرض. فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً، قال أبو هريرة يُرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير، وقُبض رسول الله ﷺ، وغلبت عليه يومئذ المضرحيَّة».

[هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: (٢/ ٤١٩) وقال ابن كثير بعد سياقه له: «انفرد بإخراجه أحمد، وإسناده جيد قوي، رجاله ثقات». البداية والنهاية: (٢/ ١٧) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: (٨/ ٢٠٧) ثم قال في تخريجه: رواه أحمد، وفيه المطلب بن عبدالله بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح].

شرح هذا الحديث:

هذا الحديث فيه قصة وفاة نبي الله داود، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنه كان يوم وفاته في كامل صحته، وتمام عافيته، لا كما يزعم الذين دونوا التوراة، أن داود في آخر أيامه شاخ، ولزم الفراشِ، وفقد قواه، فكانوا يدثرونه بالثياب فلا يدفأ، وأنهم أحضروا له فتاة جميلة كي تضطجع في حضنه ليدفأ، وذكروا وصايا أوصى بها داود ابنه سليمان وهو في النزع.

وقد جاء هذا الحديث مصوباً لخبر وفاة داود الذي ذكروه في كتابهم، فداود عليه السلام لم يمرض قبل وفاته، ولم يكن بحاجة إلى فتاة تدفئه، ولست أدري لِمَ يُصر الذين حرّفوا التوراة على تلطيخ الأنبياء وتقذير سيرتهم، فسليمان في زعمهم ساحر عبد

الأصنام، ولوط زنى بابنتيه، وداود لم يدفئه إلا فتاة صغيرة جميلة تضطجع في حضنه في مرض موته، كأنه لا يوجد عند ملك عظيم مثل داود وسائل تدفئة تدفع عنه البرد الذي أصابه.

إن داود عليه السلام لم يشخ، ولم يفقد قواه، ولم يمرض، فقد خرج داود في ذلك اليوم من داره كما كان يخرج في كل يوم، وكان فيه غيرة شديدة، ولذا فإن الأبواب كانت تقفل بعد خروجه، فلا يدخل على أهله بعد خروجه أحد، فلما خرج في ذلك اليوم أقبلت امرأته تطلع على دارها، وتتفقد أحوالها، فوجدت رجلاً قائماً في وسط الدار، فعجبت من أمره، وكيفية دخوله، مع أن الدار مغلقة أبوابها بإحكام، وسألت أهل منزلها وخدمها عن كيفية دخوله الدار، وخشيت من غضب داود إذا رجع فوجد رجلاً في داره.

فلم يمض وقت طويل حتى جاء داود والرجل على حاله في الدار غير هياب ولا وجل، وعادة الرجال أن يفزعوا من مقابلة الملوك، ويحذروا من الدخول عليهم في منازلهم.

وسأل داود ذلك الرجل عن نفسه، فوصف نفسه وصفاً عرفه به داود، فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا أمنع من الحجاب، فعرفه داود بنعته نفسه، وقال: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه.

وأخبرنا نبينا ﷺ أنه لما غسل وكفن وفرغ من تجهيزه طلعت عليه الشمس، فأمر سليمان الطير أن تظله بأجنحتها، فأظلته وأظلت مشيعيه، فكان لا ينفذ إلى المشيعين شيء من أشعة الشمس، حتى أظلمت الأرض، عند ذلك أمر سليمان الطير أن تقبض جناحاً، وقد أراهم الرسول ﷺ ممثلاً بيديه كيف قبضت الطيور بأجنحتها، كما أخبرهم أن الصقور الطويلة الجناح، وهي التي سماها الرسول ﷺ المضرحيَّة، غلبت غيرها في التظليل على داود في ذلك اليوم.

ما طولت به التوراة من ذكر دور داود في القتال وكيف قتل جالوت قائد جيش الأعداء لم يذكر منه القرآن إلا قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١]. وقد صرح لنا القرآن تصريحاً لا لبس فيه أن داود كان نبياً، وليس رجلاً صالحاً كما ذكرت التوراة.

وقد ذكر الله فضل داود ﷺ، وما سخره له، وذكر لنا رسولنا ﷺ شيئاً من سيرة داود في صيامه وقيامه وقتاله، وأخبرنا رسولنا ﷺ بمدى حسن صوته، وكيف خُفِّفت القراءة عليه، وكيف شدَّ الله ملكه، وألان له الحديد.

وما ذكرته التوراة من إعجاب نبي الله داود بجيشه صدقه القرآن، ولكن صوب مسار القصة، فالموحى إليه في تخيير داود بين ثلاث هو داود نفسه، لأنه كان هو النبي، وليس نبياً غيره كما ذكرت التوراة.

والذي في الحديث تخيير داود بين تسليط العدو، أو الجوع، أو الموت، وليس فيه أن الجوع يكون سبع سنين، وأن الهرب يكون ثلاثة أشهر، وأن الموت يكون ثلاثة أيام، فلا نجزم بمدى صحة ذلك.

ولم تذكر التوراة أن داود استشار قومه، فردوا الأمر إليه، ولم تذكر التوراة أن داود قام يصلي، حتى هداه الله لما اهتدى إليه.

وصدق الحديث خبر التوراة أنه مات من بني إسرائيل في تلك الواقعة سبعون ألفاً.

وما ذكرته التوراة من وقوع داود في الفاحشة، وزنى ابن داود بأخته من أبيه هو من الكذب على نبي الله داود والكذب على أهل بيته الأطهار، وقد برأه الله مما افتراه الذين حرفوا التوراة على هذا النبي الصالح وأهل بيته. وما ذكرته التوراة من أن القصة التي ذكرها النبي ناثان إلى داود، وربطها بزنى نبي الله داود كله غير صحيح، وقد أوردنا النص القرآني الذي يصف القصة كما وقعت.

ولم تصب التوراة فيما ذكرته أن عمر داود كان سبعين عاماً عندما توفاه الله، والصواب أن عمره كان مائة عام كما نص عليه حديث صحيح سبق ذكره في قصة آدم. ولم تصب التوراة في دعواها أن داود كان طريح الفراش عندما جاءه الموت، فقد كان داود في كامل قوته وصحته عندما جاءه ملك الموت فقبض روحه، كما بيّنه حديث رسولنا ﷺ.

القصة الثانية والعشرون
قصة نبي الله سليمان عليه السلام

أولا: تقديم

وهب الله لنبيه سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأعطاه الله مع الملك النبوة والعلم والحكمة، وكان لا يستطيع أن يقف في وجهه أحد.

وما ذكرته التوراة في قصته لا يناسب عظمة ملكه، فبعض الوقائع التي حدثنا بها القرآن عنه، وعن عظمة ملكه غير موجودة في التوراة، وبعض الموجود في التوراة أحداثه باهتة، وأضواؤه خافتة.

وقد جاءت وقائع قصة سليمان في القرآن واضحة جلية كأنها عروس متجملة متعطرة ظاهرة، تزكي القلب، وتفرح النفس، وتسوق العبر، وتهدي للتي هي أقوم.

ثانيا: هذه القصة في التوراة

تذكر التوراة أن الملك سليمان هو ابن الملك داود من امرأته التي تزوج بها بعد زناه بها، وقد أوصاه قبل أن يقبض، وأمره أن يحفظ شعائر الله، ووصى له بالملك من بعده [سفر الملوك الأول، الإصحاح الثاني].

وبعد أن ملك سليمان بطش بعدد من الأشخاص وقتلهم، منهم أخ له، وصاهر سليمان فرعون، فتزوج سليمان ابنته، وفي رؤيا لسليمان رأى فيها ربّه، وطلب سليمان منه أن يعطيه قلباً فهيماً، ليحكم الشعب، وليميز بين الخير والشر،

فسرَّ الله بطلبه، لأنه لم يطلب منه أياماً كثيرة، ولم يطلب منه مالاً كثيراً، ولم يسأل النصر على أعدائه، بل سأله أن يفقهه، ويعطيه قلباً حكيماً مميزاً.

وذكرت التوراة أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً، فملك من النهر إلى فلسطين، وإلى تخوم مصر، وخضع له عدد كبير من الجنود، وبنى سليمان بيت الرب، وجدّد بناءه، وجعل فيه مكاناً للتابوت، وجعل الله المسجد الذي بناه سليمان قبلة بني إسرائيل في صلاتهم.

وتذكر التوراة أن سليمان كان له سبعمائة من الزوجات، وثلاثمائة من السراري، وكان من زوجاته ابنة فرعون، وكان في زوجاته موآبيات وعمونيات، وأدوميات وصيدونيات وحثيات، وتحدثت التوراة أن نساء سليمان أملن قلبه، وفي شيخوخته ذهب قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتاروت (عشتروت) إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه.

وبنى لكل نوع من زوجاته بيتاً لآلهتهن في المرتفعات، وكانت تلك الزوجات يوقدن ويذبحن لآلهتهن.

ونتيجة لشرك سليمان وكفره مزق الله مملكته، وأعطى المملكة لغيره، وتوفى الله سليمان، ودفن في مدينة داود [الملوك الأول، من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الحادي عشر].

حكم سليمان بين المرأتين اللتين مات ابن إحداهما:

تذكر التوراة أحد الأحكام السديدة التي أحسن داود الحكم فيها، جاء في التوراة: «١٦ حِينَئِذٍ أَتَتِ امْرَأَتَانِ زَانِيَتَانِ إِلَى الْمَلِكِ وَوَقَفَتَا بَيْنَ يَدَيْهِ. ١٧ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ الْوَاحِدَةُ: «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي. إِنِّي أَنَا وَهذِهِ الْمَرْأَةُ سَاكِنَتَانِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ وَلَدْتُ مَعَهَا فِي الْبَيْتِ. ١٨ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ بَعْدَ وِلاَدَتِي وَلَدَتْ هذِهِ الْمَرْأَةُ أَيْضًا، وَكُنَّا مَعًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَنَا غَرِيبٌ فِي الْبَيْتِ غَيْرَنَا نَحْنُ كِلْتَيْنَا فِي الْبَيْتِ. ١٩ فَمَاتَ ابْنُ هذِهِ فِي

اللَّيْلِ، لأَنَّهَا اضْطَجَعَتْ عَلَيْهِ. ٢٠فَقَامَتْ فِي وَسَطِ اللَّيْلِ وَأَخَذَتِ ابْنِي مِنْ جَانِبِي
وَأَمَتُكَ نَائِمَةٌ، وَأَضْجَعَتْهُ فِي حِضْنِهَا، وَأَضْجَعَتِ ابْنَهَا الْمَيْتَ فِي حِضْنِي. ٢١فَلَمَّا
قُمْتُ صَبَاحًا لأُرْضِعَ ابْنِي، إِذَا هُوَ مَيْتٌ. وَلَمَّا تَأَمَّلْتُ فِيهِ فِي الصَّبَاحِ، إِذَا هُوَ لَيْسَ
ابْنِيَ الَّذِي وَلَدْتُهُ». ٢٢وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ الأُخْرَى تَقُولُ: «كَلاَّ، بَلِ ابْنِيَ الْحَيُّ وَابْنُكِ
الْمَيْتُ». وَهذِهِ تَقُولُ: «لاَ، بَلِ ابْنُكِ الْمَيْتُ وَابْنِيَ الْحَيُّ». وَتَكَلَّمَتَا أَمَامَ الْمَلِكِ. ٢٣فَقَالَ
الْمَلِكُ: «هذِهِ تَقُولُ: هذَا ابْنِيَ الْحَيُّ وَابْنُكِ الْمَيْتُ، وَتِلْكَ تَقُولُ: لاَ، بَلِ ابْنُكِ الْمَيْتُ
وَابْنِيَ الْحَيُّ». ٢٤فَقَالَ الْمَلِكُ: «اِيتُونِي بِسَيْفٍ». فَأَتَوْا بِسَيْفٍ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ. ٢٥
فَقَالَ الْمَلِكُ: «اشْطُرُوا الْوَلَدَ الْحَيَّ اثْنَيْنِ، وَأَعْطُوا نِصْفًا لِلْوَاحِدَةِ وَنِصْفًا لِلأُخْرَى».
٢٦فَتَكَلَّمَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي ابْنُهَا الْحَيُّ لِلْمَلِكِ، لأَنَّ أَحْشَاءَهَا اضْطَرَمَتْ عَلَى ابْنِهَا،
وَقَالَتِ: «اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي. أَعْطُوهَا الْوَلَدَ الْحَيَّ وَلاَ تُمِيتُوهُ». وَأَمَّا تِلْكَ فَقَالَتْ: «لاَ
يَكُونُ لِي وَلاَ لَكِ. اُشْطُرُوهُ». ٢٧فَأَجَابَ الْمَلِكُ وَقَالَ: «أَعْطُوهَا الْوَلَدَ الْحَيَّ وَلاَ تُمِيتُوهُ
فَإِنَّهَا أُمُّهُ». ٢٨وَلَمَّا سَمِعَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ بِالْحُكْمِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ الْمَلِكُ خَافُوا الْمَلِكَ،
لأَنَّهُمْ رَأَوْا حِكْمَةَ اللهِ فِيهِ لإِجْرَاءِ الْحُكْمِ» [سفر الملوك الأول، الإصحاح الثالث: ١٦-٢٨].

ما جرى بين ملكة سبأ وسليمان:

تحدثت التوراة عن مجيء ملكة سبأ إلى سليمان، ومن كان منها، وما كان من
سليمان، جاء في التوراة: «١وَسَمِعَتْ مَلِكَةُ سَبَا بِخَبَرِ سُلَيْمَانَ لِمَجْدِ الرَّبِّ، فَأَتَتْ
لِتَمْتَحِنَهُ بِمَسَائِلَ. ٢فَأَتَتْ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ جِدًّا، بِجِمَال حَامِلَةٍ أَطْيَابًا
وَذَهَبًا كَثِيرًا جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. وَأَتَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَتْهُ بِكُلِّ مَا كَانَ بِقَلْبِهَا.
٣فَأَخْبَرَهَا سُلَيْمَانُ بِكُلِّ كَلاَمِهَا. لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مَخْفِيًّا عَنِ الْمَلِكِ لَمْ يُخْبِرْهَا بِهِ. ٤فَلَمَّا رَأَتْ
مَلِكَةُ سَبَا كُلَّ حِكْمَةِ سُلَيْمَانَ، وَالْبَيْتَ الَّذِي بَنَاهُ، ٥وَطَعَامَ مَائِدَتِهِ، وَمَجْلِسَ عَبِيدِهِ،
وَمَوْقِفَ خُدَّامِهِ وَمَلاَبِسَهُمْ، وَسُقَاتَهُ، وَمُحْرَقَاتِهِ الَّتِي كَانَ يُصْعِدُهَا فِي بَيْتِ الرَّبِّ، لَمْ
يَبْقَ فِيهَا رُوحٌ بَعْدُ. ٦فَقَالَتْ لِلْمَلِكِ: «صَحِيحًا كَانَ الْخَبَرُ الَّذِي سَمِعْتُهُ فِي أَرْضِي
عَنْ أُمُورِكَ وَعَنْ حِكْمَتِكَ. ٧وَلَمْ أُصَدِّقِ الأَخْبَارَ حَتَّى جِئْتُ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ،
فَهُوَذَا النِّصْفُ لَمْ أُخْبَرْ بِهِ. زِدْتَ حِكْمَةً وَصَلاَحًا عَلَى الْخَبَرِ الَّذِي سَمِعْتُهُ. ٨طُوبَى

لِرِجَالِكَ وَطُوبَى لِعَبِيدِكَ هؤُلاَءِ الوَاقِفِينَ أَمَامَكَ دَائِمًا السَّامِعِينَ حِكْمَتَكَ. ٩لِيَكُنْ مُبَارَكًا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي سُرَّ بِكَ وَجَعَلَكَ عَلَى كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ. لأَنَّ الرَّبَّ أَحَبَّ إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ جَعَلَكَ مَلِكًا، لِتُجْرِيَ حُكْمًا وَبِرًّا». ١٠وَأَعْطَتِ المَلِكَ مِئَةً وَعِشْرِينَ وَزْنَةَ ذَهَبٍ وَأَطْيَابًا كَثِيرَةً جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِثْلُ ذلِكَ الطِّيبِ فِي الكَثْرَةِ، الَّذِي أَعْطَتْهُ مَلِكَةُ سَبَا لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ. ١١وَكَذَا سُفُنُ حِيرَامَ الَّتِي حَمَلَتْ ذَهَبًا مِنْ أُوفِيرَ، أَتَتْ مِنْ أُوفِيرَ بِخَشَبِ الصَّنْدَلِ كَثِيرًا جِدًّا وَبِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ. ١٢فَعَمِلَ سُلَيْمَانُ خَشَبَ الصَّنْدَلِ دَرَابَزِينًا لِبَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ المَلِكِ، وَأَعْوَادًا وَرَبَابًا لِلْمُغَنِّينَ. لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يُرَ مِثْلُ خَشَبِ الصَّنْدَلِ ذلِكَ إِلَى هذَا اليَوْمِ. ١٣وَأَعْطَى المَلِكُ سُلَيْمَانُ لِمَلِكَةِ سَبَا كُلَّ مُشْتَهَاهَا الَّذِي طَلَبَتْ، عَدَا مَا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ حَسَبَ كَرَمِ المَلِكِ سُلَيْمَانَ. فَانْصَرَفَتْ وَذَهَبَتْ إِلَى أَرْضِهَا هِيَ وَعَبِيدُهَا» [سفر الملوك الأول، الإصحاح العاشر: ١-١٣].

ثالثاً: التعقيب على هذه القصة

١- ثناء الله على سليمان:

ذكر الله تبارك وتعالى سليمان كثيراً في القرآن، فمن ذلك أن الله وهب لداود سليمان عليهما السلام، وأن سليمان كان نِعْمَ العبد، وكان أواباً ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص:٣٠] وأثنى الله على سليمان وأبيه داود بما وهبه إياهما من العلم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل:١٥] وأخبرنا ربنا أن سليمان ورث داود، أي في النبوة والملك، وعلم منطق الطير، وأوتي من كل شيء ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل:١٦].

وزعم اليهود أن سليمان كفر وأشرك لما كبر، وأنه عبد آلهة نسائه، وجعل بيوتاً لتلك الآلهة، وأنه حكم قومه بالسحر، فبرأه الله مما رماه بنو إسرائيل به، فقال عز من

قائل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وكل ما ذكره الله تعالى عن سليمان وثنائه عليه والإخبار عن نبوته، وأنه من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فيه ردّ على سفهاء بني إسرائيل الذين سطروا في التوراة الكذب والافتراء على نبي الله سليمان، عليه وعلى أبيه أزكى الصلاة والسلام.

٢- إصابة سليمان في حكمه وقضائه:

ذكر الله لنا أكثر من واقعة أصاب فيها سليمان الحكم في قضائه، واستعمل طرقاً أظهرت الحق وبيّنته، فمن ذلك ما ذكرته التوراة من تحديد الابن الذي ادعته كل من المرأتين، فأمر بشقه بينهما، فعند ذلك طلبت أمّه الحقيقية أن يعطوه للأخرى لتضمن حياته، بينما وافقت الأخرى على شقّه، فاستدلّ داود على ذلك بأن التي رفضت موته هي أمه، وأمر بإعطائه لها.

وهذه القصة فيها خلل في التوراة، فوقائعها لم تجر كما أخبرت بها التوراة، وقد جاء عن نبينا ﷺ حديث صحيح يتحدث عن هذه الواقعة كما جرت.

٣- الحديث الوارد في هذه القصة:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى».

قال أبو هريرة: والله إن سمعتُ بالسكين قط إلا يومئذٍ، وما كنا نقول إلا المُدْيَة [البخاري: ٣٤٢٧. مسلم: ١٧٢٠].

٤ـ شرح هذا الحديث:

وهذه القصة وقعت في عهد نبي الله داود ﷺ، فقد تحاكمت إليه امرأتان، ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا في الولد الآخر، كل تدعي أنه ولدها، فاجتهد نبي الله داود في الحكم بينهما، فأداه اجتهاده بالحكم به للكبرى بدلائل استدلّ بها على ذلك.

فلما خرجتا مارّتين على نبي الله سليمان، رأى أن يستخدم معهما طريقة يستطيع من خلالها أن يعرف الأم الحقيقية، فطلب ممن حوله أن يأتوه بسكين ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطي كل واحدة منهما نصفاً، وبذا يعدل بينهما في الحكم، وقد ظنت المرأتان أن سليمان جاد وعازم على تحقيق هذا الحكم، وهنا ظهر رد فعل كل واحدة منهما، فالأم الحقيقية، وهي الصغرى جزعت من الحكم، لأن فيه هلاك ولدها، فطابت نفسها به للأخرى، لأن في ذلك بقاءه وحياته، وإن كان فيه حرمانها من رعايته وتربيته، أما الأخرى التي لا تربطها بالطفل رابطة الأمومة، فإنها قبلت بالحكم الذي أظهره سليمان، فاستدلّ سليمان بذلك على معرفة الأم الحقيقية، فحكم لها بالطفل، مع إقرارها به للأخرى.

قال النووي رحمه الله تعالى: «توصل سليمان بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية، فأوهمهما أنه يريد قطعه، ليعرف من يشُقّ عليها قطعه، فتكون هي أمه، فلما أرادت الكبرى قطعه عرف أنها ليست أمه، فلما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه، ولم يكن مراده أن يقطعه حقيقية، وإنما أراد اختبار شفقتهما، لتتميز له الأم، فلما تميزت بما ذكرت عرفها» [شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٣٨١].

وهذا الذي أظهر به سليمان الحق، هو نوع من الفراسة والحكم بالقرائن، والاستدلال بالأمارات، وعدم الوقوف مع مجرد ظواهر البينات والأحوال، وقد استدلّ الشاهد الذي شهد من أهل المرأة التي راودت نبي الله يوسف عن نفسه على كذبها، وصدق يوسف بأن قميصه قدّ من دبر، ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ

شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف:٢٦-٢٨].

وقد لجأ القضاة المسلمون إلى استخراج الحق بأنواع لطيفة من الدلائل والأمارات التي لا ينتبه إليها إلا من عظمت فطنته، وتبينت نباهته، وممن اشتهر بذلك من القضاة علي بن أبي طالب، والقاضي شريح، والقاضي إياس، وقد ذكر ابن القيم في كتابه (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) أمثلة كثيرة لهذا النوع، استخرج فيه القضاة الحق بالفراسة والأمارات [راجع الطرق الحكمية، ص٢٧. إغاثة اللهفان: ٢/ ٦٦ كلاهما لابن القيم].

٥- قصة حكم داود وسليمان في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم:

وقد أخبرنا القرآن بواقعة أخرى خالف فيها نبي الله سليمان أباه داود عليه السلام في الحكم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

والنفش هو رعي الغنم ليلاً، ويسمى رعي النهار: هملاً، وخلاصة القصة كما يقول علماء التفسير أن أغنام رجل دخلت في الليل بستان رجل آخر، فرعته حتى لم تُبقِ منه شيئاً.

فاحتكما إلى نبي الله داود، فحكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث، بدل ما أفسدته أغنامه من حرثه، وعندما مرَّ الخصمان بسليمان بعد خروجهما من مجلس القضاء لم يرتضِ هذا الحكم، ولما استعلم منه داود عن حكمه في القضية، أشار عليه بأن يعطي صاحب الحرث الغنم، فيستفيد من حليبها وصوفها وأولادها بقدر ما ضاع عليه من نتاج بستانه، ويعطي صاحب الغنم الأرض، فيقوم على رعايتها حتى

تعود كما كانت قبل أن ترعاها غنمه، فإذا عاد الحرث كما كان، أرجعه إلى صاحبه، واستعاد أغنامه، هذا خلاصة ما قاله أئمة التفسير في تفسير الواقعة المذكورة في النص القرآني، منهم ابن عباس، ومجاهد، وقتادة [راجع: تفسير الطبري، ١٧/ ٥٢، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٥٧٦].

٦- سليمان وملكة سبأ:

ما ذكرته التوراة قصة باهتة بالنسبة لما ذكره القرآن عن هذه القصة، وتبدأ هذه القصة في القرآن عندما تفقَّد سليمان جنده من الطير الذين سخرهم الله له، فوجد أحد الطيور من جنده، وهو الهدهد غائباً، فتهدده لغيابه عنه، مع عدم استئذانه منه، ولا يسقط تهديد سليمان إلا إذا جاء الهدهد بعذر يقبله منه، وهكذا القائد الحازم، يتابع جنده، ويتعرف على أحوالهم، ويعاقب المسيء، وينعم على المحسن ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢٠-٢١].

ولم يطل الهدهد الغيبة، وجاء إلى سليمان وأخبره خبراً عظيماً، أخبره أن لديه علماً عن ملكة سبأ لا علم لسليمان به، أخبره أنه وجد امرأة تملك مملكة سبأ، وهذه المرأة ملكها عظيم، فهي قد أوتيت من كل شيء تحتاجه في الحكم، ولها عرش عظيم، تجلس عليه عندما تحكم قومها.

وأخبره أنه وجدها وقومها يعبدون الشمس، فيسجدون لها من دون الله تعالى، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم الباطلة، فصدَّهم عن دين الله الحق، وأصبحوا ضالين غير مهتدين.

وقد كان الهدهد متأثراً بالحال الذي وجد عليها تلك المرأة وقومها، فقال في خطابه لسليمان بما ينبغي أن يكون عليه الحال من عبادة الله وحده، والسجود له وحده، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبْءَ في السموات والأرض ويعلم ما تخفون، وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لقد كان هذا الهدهد الذي نقل

الخبر لسليمان عالماً فقيهاً، عالماً بالحق الذي يستحقه ربُّ العزة، منكراً للشرك الذي يقترفه البشر.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل:٢٢-٢٦].

لقد كان خبر الهدهد عظيماً يستحق أن يتحقق فيه، ولذلك قال للهدهد: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين؟ وطلب من الهدهد أن يحمل كتابه إلى ملكة سبأ، وأوصل الهدهد الكتاب بأمانة، ووصل الخطاب إلى يد الملكة، وجمعت الملكة مستشاريها، وأخبرتهم بمحتوى خطاب سليمان، وأخبرتهم أن هذا الخطاب من سليمان، وأنه مفتتح بـ (بسم الله الرحم الرحيم)، وطلبت مشورتهم فيما يكون الرد عليه، ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النمل:٢٧-٣٢].

فأجاب الملأ من قومها أنهم على استعداد للحرب والقتال فهم أولي قوة وأولي بأس شديد، وردّوا الأمر في شأن إعلان القتال والتصدي للحرب إليها ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل:٣٣].

وقد كانت تلك الملكة ذات روية وحكمة، فلم تسارع برد فعل يدلّ على رغبتها في إثارة شر، وقالت فيما قالته: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ

أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل:٣٤-٣٥].

وعندما جاء المرسلون بالهدية غضب ورفض الهدية، وقال لهم: أتمدونني بالمال فما أعطاني الله خير مما أعطاكم، وأرجع هديتهم إليهم قائلاً: بل أنتم تفرحون بهديتكم، وتهددهم بأن يسير إليهم بقوات لا قِبَلَ لهم بها، وليخرجنهم من ديارهم، وهم أذلاء صاغرون ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل:٣٧] ومعنى ﴿صَٰغِرُونَ ﴾ أي: أذلاء.

وقد أحبَّ سليمان ﷺ أن يري ملكة سبأ ومن يأتي معها من قومها آية من الآيات تقربهم من الإيمان، فطلب من الملأ حوله قائلاً: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل:٣٨].

فعرض عليه عفريت من الجن أن يأتيه به قبل أن يقوم من مقامه، والعفريت هو العارم القوي، القادر على ما يقوم به مما يوكل إليه، والمقام هو الوقت الذي تستغرقها جلسته، وكان لجلسته وقت معلوم ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل:٣٩]، وقد تكفل له بحفظه والعناية به.

وهذا العرض يدلُّ على مدى القوة الفائقة التي يملكها بعض الجن في نقلهم للأشياء الثقيلة بسرعة خارقة من مسافات بعيدة، ومع ذلك فقد كان لدى سليمان من يملك قدرات أعلى، وأكثر وأدق وأعظم مما عرضه عليه العفريت، لقد وجد عند سليمان من يعرض عليه أن يأتي بعرش ملكة سبأ في لحظة، وعبر عن مدى السرعة بقوله: قبل أن يرتد إليك طرفك، أي: قبل أن تغمض عينك وتفتحها، أو قبل أن تنظر إلى الأفق البعيد، ثم تتوقف، وقد طلب سليمان من هذا القائل لهذا القول أن يفعل، فإذا بالعرش بجلالته وبهائه استقر في القاعة التي يجلس فيها، وهذا إنجاز لم يحققه البشر عبر تاريخهم، ولم يستطع البشر تحقيق مثل هذا مع تقدمهم

العلمي اليوم، وقد استعلى البشر اليوم بما حققوه من إنجازات علمية في مجال سرعة السيارات والطائرات والصواريخ، ولكن سليمان النبي أخبت وتواضع لجلال الله وعظمته، واعترف بفضله عليه، وعلم أنه اختبار من الله ليعلم مدى كفره أو شكره، ومن شكر ربه فشكره لنفسه، ومن كفر فإن الله غني كريم ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل:٤٠].

وطلب سليمان من بعض جنوده الذين عندهم بصيرة بما طلبه منهم، طلب أن يُنكِّروا لها عرشها، أي يدخلوا فيه بعض التغييرات لينظر مدى تعرّف الملكة على عرشها، وعندما قال لها سليمان بعد وصولها: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وهو جواب دقيق جداً، فهو هو لولا ما أدخل عليه من تغييرات طفيفة، ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل:٤١] أي: أتهتدي إلى الصواب وتعرفه، أو تجهله بسبب ما أدخل إليه من تغييرات، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل:٤٢] لقد كانت إجابة الملكة سديدة وموفقة، ومع كل ما أوتيته الملكة من علم، فقد امتاز عليها سليمان بأمرين، الأول: كثرة ما أعطاه الله من العلم بحيث يتفوق عليها بعلمه. والثاني: أنه كان مع علمه مسلماً.

ودعا سليمان عليه السلام الملكة للإسلام فصدّها عنه ما كانت عليه من عبادة الآلهة التي كانت تعبدها من دون الله، فقد كانت من قوم كافرين، عند ذلك جيء بها إلى الصرح، فلما أرادت الدخول فيه، كشفت عن ساقيها خشية أن تبتل بالماء، فقيل لها: هذا ليس ماءً، بل هو صرح ممرد من زجاج، فهناك آمنت، وقالت: إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سلميان لرب العالمين ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل:٤٣-٤٤].

إن مثل الأصنام التي كانت تعبدها من دون الله كمثل الصرح، يظنها عابدوها أنها آلهة والصرح يظن أنه لجة بحر، فلما تبين لها أنه زجاج وليس بحراً، عرفت أن ما تعبده ليس له حقيقة وأسلمت.

٧- سليمان في وادي النمل:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه حشر لنبي الله سليمان جنوده من الجن والإنس والطير، حتى إذا مروا على وادي النمل قالت نملة لقومها: يا أيها النمل ادخلوا بيوتكم خشية أن يحطمكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، وقد أعلمنا ربنا أن سليمان استمع إلى كلامها، وفهم مرادها، وتبسّم لقولها، وإنه لموضع تبسم، وقال: ربّ قدرني على شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٧-١٩].

لقد قرر ربنا أن الحيوان ومنه النمل يتكلم، ويمكن لغيره أن يفهم مراده، وأنه اختص سليمان عليه السلام بفقه كلام الطير والحيوان.

وهذه القصة اللطيفة غير موجودة في التوراة.

٨- تسخير الريح لسليمان عليه السلام:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سخر لنبيه سليمان عليه السلام الريح، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء:٨١].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن هذه الريح تسير في غدوها مدة شهر، وتسير في رواحها مدة شهر، أي: تحمل سليمان وجنوده في الصباح مسافة يحتاج الراكب

المجدّ السريع إلى شهر ليقطعها، فكانت تحمله الريح هو وجنده من القدس إلى اليمن صباحاً، فيحلُّ في اليمن، ويتغدى بها، ثم يعود هو وجنده إلى بيت المقدس، فيتعشى بها، ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ:١٢].

وهذا الخبر بهذا التفصيل غير موجود في التوراة.

٩. تسخير الجن والشياطين لنبي الله سليمان ﷺ:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سخر لعبده سليمان طائفة من الجن والشياطين، يقومون بما يطلبه من أعمال، فهم يغوصون في البحار ويستخرجون منها الأحجار الثمينة، ويعملون أعمالاً أخرى أقل من ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٢].

وحدثنا ربنا - عز وجل - في موضع آخر عن تسخيره الجن لسليمان، وعما كانوا يقومون به من أعمال، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ:١٢-١٣].

والمحاريب التي كان الجن يعملونها لسليمان هي القصور، والجفان: الآنية التي يوضع فيه الطعام، وهي لفخامتها وعظمتها كالحياض التي يجبى فيها الماء، ويصنعون له القدور الراسيات، أي: لعظمها وكبرها لا يُستطاع تحويلها، ولا تحريكها عن الأماكن الموضوعة فيها.

وهذا الذي وهبه الله لسليمان بهذا التفصيل غير موجود في التوراة.

١٠. وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي:

دعا سليمان ربه أن يغفر له ذنبه، وأن يعطيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب له ربه، فسخر له الريح، تحمله وجنده إلى المكان الذي يريده، وسخر له

الشياطين يبنون له المساجد والقصور، ويستخرجون له ما يشاء من حجارة البحار الكريمة، والذين يعصونه كان يقيدهم في الأصفاد، وقال له ربه: هذا عطاؤها فامنن أو أمسك بغير حساب، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠) ﴾ [ص:٣٠-٤٠].

وقد بدأ الله - تعالى - هذه الآيات بذكره أنه وهب لنبيه داود ابنه سليمان عليهما السلام، وأثنى على سليمان بأنه كان نِعْمَ العبد إنه أواب، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى، ثم ذكر ما وقع لنبيه سليمان عليه السلام في وقت المساء مع الصافنات الجياد، وهي الخيل المقاتلة في حال كونها صافنة، والخيل الصافنة هي التي تكون واقفة على ثلاثة أرجل، وتضع حافر الرجل الرابعة على الأرض، وكان سليمان عليه السلام قال: إني أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب، ومراده بحبّ الخير، أي: اشتغاله بالجياد الصافنة، حتى غابت الشمس، ثم طلب أن يعيدوا الخيل إليه، فما زال يستعرضها، ويمسح بسوقها وأعناقها، وكان اشتغال سليمان بالخيل هذه المدة الطويلة فتنة امتحن الله نبيَّه سليمان بها، وقد ورد حديث صحيح بيّن فيه الرسول ﷺ مراد الله في قوله: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص:٣٤].

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً، ساقطاً إحدى شقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله» [البخاري: ٣٤٢٤. مسلم: ١٦٥٤].

وأخبرنا ربنا في الآيات التي سبق ذكرها أن سليمان لما ألقي على كرسيه ذلك الجسد قال داعياً ربه طالباً منه أن يغفر له ذنوبه، وأن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده أن يبلغه، وذكر الله أنه استجاب له، وبيّن ربنا ما أعطاه الله من ملك. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن سليمان دعا ربه أن يهبه ثلاثاً، وأخبرنا أنه استجاب له في اثنتين، ورجا رسولنا ﷺ أن تعطى أمة محمد الثالثة، قال ابن كثير: «روى أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه - عز وجل - خلالاً ثلاثاً، فأعطاه الله اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة، سأله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها» [قصص الأنبياء، ص٤٨٠ وأورده الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٢٠) وصحح إسناده].

ومن المُلْكِ الذي لا ينبغي لأحد من بعد سليمان تسخير الله الجن والشياطين له، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنه أفلتَ شيطاناً أمسك به، لأن تقييد الشياطين، لا ينبغي لأحد بعد سليمان، ففي الحديث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة، فقال: «إن الشيطان عرض عليّ، فشدّ عليّ ليقطع الصلاة عليّ، فأمكنني الله منه فَذَعَتُّهُ، ولقد هممتُ أن أوثقه إلى سارية، حتى تصبحوا، فتنظروا إليه، فذكرت قول سليمان عليه السلام : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ [ص:٣٥]، فرده الله خاسئاً» [البخاري: ١٢١٠. مسلم: ٥٤١] ومعنى ذعته بالذال، أي: خنقته.

وعن أبي الدرداء، قال: قام فينا رسول الله ﷺ ، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً، لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: «إن عدو الله إبليس، جاء بشهاب من النار

ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، ووالله، لولا دعوة أخي سليمان، لأصبح موثقاً، يلعب به ولدان أهل المدينة» [مسلم: ٥٤٢].

١١- وفاة سليمان عليه السلام:

أخفى الله موت سليمان عن الإنس والجن، فقد مات واقفاً متكئاً على عصاه، وبقي قائماً، والجن يرونه، ولا يعلمون أنه مات، ولذلك استمروا في عملهم على المعهود منهم، ولم يعلموا أنه مات حتى أكلت دابة الأرض عصاته، وعند ذلك سقط، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤].

إن الجن لا يعلمون الغيب، ولو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أن سليمان كان ميتاً بعد أن نزعت روحه، وهو واقف على عصاته.

رابعا: هذه القصة في الميزان

قلت في المقدمة إن التوراة لم تعط الملك العظيم الذي وهبه الله لسليمان ما يستحقه من الشرح والبيان، وأول ذلك أن بني إسرائيل ينكرون أن يكون الله قد وهب النبوة لهذا الرجل الكريم، وقد لطخوا سيرته بالقاذورات، عندما رموه بأن قلبه اتبع آلهة زوجاته وسراريه، فعبدها من دون الله، ورموه بأنه بنى لتلك الآلهة بيوتاً أقامها على المرتفعات.

ووالله لقد كذبوا على نبي الله سليمان فيما رموه به، ووالله إن سليمان لبريء من الكفر والشرك والفساد الذي رموه به، وكيف لنبي أن يكفر ويشرك ويسحر، وهو المعصوم من كل ذلك بما عصمه الله به.

وما ذكرته التوراة من قصة المرأتين اللتين مات ولد إحداهما وتنازعتا في الولد الباقي، فإن التشابه واضح بين قصة التوراة، وقصة الحديث الذي أورد هذه القصة، إلا أن قصة التوراة فيها شيء من التحريف، فالطفل لم يمت لأن أمه اضطجعت عليه في الليل، بل مات لأن الذئب قد خطفه، ويبدو أنهما كانتا في خارج القرية بعيداً عن الناس، فالذئاب لا تخطف الأطفال من البيوت.

والأمر الثاني الذي فيه تحريف دعوى كتاب التوراة أن هذه الواقعة جرت على عهد ملك سليمان بعد وفاة داود، والصواب أنها جرت في عهد داود، وقد حكم فيها داود أولاً، وخالفه سليمان في حكمه، كما سبق بيانه.

والصواب أن سليمان دعا بالسكين كما في الحديث، ولم يدع بالسيف كما ذكر في التوراة، والسكين هي الأداة المناسبة لشق طفل صغير نصفين، لا السيف.

ومن تصويبات الحديث لقصة التوراة أن سليمان طلب السكين ليشق الطفل بينهما بنفسه، لأنه لم يكن ملكاً في ذلك الوقت، بينما تقول التوراة أنه أمر جنده بشقه بالسيف؛ لأنه كان ملكاً عند حكمه في هذه الواقعة، وقد ظهر لك ما في هذا القول من خطأ.

ويبعد أن تكون المرأتان زانيتين كما ورد في التوراة، بدلالة ما بدا من أم الطفل من عبارات تدل على صلاح وتقى، فهي تقول لنبي الله سليمان عندما أراد شق الغلام: «لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها».

ولو كانتا زانيتين فهل كان يقرهما نبيا الله داود وسليمان على فعلهما؟! أو ما كان يأمر برجمهما كما أمر برجم المرأة التي شهد عليها من شهد زوراً بالزنا !! [قصص الحديث النبوي للمؤلف: ١٤٩].

وإذا أنت قارنت بين قصة ملكة سبأ التي وردت في التوراة، ووردت في القرآن، تجد أن وقائع القصة في التوراة باهتة، فليس فيها قصة الهدهد الذي جاء إلى

سليمان بخبر ملكة سبأ، وليس فيها رسالة سليمان إلى ملكة سبأ، وليس فيها مشاورتها لقومها، وليس فيها ذكر الهدية التي أرسلتها إلى سليمان ورده لها، وتهديد الذين جاؤوه بها، وليس فيها ذكر مجيء سليمان بعرشها من اليمن، وليس فيها ما قاله العفريت الجني، وكيف تغلب عليه الذي عنده علم من الكتاب، ولم تذكر التوراة أمر سليمان خبراءَه بتنكير عرشها حتى ينظر مدى فطنتها عندما تُسأل عن ذلك العرش.

ولم تذكر التوراة دعوة سليمان للملكة إلى الإيمان، ولم تذكر أنها آمنت بعد أن طلب منها أن تدخل الصرح، فحسبته لجة وكشفت عن ساقيها، وقيل لها: إنه صرح ممرد من قوارير.

ولم تذكر التوراة حكم داود وسليمان في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، ولا مسير سليمان وجنده في وادي النمل، ولا تسخير الريح على النحو الذي ذكره القرآن، ولا تسخير الجن والشياطين على هذا النحو الموجود في القرآن، وليس في التوراة ذكر الملك الذي وهبه الله لسليمان، ولا ذكر الفتنة التي وقعت لسليمان على النحو الذي ذكره القرآن، وأخيراً ليس في التوراة ذكر الكيفية التي مات بها نبي الله سليمان عليه السلام.

القصة الثالثة والعشرون
قصة نبي الله زكريا وقصة ابنه نبي الله يحيى

أولا: تقديم

هذه القصة من القصص التي ذكرها الإنجيل، وفيها حقائق جاء القرآن بتصديقها، وقصور جاء القرآن ببيانه وتوضيحه، وأخطاء جاء القرآن بتصويبها، وفوق ذلك كله تكفل القرآن بإظهار شخصية نبيه يحيى، حتى نعرفه من خلال آيات القرآن معرفة حقة.

وفي الإنجيل زيادات في بعض الجوانب لا ندري مدى صحتها، وبخاصة سبب مقتله، وبيان كيفية قتله.

ثانيا: نص هذه القصة في إنجيل لوقا

١- تبشير الملائكة زكريا بيحيى:

جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح الأول: «٥كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ
كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا مِنْ فِرْقَةِ أَبِيَّا، وَامْرَأَتُهُ مِنْ بَنَاتِ هارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ.
٦وَكَانَا كِلاَهُمَا بَارَّيْنِ أَمَامَ الله، سَالِكَيْنِ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلاَ لَوْم. ٧وَلَمْ
يَكُنْ لَهُمَا وَلَدٌ، إِذْ كَانَتْ أَلِيصَابَاتُ عَاقِرًا. وَكَانَا كِلاَهُمَا مُتَقَدِّمَيْنِ فِي أَيَّامِهِمَا. ٨فَبَيْنَمَا
هُوَ يَكْهَنُ فِي نَوْبَةِ فِرْقَتِهِ أَمَامَ الله، ٩حَسَبَ عَادَةِ الْكَهَنُوتِ، أَصَابَتْهُ الْقُرْعَةُ أَنْ يَدْخُلَ
إِلَى هَيْكَلِ الرَّبِّ وَيُبَخِّرَ. ١٠وَكَانَ كُلُّ جُمْهُورِ الشَّعْبِ يُصَلُّونَ خَارِجًا وَقْتَ الْبَخُورِ.

١١فَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ وَاقِفًا عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ الْبَخُورِ. ١٢فَلَمَّا رَآهُ زَكَرِيَّا اضْطَرَبَ
وَوَقَعَ عَلَيْهِ خَوْفٌ. ١٣فَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا، لأَنَّ طِلْبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ،
وَامْرَأَتُكَ أَلِيصَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوحَنَّا. ١٤وَيَكُونُ لَكَ فَرَحٌ وَابْتِهَاجٌ،
وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلاَدَتِهِ، ١٥لأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ
يَشْرَبُ، وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. ١٦وَيَرُدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِمْ. ١٧وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِرُوحِ إِيلِيَّا وَقُوَّتِهِ، لِيَرُدَّ قُلُوبَ الآبَاءِ إِلَى الأَبْنَاءِ،
وَالْعُصَاةَ إِلَى فِكْرِ الأَبْرَارِ، لِكَيْ يُهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا». ١٨فَقَالَ زَكَرِيَّا
لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ أَعْلَمُ هذَا، لأَنِّي أَنَا شَيْخٌ وَامْرَأَتِي مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامِهَا؟» ١٩فَأَجَابَ
الْمَلاَكُ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا جِبْرَائِيلُ الْوَاقِفُ قُدَّامَ اللهِ، وَأُرْسِلْتُ لأُكَلِّمَكَ وَأُبَشِّرَكَ بِهذَا.
٢٠وَهَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلاَ تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هذَا، لأَنَّكَ
لَمْ تُصَدِّقْ كَلاَمِي الَّذِي سَيَتِمُّ فِي وَقْتِهِ». ٢١وَكَانَ الشَّعْبُ مُنْتَظِرِينَ زَكَرِيَّا وَمُتَعَجِّبِينَ
مِنْ إِبْطَائِهِ فِي الْهَيْكَلِ. ٢٢فَلَمَّا خَرَجَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، فَفَهِمُوا أَنَّهُ قَدْ رَأَى رُؤْيَا
فِي الْهَيْكَلِ. فَكَانَ يُومِئُ إِلَيْهِمْ وَبَقِيَ صَامِتًا» [إنجيل لوقا، الإصحاح الأول: ٥-٢٢].

٢- ولادة يحيى وتسميته:

جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا: «٥٧وَأَمَّا أَلِيصَابَاتُ فَتَمَّ زَمَانُهَا لِتَلِدَ،
فَوَلَدَتِ ابْنًا. ٥٨وَسَمِعَ جِيرَانُهَا وَأَقْرِبَاؤُهَا أَنَّ الرَّبَّ عَظَّمَ رَحْمَتَهُ لَهَا، فَفَرِحُوا مَعَهَا.
٥٩وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ جَاءُوا لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ، وَسَمَّوْهُ بِاسْمِ أَبِيهِ زَكَرِيَّا. ٦٠فَأَجَابَتْ
أُمُّهُ وَقَالَتْ: «لاَ! بَلْ يُسَمَّى يُوحَنَّا». ٦١فَقَالُوا لَهَا: «لَيْسَ أَحَدٌ فِي عَشِيرَتِكِ تَسَمَّى
بِهذَا الاسْمِ». ٦٢ثُمَّ أَوْمَأُوا إِلَى أَبِيهِ، مَاذَا يُرِيدُ أَنْ يُسَمَّى. ٦٣فَطَلَبَ لَوْحًا وَكَتَبَ
قَائِلاً: «اسْمُهُ يُوحَنَّا». فَتَعَجَّبَ الْجَمِيعُ. ٦٤وَفِي الْحَالِ انْفَتَحَ فَمُهُ وَلِسَانُهُ وَتَكَلَّمَ
وَبَارَكَ اللهَ. ٦٥فَوَقَعَ خَوْفٌ عَلَى كُلِّ جِيرَانِهِمْ. وَتُحُدِّثَ بِهذِهِ الأُمُورِ جَمِيعِهَا فِي كُلِّ
جِبَالِ الْيَهُودِيَّةِ، ٦٦فَأَوْدَعَهَا جَمِيعُ السَّامِعِينَ فِي قُلُوبِهِمْ قَائِلِينَ: «أَتُرَى مَاذَا يَكُونُ هذَا
الصَّبِيُّ؟» وَكَانَتْ يَدُ الرَّبِّ مَعَهُ».

٣- ثناء زكريا على ربه في إعطائه له يحيى:

جاء في السفر الأول من إنجيل لوقا ما أثنى به زكريا على ربه: «٦٧وَامْتَلأَ زَكَرِيَّا أَبُوهُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَتَنَبَّأَ قَائِلاً: ٦٨«مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ افْتَقَدَ وَصَنَعَ فِدَاءً لِشَعْبِهِ، ٦٩وَأَقَامَ لَنَا قَرْنَ خَلاَصٍ فِي بَيْتِ دَاوُدَ فَتَاهُ. ٧٠كَمَا تَكَلَّمَ بِفَمِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ هُمْ مُنْذُ الدَّهْرِ، ٧١خَلاَصٍ مِنْ أَعْدَائِنَا وَمِنْ أَيْدِي جَمِيعِ مُبْغِضِينَا. ٧٢لِيَصْنَعَ رَحْمَةً مَعَ آبَائِنَا وَيَذْكُرَ عَهْدَهُ الْمُقَدَّسَ، ٧٣الْقَسَمَ الَّذِي حَلَفَ لإِبْرَاهِيمَ أَبِينَا: ٧٤أَنْ يُعْطِيَنَا إِنَّنَا بِلاَ خَوْفٍ، مُنْقَذِينَ مِنْ أَيْدِي أَعْدَائِنَا، نَعْبُدُهُ ٧٥بِقَدَاسَةٍ وَبِرّ قُدَّامَهُ جَمِيعَ أَيَّامِ حَيَاتِنَا. ٧٦وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيَّ الْعَلِيِّ تُدْعَى، لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَهُ. ٧٧لِتُعْطِيَ شَعْبَهُ مَعْرِفَةَ الْخَلاَصِ بِمَغْفِرَةِ خَطَايَاهُمْ، ٧٨بِأَحْشَاءِ رَحْمَةِ إِلهِنَا الَّتِي بِهَا افْتَقَدَنَا الْمُشْرَقُ مِنَ الْعَلاَءِ. ٧٩لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ، لِكَيْ يَهْدِيَ أَقْدَامَنَا فِي طَرِيقِ السَّلاَمِ». ٨٠أَمَّا الصَّبِيُّ فَكَانَ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، وَكَانَ فِي الْبَرَارِي إِلَى يَوْمِ ظُهُورِهِ لإِسْرَائِيلَ» [إنجيل لوقا، الإصحاح الأول: ٥٧-٨٠].

٤- اجتهاد يحيى في الدعوة إلى الله ومبالغته في الزهد والتقشف:

جاء في السفر الثالث من إنجيل متى ما يدل على اجتهاده في الدعوة إلى الله وتبشيره بنبينا محمد ﷺ، وبيان ما كان عليه من الزهد.

«١وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ ٢قَائِلاً: «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. ٣فَإِنَّ هذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً». ٤وَيُوحَنَّا هذَا كَانَ لِبَاسُهُ مِنْ وَبَرِ الإِبِلِ، وَعَلَى حَقْوَيْهِ مِنْطَقَةٌ مِنْ جِلْدٍ. وَكَانَ طَعَامُهُ جَرَادًا وَعَسَلاً بَرِّيًّا. ٥حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنِّ، ٦وَاعْتَمَدُوا مِنْهُ فِي الأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ» [إنجيل متى، الإصحاح الثالث: ١-٦] [وانظر: إنجيل مرقص، السفر الأول: ١-٨. وإنجيل لوقا، السفر الثالث: ٤-٦، ١٦-٢٠].

٥- عدم إيمان الكهنة والرؤساء بيحيى:

لم يؤمن أكثر الرؤساء والشيوخ والكهنة بيوحنا، جاء في إنجيل مرقص أن عيسى بينما كان يمشي في الهيكل «أَقْبَلَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءُ الكَهَنَةِ وَالكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ، ٢٨وَقَالُوا لَهُ:«بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هذَا؟ وَمَنْ أَعْطَاكَ هذَا السُّلْطَانَ حَتَّى تَفْعَلَ هذَا؟» ٢٩فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ:«وَأَنَا أَيْضًا أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً. أَجِيبُونِي، فَأَقُولَ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هذَا ٣٠مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنَ السَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ أَجِيبُونِي». ٣١فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ:«إِنْ قُلْنَا: مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ ٣٢وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ النَّاسِ». فَخَافُوا الشَّعْبَ. لأَنَّ يُوحَنَّا كَانَ عِنْدَ الجَمِيعِ أَنَّهُ بِالحَقِيقَةِ نَبِيٌّ. ٣٣فَأَجَابُوا وَقَالُوا لِيَسُوعَ:«لاَ نَعْلَمُ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ:وَلاَ أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هذَا» [إنجيل مرقص، السفر الحادي عشر: ٢٧-٣٣. وانظر إنجيل لوقا، السفر العشرون: ١-٨. وإنجيل متى، السفر الحادي والعشرون: ٢٣-٢٧].

٦- مقتل يوحنا المعمدان:

جاء في إنجيل مرقص ذكر السبب الذي من أجله قتل هيرودس يوحنا المعمدان، جاء في السفر الرابع عشر:

«١٧ أَنَّ هِيرُودُسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ أَرْسَلَ وَأَمْسَكَ يُوحَنَّا وَأَوْثَقَهُ فِي السِّجْنِ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا. ١٨لأَنَّ يُوحَنَّا كَانَ يَقُولُ لِهِيرُودُسَ:«لاَ يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ امْرَأَةُ أَخِيكَ» ١٩فَحَنِقَتْ هِيرُودِيَّا عَلَيْهِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَهُ وَلَمْ تَقْدِرْ، ٢٠لأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يُوحَنَّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ. وَإِذْ سَمِعَهُ، فَعَلَ كَثِيرًا، وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ. ٢١وَإِذْ كَانَ يَوْمٌ مُوافِقٌ، لَمَّا صَنَعَ هِيرُودُسُ فِي مَوْلِدِهِ عَشَاءً لِعُظَمَائِهِ وَقُوَّادِ الأُلُوفِ وَوُجُوهِ الجَلِيلِ، ٢٢دَخَلَتِ ابْنَةُ هِيرُودِيَّا وَرَقَصَتْ، فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ وَالمُتَّكِئِينَ مَعَهُ. فَقَالَ المَلِكُ لِلصَّبِيَّةِ: «مَهْمَا أَرَدْتِ اطْلُبِي مِنِّي فَأُعْطِيَكِ». ٢٣وَأَقْسَمَ لَهَا أَنْ «مَهْمَا طَلَبْتِ مِنِّي لأُعْطِيَنَّكِ حَتَّى نِصْفَ مَمْلَكَتِي». ٢٤فَخَرَجَتْ وَقَالَتْ لأُمِّهَا:«مَاذَا أَطْلُبُ؟» فَقَالَتْ:«رَأْسَ يُوحَنَّا

المَعْمَدَانِ». ٢٥فَدَخَلَتْ لِلْوَقْتِ بِسُرْعَةٍ إِلَى المَلِكِ وَطَلَبَتْ قَائِلَةً:«أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِي حَالاً رَأْسَ يُوحَنَّا المَعْمَدَانِ عَلَى طَبَقٍ». ٢٦فَحَزِنَ المَلِكُ جِدًّا. وَلأَجْلِ الأَقْسَامِ وَالمُتَّكِئِينَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَرُدَّهَا. ٢٧فَلِلْوَقْتِ أَرْسَلَ المَلِكُ سَيَّافًا وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِرَأْسِهِ. ٢٨فَمَضَى وَقَطَعَ رَأْسَهُ فِي السِّجْنِ. وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى طَبَقٍ وَأَعْطَاهُ لِلصَّبِيَّةِ، وَالصَّبِيَّةُ أَعْطَتْهُ لأُمِّهَا. ٢٩وَلَمَّا سَمِعَ تَلاَمِيذُهُ، جَاءُوا وَرَفَعُوا جُثَّتَهُ وَوَضَعُوهَا فِي قَبْرٍ» [إنجيل مرقص، الإصحاح السادس: ١٧-٢٩. وانظر إنجيل متى، الإصحاح الرابع عشر: ٣-١٢].

ثالثا: التعقيب على هذه القصة

قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام قصة عظيمة ذكرها القرآن الكريم في أكثر من سورة، منها سورة الأعراف، وسورة مريم، وسورة الأنبياء.

١- ثناء الله على عبده ورسوله زكريا:

أثنى الله - تبارك وتعالى - على عبده ورسوله زكريا بقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريم:٢] أي هذا ذكر رحمة الله لعبده ونبيه زكريا، وهذا تصديق لما ذكر في الإنجيل أن زكريا كان بارّاً أمام الله، سالكاً في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم.

وقد صرح القرآن الكريم بأن زكريا نادى ربه نداءً خفياً، ثم أخبرنا بالنداء الذي نادى به ربّه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم:٣-٦].

لقد أخبرنا الإنجيل أن زوج زكريا كانت عاقراً، وأنه كان وزوجته متقدمين في أيامهما، ولكن القرآن صور حالة زكريا عند دعائه بما لا مزيد عليه من البيان، لقد أخبر زكريا عن نفسه في دعائه أن عظمه أصبح واهناً ضعيفاً، وأن شعر رأسه اشتعل

شيباً مثل اشتعال النار في جزل الغضا، وقرر في دعائه أن الله عوده أن يجيب دعاءه، فلا يكون شقياً بهذا الدعاء، وحدّث ربَّه في دعائه بواقع الحال، فهو يخاف أقرباءه من ورائه أن لا يحسنوا المسيرة في أعمالهم وقضائهم، فهو يريد من الله أن يهبه ولداً صالحاً من آل يعقوب يرثه، ويرث آل يعقوب، وليس الميراث ميراث المال بل ميراث النبوة والحكم، فالأنبياء لا يورثون الدرهم والدينار، بل يورثون النبوة والحكم، كما ورث سليمان عليه السلام من داود النبوة والحكم ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل:١٦] وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» [البخاري: ٦٧٣٠. مسلم: ١٧٥٨].

ودعا زكريا ربه أن يجعل الولد الذي وهبه إياه رضياً، وهذا الدعاء وما ذكر فيه لا ذكر له في الإنجيل، ولا نعلم أن زكريا دعا ربه في الإنجيل إلا من قول الملك لزكريا: «لا تخف يا زكريا، لأن طلبتك قد سمعت».

٢- **إجابة الله دعاء زكريا:**

ذكر الإنجيل أن الله استجاب دعاء زكريا، وأرسل له ملكاً يبشره بهذه الإجابة، وذكر له أنه سيهبه ولداً يسميه يحيى، وأنه سيكون عظيماً أمام الرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس، وأنه سيرد الكثيرين من بني إسرائيل إلى ربهم وإلههم.

وقد صرح القرآن بأن الله نادى زكريا عليه السلام مبشراً إياه بغلام حدد الله اسمه وهو يحيى، وأخبر أنه لم يسمَّ بهذا الاسم أحد قبله: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم:٧]. وأخبرت آية سورة آل عمران أن المنادي هو الملائكة، وأخبرته وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشره بيحيى مصدقاً بكلمة من الله، والمراد بكلمة الله عيسى عليه السلام ، كما أخبرنا أن يحيى سيكون فيه من الخصائص ما يجعله سيداً في قومه، وسيجعله حصوراً، أي ممنوعاً من الذنوب والفواحش، وسيكون نبياً من الصالحين، ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:٣٩].

وما ذكره القرآن لزكريا أن اسم الغلام الذي سيرزقه هو يحيى، وأنه أول من سمي بهذا الاسم ذكره إنجيل لوقا فقد ذكر أن الملك هو الذي حدَّد هذا الاسم، وهذا يدلُّ على أن ما ذكر في إنجيل لوقا بعد ذلك من اختلاف حول الاسم الذي يسمى به غير صحيح، فما كان لزكريا أن يخالف أمر الله في الاسم الذي سماه الله به.

٣- **الحوار بين زكريا والملك حول الكيفية التي يرزق بها الغلام:**

عندما أجاب الله دعاء زكريا سأل زكريا الملك عن الكيفية التي سيرزق الولد بها، فزوجته عاقر لا تلد، وهو وزوجته عجوزان ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم:٨] أي: كيف يكون الولد من امرأة عاقر، وعجوز كبير.

فأجابه الملك قائلاً: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم:٩]. وقال في الآية الأخرى في آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران:٤٠].

وهذا الحوار بين زكريا والملك لا وجود له في الإنجيل.

٤- **زكريا يسأل ربه أن يجعل له آية:**

يذكر الإنجيل أن زكريا سأل الملاك كيف أعلم هذا، فأخبره الملك بأنه لن يستطيع الكلام حتى يأتي اليوم الذي يقع فيه ما أخبره به، والعبارة التي أخبرنا بها القرآن أن زكريا طلب من الله آية تدل على وقوع ما أخبره به، فأخبره أنه لن يستطيع الكلام مع الناس ثلاث ليالٍ سوياً، فقد حدد عدم قدرته على الكلام بثلاثة ليالٍ، لا كما ذكر الإنجيل أن عدم القدرة على الكلام ستكون إلى حين وقوع الأمر، ﴿ قَالَ

﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم:١٠]
وقال في آية آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران:٤١].

وقد أفادت الآية الأخيرة أنه لا يستطيع أن يكلم الناس طيلة هذه الليالي، ولكنه يستطيع ذكر الله تعالى والتسبيح بالعشي والإبكار.

وأخبرنا القرآن أن هذه الآية وقعت له بعد الدعاء مباشرة، فخرج إليهم فأمرهم بالإشارة أن يكثروا من التسبيح بكرة وعشياً، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم:١١].

٥- متى كان دعاء زكريا ربه:

أخبرنا القرآن عن الوقت الذي دعا زكريا ربه أن يهبه الولد، فقد أخبرنا ربنا في سورة آل عمران أن زكريا كان قد كفل مريم، وكان يمر عليها في المكان الذي حلت فيه في الهيكل الذي سماه القرآن بالمحراب، وكان إذا دخل عليها وجد عندها رزقاً في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيعجب ويسألها قائلاً: أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فنبه هذا الرزق الذي يأتي مريم في غير وقته زكريا إلى إمكان رزق الولد في غير أوانه، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٧-٣٨].

وقد رزق الله نبيه إبراهيم عليه السلام الولد وكان إبراهيم عجوزاً كبيراً، فقد رزق بإسماعيل من هاجر وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، ورزق من سارة بإسحاق وعمر إبراهيم مائة سنة، وعمر سارة تسعون سنة، ولذلك قالت سارة عندما بشرتها

الملائكة هي وزوجها بالولد ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود:٧٢].

وقد أثنى رب العزة على هذه الأسرة الكريمة، أعني زكريا وزوجه ويحيى بقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠].

٦- مكانة يحيى عليه السلام:

أثنى الإنجيل على يحيى عليه السلام فمن ذلك قوله فيه: «١٥أَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ يَشْرَبُ، وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. ١٦وَيَرُدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِمْ. ١٧وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِرُوحِ إِيلِيَّا وَقُوَّتِهِ، لِيَرُدَّ قُلُوبَ الآبَاءِ إِلَى الأَبْنَاءِ، وَالْعُصَاةَ إِلَى فِكْرِ الأَبْرَارِ، لِكَيْ يُهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا» [إنجيل لوقا، الإصحاح الأول: ١٥-١٧].

وقال أبوه زكريا مخاطباً ابنه بعد ولادته: «٧٦وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيَّ الْعَلِيِّ تُدْعَى، لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَهُ. ٧٧لِتُعْطِيَ شَعْبَهُ مَعْرِفَةَ الْخَلاَصِ بِمَغْفِرَةِ خَطَايَاهُمْ» [إنجيل لوقا، الإصحاح الأول: ٧٦-٧٧].

وتحدثت الأناجيل عن دعوته، وتبشيره بنبينا محمد ﷺ، وتحدثت الأناجيل عن ورعه وتقشفه [راجع: إنجيل متى، الإصحاح الثالث: ١-٦، وإنجيل مرقص، السفر الأول: ١-٨، وإنجيل لوقا، السفر الثالث: ٤-٦، ١٦-٢٠]. وقد أثنى القرآن على زكريا ويحيى فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥﴾ [الأنعام:٨٥].

وقد خاطب الله يحيى عليه السلام مبيناً فضائله آمراً له أن يأخذ الكتاب بقوة، وأخبرنا ربنا أنه أتاه الحكم صبياً، وأخبرنا أن يحيى كان حناناً من عند الله، أي رحمة من عند الله تعالى رحم الله به أباه وأمه وبني إسرائيل، وأخبرنا أنه كان زكاة، أي: طاهراً في خلقه وسلامته من النقص والرذائل، وكان تقياً مطيعاً لله ربه.

وذكر الله أن يحيى كان بارّاً بوالديه، ولم يكن جباراً عصياً، وسلم الله عليه في ثلاثة مواطن، عندما يولد، وعندما يموت، وعندما يبعث حياً، ومن سلم في هذه المواطن الثلاثة، فقد سعد وفاز، قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٢-١٥].

٧- أمر الله يحيى بني إسرائيل بخمس كلمات:

أمر الله يحيى أن يخطب في بني إسرائيل بخمس كلمات، فتأخر يحيى في تنفيذ ما أمر الله به، فأوحى الله إلى عيسى أن يقوم بذلك إن لم يقم به يحيى، فسارع يحيى إلى جمع بني إسرائيل وخطب فيهم بما أمره الله تعالى به، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يُبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وتَعَدُّوا على الشُّرَف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

أوّلهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدِّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيِّده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرّة فيها مِسْك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم.

وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهنَّ. السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربْقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثا جهنم، فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام. قال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين عباد الله» [الترمذي: ٢٦٨٣. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح غريب].

وهذا الحديث يدل على أن يحيى وعيسى نبيان، وأنهما كانا ببيت المقدس، ويدل على مكان يحيى عند بني إسرائيل، فقد امتلأ المسجد وشرفاته لسماعه، ويدل على عمق العلاقة بين عيسى ويحيى.

رابعا: هذه القصة في الميزان

صدق القرآن ما أخبر به الإنجيل عن قصة زكريا ويحيى في الجملة، وفي الإنجيل بعض التفصيلات الله أعلم بمدى صحتها، وفيها بعض الأخطاء قرر القرآن خلافها.

لقد صدق القرآن ما ورد في الإنجيل من دعاء زكريا ربه أن يرزقه الولد، وصدقه في أن ملاك الرب جاء مبشراً له بولد مبارك عظيم، وصدق القرآن الإنجيل في أن الله جعل له آية على تحقيق ما وهبه إياه من الولد، وذلك بعدم قدرته على الحديث مع الناس.

ولكن الإنجيل لم يحدثنا عن نص الدعاء الذي دعا به زكريا، والقرآن حدثنا به وذكره لنا، والإنجيل ذكر أن الآية وهي عدم قدرة زكريا على النطق ستستمر إلى حصول البشارة، بينما الصواب أن هذه الآية تستمر ثلاث ليال فقط كما ذكر القرآن، وبيّن القرآن أن زكريا كان قادراً على ذكر الله وتسبيحه في حال عدم قدرته على مخاطبة الناس، ولم يذكر هذا في الإنجيل.

ومع أن الإنجيل أثنى على زكريا ويحيى، ولكن ليس بالقدر الذي ورد في القرآن، وقد ذكر لنا القرآن أن دعاء زكريا ربه كان عندما رأى الرزق يأتي مريم في غير أوانه، فنبهه هذا إلى أن الولد قد يأتي في غير أوانه.

وقد صدّق القرآن الإنجيل في أن الله هو الذي اختار الاسم للطفل الذي سيرزق به زكريا، وهذا يدل على أن الحوار الذي ذكره الإنجيل في تسمية الغلام باسم آخر غير صحيح.

وما ذكره القرآن من سؤال زكريا ربه عن الكيفية التي يرزق بها الولد مع كونه أصبح عجوزاً كبيراً، وزوجته كانت عاقراً مع كبرها، لم يذكره الإنجيل.

ومع أن الإنجيل أثنى على عبده ونبيِّه يحيى إلا أن ثناء القرآن عليه كان أعظم وأقوم.

أضف إلى هذا أن شخصية نبي الله يحيى عليه السلام لم تتضح بأبعادها كما أوضحها القرآن، وما ذكره الإنجيل أن يحيى قتله هيرودس مع أنه كان يحترمه استجابة لامرأة فاجرة، لعبت برقصتها بلب الحاكم، فوعدها أن يهب لها ما تطلبه، فطلبت رأس يحيى، فبعث إليه من حزّ رقبته بالسيف، الله أعلم بمدى صحة هذه القصة.

القصة الرابعة والعشرون
قصة عبدالله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام

أولا: تقديم

رسول الله عيسى ابن مريم آخر رسل بني إسرائيل، وليس بينه وبين رسولنا ﷺ نبي، وله علاقة كبيرة بهذه الأمة، فإنه سينزل في آخر الزمان، ويحكم بالقرآن، ويقيم الإسلام، ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويؤذن بالصلاة، ويصلي خلف رجل صالح من هذه الأمة.

وقد ضلَّ كثير من الناس في عيسى ابن مريم، فاليهود عليهم لعنة الله يقولون: هو ابن زنى، والنصارى يقولون: هو إله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة.

وأهل الحق وهم هذه الأمة يقولون هو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، ويقولون: لم يُقتَل ولم يُصلَب، ولكن الله رفعه إليه، وقد أطال الله في ذكر أسرته الطيبة المباركة، وحدثتنا النصوص القرآنية والحديثية كثيراً عن قصته، وأزاحت كثيراً من التحريفات والشبهات والأباطيل التي علقت به وبسيرته، وقد اضطرب الإنجيل اضطراباً عظيماً وهو يتحدث عن هذا النبي، ورفعه الذين حرفوا الإنجيل إلى مرتبة الألوهية.

وسأُورد ما ذكره الإنجيل في عيسى، ثم أفصل القول مورداً ما ذكرته نصوص القرآن ونصوص الأحاديث الصحيحة في شأن عيسى عليه السلام .

ثانيا: بشارة إشعياء بعيسى من العذراء البتول

قال إشعياء مبشراً بعيسى عليه السلام من مريم العذراء: «١٤وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ». ١٥زُبْدًا وَعَسَلاً يَأْكُلُ» [سفر إشعياء، الإصحاح السابع: ٤-١٥].

ثالثا: قصة عيسى في الأناجيل

١- مقدمة في تحريف الإنجيل:

الإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، وهو كتاب واحد، وقد ضاع هذا الكتاب، وحلّ مكانه كتب أخرى نُسبت إلى الذين كتبوها، وقد بلغت هذه الكتب عدداً كبيراً، إلا أن الكنيسة رضيت عن أربعة منها، ولاحقت الأخرى بالشطب والحرق، ولم ينج من الأناجيل الكثيرة التي حاربتها الكنيسة إلا إنجيل واحد، هو إنجيل برنابا.

وقد نالت يد التحريف الأناجيل الأربعة، ويدل على مدى التحريف الذي أصابها تناقض كل إنجيل مع نفسه، ثم تناقضها فيما بينها، ففي كل إنجيل ما ليس في غيره، وحسبك أن تعلم أن إنجيل متى ثمانية وعشرون إصحاحاً، وإنجيل مرقس ستة عشر إصحاحاً، وإنجيل لوقا أربعة وعشرون إصحاحاً، وإنجيل يوحنا واحد وعشرون إصحاحاً.

وقد تناقضت هذه الأناجيل فيما بينها في حقيقة المسيح، ففيها أن المسيح هو ابن الإنسان، وابن داود، وابن الله، والمعلم، والنبي، والمرسل، وقد تتبع الدكتور محمد علي الخولي في كتابه: (مقارنة بين الأناجيل الأربعة) [دار الفلاح، صويلح، الأردن، ١٩٩٠] فأظهرت لنا مقارنته كماً هائلاً من الاختلافات بين الأناجيل، ونستطيع أن نجزم بلا تحرج أن يد التحريف لعبت بهذه الأناجيل، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢] ولا أقول: إن الحق انعدم في هذه الأناجيل، بل هو موجود في كثير من النصوص، ولكنه اختلط بباطل كثير.

٢- الله يرسل إلى مريم ملاكه ليهب لها غلاما:

جاء في الإنجيل أنه «٢٦وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلاَكُ مِنَ اللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ، ٢٧إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَاسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ. ٢٨فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلاَكُ وَقَالَ:«سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ». ٢٩فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ:«مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هذِهِ التَّحِيَّةُ!» ٣٠فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ:«لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ. ٣١وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. ٣٢هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، ٣٣وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ». ٣٤فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ:«كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟» ٣٥فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لَهَا: «اَلرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ. ٣٦وَهُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ هِيَ أَيْضًا حُبْلَى بِابْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لِتِلْكَ الْمَدْعُوَّةِ عَاقِرًا، ٣٧لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَى اللهِ». ٣٨فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ». فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا الْمَلاَكُ» [إنجيل لوقا، السفر الأول: ٢٦-٣٨].

٣- التعريف بمريم وعيسى عليهما السلام:

لم يذكر الإنجيل نسب مريم عليها السلام، إنما ذكر نسب الرجل الذي كان يريد الزواج بها قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام، واسمه يوسف [إنجيل متى، السفر الأول: ١٨]. ويذكر الإنجيل أن عيسى وُلد في بيت لحم اليهودية، وأن المجوس علموا بولادته، دلّهم على ذلك نجم ظهر لهم، فجاؤوا وراء النجم حتى وقفوا عليه، فسجدوا له، وقدموا له الهدايا، وهرب به يوسف ومريم إلى مصر، وأمر هيرودس الملك بقتل كل الأولاد الذين وُلدوا في بيت لحم وفي كل تخومها، فلما مات هيرودس أمر ملاك الرب يوسف أن يعود بعيسى من مصر إلى أرض إسرائيل [إنجيل متى، السفر الثاني].

ويذكر الإنجيل أن إبليس أخذ عيسى واختبره، فوقف عيسى في وجه إبليس بقوة، واستطاع أن يرد على تحريفه، ويبطل قوله [إنجيل متى، الإصحاح الرابع].

وتذكر الأناجيل أن عيسى كان يدعو إلى الله، ويشفي المرضى، ويحيي الموتى، ويطرد الشياطين، ففي [متى الإصحاح الرابع: ٢٣] جاء قوله: «يشفي كل مرض، وكل ضعف في الشعب». وفي [متى، الإصحاح الثامن: ٢-٣] جاء قوله: «إذا أبرص قد جاء، وسجد له قائلاً، يا سيد، إن أردت تقدر أن تطهرني، فمدّ يسوع يده ولمسه، قائلاً أريد فاطهر، وللوقت طهر برصه».

[وفي السفر نفسه: ١٤-١٦] جاء قوله: «ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس رأى حماته ، (أي حماة بطرس) مطروحة ومحمومة، فلمس يدها فتركتها الحمى، فقامت وخدمتهم، ولما صار المساء قدّموا إليه مجانين كثيرين، فأخرج الأرواح بكلمة، وجميع المرضى شفاهم».

وفي السفر نفسه: أن البحر اضطراب وكان عيسى نائماً في السفينة، فأيقظوه، فأمر البحر المضطرب والريح الهائجة فصار هدوء عظيم.

وفي [الإنجيل نفسه في الإصحاح التاسع: ٦-٧] أنه «قال للمفلوج: قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته».

وفي [السفر نفسه: ١٨-٣٤] ذكر أنه شفى امرأة كانت تنزف منذ اثني عشر عاماً، وأحيا صبية، وشفا اثنين من عماهما، وأخرج شيطاناً من رجل أخرس، فتكلم.

وفي [السفر العاشر من إنجيل متى: ٤-٥] أرسل إلى يوحنا من يقول له: «العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون والصم يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يبشرون».

ولم تقف الآيات التي جاء بها على شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وطرد الشياطين، فقد ذكروا عنه أنه مشى على ماء البحر في الهزيع الرابع من الليل [إنجيل

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨]، أي: اهبط سالماً مباركاً عليك، وعلى أمم ممن معك، وأمم ستنشأ وتوجد من بعدك، وكل الأمم من بعد نوح كانت من نسله، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

١٦ـ الموضع الذي رست فيه سفينة نوح ﷺ:

ذكرت التوراة أن سفينة نوح استقرت بعد أن جفت المياه على جبال أراراط، والذي أخبر به القرآن أن السفينة استوت على الجودي، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

وجبل الجوديّ موجود في شمال العراق أو فيما جاورها من بلاد تركيا، وقد ذكر ابن كثير «أن الجودي جبل عظيم مشهور موجود في أرض الجزيرة» [قصص القرآن: ص٩٦].

وذكر ياقوت الحموي في [معجم البلدان: ٢/ ١٧٩] أن «الجوديّ بتشديد الياء، جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من نهر دجلة من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء».

وقد نقل البخاري رحمه الله عن قتادة تعليقاً من غير إسناد أن قتادة قال: «أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة» [البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر:١٤]. قبل حديث رقم (٤٨٦٩)، ووصله عبدالرزاق في (تفسيره) (٣/ ٢٦٠) ورقمه (٣٠٦٢)، وابن جرير في (تفسيره) (١١/ ٥٥٥)، ورقمه (٢٢٧٦٢)].

١٧ـ مصير قوم نوح في الآخرة:

رأينا كيف عذب الله قوم نوح بالطوفان العظيم في الدنيا، وأخبرنا ربنا أن مصيرهم في الآخرة النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح:٢٦].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن قوم نوح في يوم القيامة يكذبون نوحاً، ويدعون كاذبين أنه لم يبلغهم، وأخبرنا أننا نشهد لنوح بالبلاغ. فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءَنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣]» [البخاري:٣٣٣٩].

١٨ـ افتراء بني إسرائيل على نبي الله نوح عليه السلام:

افترى بنو إسرائيل على نبي الله نوح، فقد زعموا أنه شرب الخمر فسكر، فتعرى في داخل خبائه، فأبصر ولده حام أبو كنعان عورة أبيه، وخرج وأخبر أخويه بما كان منه، فدخل الولدان على أبيهما، وأخذا الرداء، ووضعاه على أكتافهما، ومشيا للخلف حتى لا يريا عورته، فلما وصلا إليه سترا عورته.

فلما استيقظ نوح وعلم بما فعله ابنه غضب عليه، وأخبر أن كنعان ابن حام وذريته سيكونون عبيداً لأبناء سام ويافث، وأخبر أنه سيكون عبد العبيد لإخوته، وبارك سام قائلاً: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع: ٢٦-٢٧].

وهذا الذي ذكروه عن نوح كذب وافتراء على نوح، فما يكون لنوح وهو من أولي العزم من الرسل، أن يشرب الخمر ويسكر، ويتعرى وتُرى عورته، وإذا كان الأمر كذلك، فما قيل عن حام كذب أيضاً.

١٩ـ وصية نوح ابنه عند وفاته:

قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم، قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن عمرو، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية، عليه

جبة سيجان[1] مَزْرُورَةٌ بالديباج، فقال: ألا إنَّ صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ورفع كل راعٍ ابن راعٍ، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته، وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقلُ، ثم قال: إن نبي الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاصّ عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كِفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاةُ كل شيء، وبها يزرق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكِبر. قال: قلت أو قيل: يا رسول الله، هذا الشرك، قد عرفناه فما الكِبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا حُلّة يَلْبَسها؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا. قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قلت أو قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: سفه الحقِّ، وغمص الناس» وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه [البداية والنهاية: ١/ ١١٩].

ثالثا: هذه القصة في الميزان

ما ذكرته التوراة في قصة نوح كان ضامراً قليلاً إلى وقوع الطوفان، وقد توسع القرآن في ذكر قصة نوح في مجال دعوة نوح لقومه، وفيها وعظهم وذكرهم به، وذكر لنا القرآن صوراً من المواجهة التي واجه بها نوح قومه، وذكر لنا كيف طلب منه الزعماء والرؤساء من قومه أن يطرد المستضعفين من الذين آمنوا به فأبى عليهم، وذكر لنا كيف يئس نوح من إيمان قومه، فدعا عليهم بالهلاك، وقد ذكر الله شيئاً من فضل نوح وما حباه الله به.

---

(١) سيجان: جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر.

وصوب القرآن ما ذكرته التوراة من أن نوحاً مكث في قومه قبل الطوفان ستة مائة عام، وذكر أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وتوسعت التوراة في ذكر الطوفان، وبينت أن الله حدد لنوح موعداً لوقوعه، وذكرت صفة صنع السفينة، وحدد الله لنوح الذين يصعدهم في السفينة، وتحدثت عن مدة بقاء السفينة على وجه الماء.

وقد صحح القرآن ما جاء في التوراة المحرفة أن الله أمر نوحاً أن يصعد معه من الحيوانات الطاهرة سبعة سبعة، والصواب أنها زوجان زوجان، وصحح القرآن ما ذكرته التوراة أن نوحاً أخذ معه زوجته، وأولاده ونساءَهم، والصواب أنه أخذ معه المؤمنين من أهله، وغير أهله، وهم قليل، فقد غرق أحد أولاده، وكان كافراً.

وقد ذكر القرآن أموراً وقعت في الطوفان لم تذكرها التوراة، ومن ذلك ما أمر الله به نوحاً من دعائه ومن معه الله عند صعود السفينة وعند النزول منها.

وقد ذكر القرآن الكريم أن سفينة نوح كانت آية عظيمة من آيات الله، بناها نوح بوحي إلهي، وحشر فيها الأحياء الذين سيعمرون الأرض بعد الطوفان، ولم يغرق في التفصيلات الشكلية التي ذكرتها التوراة.

وذكرت التوراة الموضع الذي رست فيه السفينة، فقد ذكرت التوراة أنه جبل أرارات، والصواب أنه جبل الجودي، وهو جبل في شمال العراق.

القصة الرابعة
بلبلة الله لسان أهل الأرض

أولا: تقديم

ذكرت التوراة في سفر التكوين أن الأرض كانت لساناً واحداً ولغة واحدة، فأراد البشر أن يصنعوا من اللَّبِن المشوي مدينة وبرجاً، ويجعلون لأنفسهم اسماً كي لا يتفرقوا على وجه الأرض، فنزل الله لينظر المدينة والبرج اللذين كان الناس يبنونهما، فنزل الله فبلبل ألسنتهم، وفرقهم في بقاع الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، وسمي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل ألسنتهم، وفرقهم في مختلف بقاع الأرض.

ثانيا: نص هذا الخبر في التوراة

جاء في سفر التكوين: «١وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً.
٢وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. ٣وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيًّا». فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ لَهُمُ الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. ٤وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ». ٥فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. ٦وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ.
٧هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». ٨فَبَدَّدَهُمُ

الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ، ٩لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ» [سفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر، ١-٩].

ثالثا: نظرة في هذا الخبر من التوراة

هذا الخبر الذي أورده الذين عملوا على تحريف التوراة شبيه بالأسطورة والخرافة، وهي تصور أن الله يقف في وجه الذين يريدون إعمار الأرض واستثمارها، وصوروا أن الله وقف في مواجهة وحدة البشرية، ولا أدري كيف صور محرفو التوراة أن بناء الناس للمدينة والبرج سيحفظ وحدة اللغة عند البشر.

إن اختلاف ألسنة البشر ليس نقمة كما صورتها هذه الأسطورة، بل هو آية من آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم:٢٢].

إن القرآن مليء بالنصوص التي تخبر بأن الله أراد من عباده أن يعمروا هذه الأرض ويثمروها، ويبنوا مدنها وقراها، فإن فعلوا ذلك والتزموا الحق المنزل إليهم أرسل السماء عليهم مدراراً، وأمدهم بالأموال والبنين، وجعل لهم الجنات والأنهار، وإلا فإنهم يكونون من الهالكين.

متى، الإصحاح الرابع عشر: ٢٥]، وذكروا أنه كثر الطعام، فقد أخذ خمسة أرغفة وسمكتين وكسر الأرغفة للتلاميذ، فأكلوا وشبعوا وكانوا نحو خمسة آلاف رجل عدا النساء والأولاد.

ومرة أخرى أخذ سبع خبزات وسمكاً فكسر الخبز وأعطى تلامذته، فوزعوا على الناس، فأكل الجميع وشبعوا، ورفعوا ما فضل من الكسر فكان سبع سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد [إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر: ٣٤-٣٨].

ويذكر الإنجيل عن عيسى عليه السلام أنه مرسل إلى بني إسرائيل خاصة، فإنه قال: «لم أرسل إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة» [إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر: ٢٤].

٤- رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله إلى الأرض في آخر الزمان:

ذكر عيسى لحوارييه وتلامذته أنه سيرفع إلى السماء، وسينزل في آخر الزمان، ولكن النصارى لم يفقهوا عنه قوله، واعتقدوا أنه قتل وصلب، وحملوا مجيئه على المجيء في القيامة.

ومما جاء في هذا الموضوع قول عيسى عليه السلام : «هل يستطيع بنو العريس أن ينوحوا ما دام العريس معهم، ولكن ستأتي أيام حين يرفع العريس عنهم، فحينئذ يصومون» [إنجيل متى، الإصحاح التاسع: ١٥].

وعيسى يريد برفع العريس عنهم، رفعه هو إلى السماء.

وقد أخبر عيسى الناس عندما كانوا في الهيكل أن الهيكل سيُهدم ويزول، قال لهم: «إنه لا يترك هاهنا حجر على حجر لا ينقض» [إنجيل متى، السفر الرابع والعشرون: ٢]. وقد أطال عيسى في تحديث تلامذته وهو جالس على جبل الزيتون عن وقائع آخر الزمان، وما يجري فيه من فتن وأهوال، وأشار إلى ما يحدث عند خروج الدجال من أهوال، وأشار إلى التغيرات التي تقع في الكون، وما يحدث للشمس والقمر،

وحدثهم عن نزوله في ذلك الوقت، حيث يبصر الناس ابن الإنسان يعني نفسه آتياً على السحاب، وأخبرهم أنه لا أحد يعلم متى يكون ذلك إلا الله وحده.

وحدثهم عيسى عليه السلام أن سيعطى الملك بعد نزوله، ويحكم في الشعوب، ويقول للذين يجلسون عن يمينه، وهم أبناء الأمة الإسلامية: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم».

رابعا: التعقيب على هذه القصة

سأذكر في هذا المبحث ما ورد في القرآن والسنّة في شأن عيسى، وستبرز النصوص حقيقة عيسى كما هي من غير زيادة ولا نقصان، وستكشف هذه النصوص الزيف الذي أُلصق بعيسى عليه السلام .

١- عيسى ابن مريم: الأصل والجذور:

لا شك أن عيسى ابن مريم عليه السلام من بني إسرائيل، وبُعث رسولاً إلى بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف:٦].

وأمه هي مريم ابنة عمران، وعمران من ذرية نبي الله داود، وداود من ذرية نبي الله يوسف ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إبراهيم، ووالد مريم الذي هو عمران من خيار بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:٣٣-٣٥].

وقوله ذرية بعضها من بعض، أي أن عمران من ذرية إبراهيم، وإبراهيم من ذرية نوح، ونوح من ذرية آدم.

وكانت جدة عيسى التي هي زوجة عمران امرأة صالحة، وقد نذرت ما في بطنها ليكون خادماً قائماً على شؤون المسجد الأقصى الذي يسمونه بالهيكل ﴿ إِذْ

﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:٣٦].

فلما وضعت حملها تبين لها أنها أنثى وليست ذكراً، والأنثى لا تصلح أن تنذر للقيام على المسجد، وقالت أم مريم فيما قالته: وإني سميتها مريم، وطلبت من الله أن يعيذها، ويعيذ ذريتها من الشيطان الرجيم، ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:٣٦] وتقبل الله دعاءها فيها، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد، إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان إياه، إلا مريم وابنها» [البخاري: ٤٥٤٨. مسلم: ٢٣٦٦].

٢- إنبات الله مريم نباتا حسنا، وتكفيلها نبي الله زكريا:

وقد أخبرنا الله في كتابه أنه تقبل مريم قبولاً حسناً، أي: تقبلها نذيرة، وأخبرنا أنه أنبتها نباتاً حسناً، أي: نشأها تنشئة صالحة، وكفلها نبي الله زكريا، أي: كفلها رجلاً صالحاً، وكان والدها عمران كما يقول - ابن كثير - «صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم» [قصص الأنبياء: ص٥٢٥].

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران:٣٧].

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أخيار بني إسرائيل نازعوا نبيهم زكريا في كفالتها، فاقترعوا عليها بإلقاء أقلامهم في الماء أو في مكان خفي، وأدخل أحدهم يده، فأخرج واحداً منها، فخرج قلم زكريا ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وما ذكرته التوراة أن زوجة زكريا كانت نسيبة مريم غير صحيح، بل هي أخت مريم، فقد مرّ رسول الله ﷺ في معراجه إلى السماء على يحيى وزكريا، وقال:

«فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، فرحبا بي، ودَعَوا لي بخير» [مسلم: ١٦٢].

٢- إكرام الله لمريم وبيان فضلها على مستوى نساء العالم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أنبت مريم نباتاً حسناً وكفلها زكريا، وقد وضعها زكريا في موضع شريف في المسجد سماه الله المحراب، وهذا يدل على خطأ ما جاء في الإنجيل أنها كانت في مدينة من مدن الجليل، وهي الناصرة.

وذكر لنا القرآن أن زكريا عليه السلام عندما كان يدخل عليه يتفقد أحوالها يجد عندها رزقاً في غير أوانه، فيجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فسألها أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧].

وكان ما رآه زكريا من رزق الله مريم الطعام في غير أوانه هو السبب في دعائه ربه أن يرزقه الولد، فأجاب دعاءه كما سبق القول في قصة زكريا ويحيى.

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه اصطفى مريم وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، ونادتها الملائكة آمرة إياها بالقنوت لله، أي: طاعة الله، والصلاة بما فيها من قيام وركوع وسجود ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣]. وعن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة» [البخاري: ٣٤٣٢. ومسلم: ٢٤٣٠].

وعن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» [البخاري: ٥٤١٨. ومسلم: ٢٣٤١].

وحيث ذكر الرسول ﷺ النساء الفاضلات على المستوى العالمي، ذكر مريم فيهن، ومقتضى ما نصّ القرآن عليه أنها حازت المرتبة الأولى في الفضل.

٤. تبشير الله لمريم بولد اسمه عيسى ابن مريم:

ذكر الإنجيل أن ملاك الرب جاء مريم وبشرها بأنها ستحمل ولداً، تسميه عندما يولد عيسى ابن مريم، أي ستحمله من غير أب، وأنه بعد كبره سيجلس على كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، وقد أخبر الإنجيل أن مريم استفسرت منه عن الكيفية التي يكون لها فيها ولد،ولم يمسسها بشر، فأجاب بأن «الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظللك».

وليس بصواب أن مريم كانت في مدينة الناصرة في الجليل، وليس صواب أن مريم كانت مخطوبة لرجل يدعى يوسف، وقد عملت يد التحريف في الإنجيل فادعى المحرفون أنه ابن الله يدعى، وفي موضع آخر قال: «المولود منك يدعى ابن الله».

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن الملائكة نادت مريم وبشرتها بالمسيح عيسى ابن مريم ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٥-٤٦].

لقد بشرتها الملائكة بكلمة من الله، وسمي عيسى عليه السلام بالكلمة، لأنه خلق بالكلمة، وقد اضطرب كلام بعض مدوني الإنجيل اضطراباً عظيماً، ففي إنجيل يوحنا «١فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ الله، وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله. ٢هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ الله» [إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول: ١-٢]. وهذا الكلام متناقض متعارض، فليس صحيحاً أن الكلمة هي الله، فالله هو الإله المعبود، والكلمة هي قوله: كن، وهي التي خلق الله بها عيسى عليه السلام .

وبيّنت الملائكة لمريم أن الولد الذي ستلده سيكون له مكانة عظيمة في الدنيا، وستكون له مكانة عظيمة في الآخرة، فعيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وأولي العزم خمسة هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧].

٥. مريم تراجع ملاك الرب فيما بشرها به:

عندنا بشَّرَ الملك مريم بعيسى عليه السلام على النحو الذي أخبرنا الله به، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران:٤٧] وقال في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم:٢٠-٢١].

استعلمت مريم الملك عن الكيفية التي ستُرزق فيها بالولد، وليس لها زوج، وليست بامرأة فاجرة، فقال لها الملك: تلك مشيئة الله تعالى، وإذا شاء الله شيئاً، فيقول له: كن، فيخلق كما يريده الله، وهذا أمر هيّن على ربّ العزة، ويريد الله أن يجعله آية للناس، وذلك بخلق ولد من امرأة من غير أب، وسيجعله الله رحمة من عنده، وهو أمر قضاه وشاءه في الأزل، فلا بد أن يكون كما أراد.

٦. كيف حملت مريم بعيسى عليه السلام:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - عن المكان الذي كانت مريم فيه عندما حملت بعيسى، أخبرنا ربنا - عز وجل - أنها انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، فبعث الله الروح الأمين عليه السلام في صورة بشر مستوياً، أي مكتملاً في خلقه ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم:١٦-١٧] فلما رأته منتصباً، أمامها ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم:١٨-١٩].

أي أنا مبعوث من عند رب العباد إليك لأهب لك غلاماً زكياً، وما دام رسولاً من عند رب العباد الرحمن الرحيم، فلا يخاف منه، وقد استفسرت منه عن كيفية حملها، وهي غير ذات زوج، وليست بغياً، فأجابها بما أجابها، وقد ذكرته فيما سبق.

وقد أخبرنا القرآن عن كيفية حملها بعيسى عليه السلام، أخبرنا أن جبريل عليه السلام نفخ في مريم فحملت بعيسى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

وأخبرنا في موضع آخر أن النفخة وصلت إلى فرجها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]. وأخبرنا ربنا – عز وجل – أن آدم عليه السلام نفخ فيه روح القدس، فأحياه الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٩].

قال ابن كثير: «ذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة إلى فرجها، فحملت من فورها، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها» [قصص الأنبياء: ٥٣٨].

٧- حمل مريم بعيسى عليهما السلام، وكيفية وضعها له:

أخبرنا ربنا – تبارك وتعالى – أن مريم عليها السلام بعد أن نفخ الملاك في جيب درعها حملت به، وأنها انطلقت إلى مكان بعيد عن قومها عندما جاء موعد الولادة، ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم:٢٢] وذكر لنا أنه عندما حضرها مخاض الولادة لم يكن عندها أحد، ولم يكن هناك بناء تأوي إليه، وكان أقرب شيء إليها شجرة نخل، فالتجأت إليها، وآلمها حالها، وما هي فيه، فقالت ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣] ونسياً منسيا، أي: لا شيء.

فلما قالت ذلك ناداها غلامها الذي ولدته في تلك اللحظات، مكلماً إياها، ومثبتاً لها، ومقوياً لقلبها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٥-٢٦].

هذا الطفل الصغير الذي لم يمضِ على ميلاده لحظات يتكلم كلام العاقل الكبير، يدعوها إلى عدم الحزن، ويخبرها أن الله أجرى لها عين ماء تمرّ تحتها، وأمرها أن تهزّ النخلة التي بجوارها، فإنها إن هزتها أسقطت عليها رطباً جنياً، وأمرها أن تأكل من ذلك الرطب، وتشرب من ذلك الماء، وأمنها مما تخشاه عندما تقابل الناس، فلا تتعب نفسها في الجدال والخصام، وطالبها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٦].

٨- مريم تعود إلى قومها حاملة ابنها:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن مريم عليها السلام عادت إلى قوما حاملة ابنها، فلما رأوها أذهلهم مرآها، فواجهوها مواجهة عاصفة، يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، أي: لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً، وقالوا لها: يا أخت هارون، وهارون هو أخوها ابن أمها وأبيها، وكان رجلاً عابداً صالحاً، وعن المغيرة بن شعبة، قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله، سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين من قبلهم» [مسلم: ٢١٣٥].

قالوا لها: يا أخت الرجل الصالح العابد هارون، ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً، قالوا لها: كيف فعلت ما فعلت وأبوك عمران كان رجلاً صالحاً تقياً ورعاً، وأمك امرأة صالحة، لا تتعاطى الفاحشة، ولا تقترب منها. فكيف فعلت، وهذه أسرتك، أسرة كريمة طيبة.

وبهدوء وبعيداً عن الغضب والتشنج، واجهت العاصفة، وكل ما فعلته أنها أشارت إليه، أي: لا تكلموني، بل كلموه، فزاد عجبهم واستغرابهم، إذ كيف تطالبهم بأن يكلموا طفلاً صغيراً عمره أيام ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم:٢٩].

وكانت المفاجأة غير المتوقعة بحال، أن الغلام كلمهم كلام الرجال، كلَّمهم بلسان طلق فصيح، وقد أنساهم كلامه ما واجهوا به مريم، وقد نسف كلامه كلامهم، ورد على كل ما قالوه، ولعلهم بعد ما قاله لهم، استغفروا ربهم، وطأطؤوا رؤوسهم، وحكموا على أنفسهم بأنهم كانوا متسرعين.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

إن هذه الكلمات التي نطق بها عيسى عليه السلام وهو صبي في المهد تكشف لنا عن شخصية عيسى، وترد على ما تلفظ به الثائرون على مريم، أوله أنه عبدالله، فليس هو الله، ولا ابن الله، وأول كلمة قالها تهدم عقيدة النصارى، وتهدم الأصل الذي صبغ به الإنجيل من أن عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، عيسى هو عبدالله، وهو رسول الله، سيرسله الله بكتاب من عنده وهو الإنجيل، وسيجعله نبياً، ونبياً من أولي العزم من الرسل، وسيجعله مباركاً أينما حلّ وأينما كان، مباركاً في قوله، ومباركاً في فعله، ومباركاً في وصاياه، ومباركاً في هداه، وأخبرهم بأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة ما بقي حياً، وهذا مقتضى العبودية لله، فالصلاة والزكاة ركنان عظيمان، لا بد للصالحين من الإتيان بهما، وإقامتهما.

وأخبر عيسى عن نفسه أنه سيبر والدته، فهو من أم بلا أب، وبر الأم واجب، وهو عمل صالح في قمة الصلاح، وأخبرهم أن الله لم يجعله جباراً شقياً، لقد كان

عيسى عليه السلام متواضعاً في نفسه، ليّناً للناس رفيقاً بهم، وكل جبار فهو شقي، وعيسى لن يكون شقياً.

وأخبرهم أن السلام يحل عليه في ثلاثة مواضع، وهي أشد ما يكون الإنسان فيها حاجة إلى السلام، وهذه المواضع عند ولادته، ويوم يموت، ويوم يبعث حياً.

٩- صفة عيسى ابن مريم:

أخبرنا رسول الله ﷺ بصفة عيسى ابن مريم عليه السلام ، حتى إذا نزل في آخر الزمان نعرفه، ونكون على علم به، ففي الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : «ورأيت عيسى، فإذا هو رجل ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس» [البخاري: ٣٣٩٤. مسلم: ١٦٨]، والديماس: الحمام. وهذه الرؤيا كانت في المعراج. وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «عرض عليّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود» [مسلم: ١٦٧].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: أراني الليلة عند الكعبة، فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راءٍ من أدم الرجال، له لمّة كأحسن ما أنت راءٍ من اللمم، قد رَجَّلَها، فهي تقطر ماءً، متكئاً على رجلين، أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فسألت: من هذا؟ قيل: المسيح ابن مريم» [البخاري: ٥٩٠٢. مسلم: ١٦٩].

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ : «ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس» [مسلم: (١٦٥) (٢٦٧)].

١٠- آيات الله التي وهبها لعيسى عليه السلام:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سيعلم عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨]. ومن الآيات التي آتاه الله إياها أنه يخلق لهم من الطين أشكالاً على هيئة الطير، فينفخ فيها،

فتصبح طيراً بإذن الله، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبر الناس بما يأكلون وما يدخرونه في منازلهم ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩﴾ [آل عمران:٤٩].

١١ـ القول الحق في عيسى عليه السلام:

هذا الذي أخبرنا الله به عن عيسى عليه السلام هو القول الحق، فعيسى ليس بإله، ولا ابن الله، وليس بثالث ثلاثة، وإنما هو عبد الله، ورسول الله، خلقه من أنثى بلا أب، وقد ضل اليهود الذين زعموا كاذبين أنه ابن زنى، وضل النصارى الذين زعموا كاذبين أنه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، قال تعالى بعد أن قصَّ علينا قصته ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤﴾ [مريم:٣٤] أي فيه يتنازعون، ويضلل بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، ثم قال مقرراً الحق في هذا النبي الكريم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾ [مريم:٣٥] فعيسى ليس هو الله، ولا ابن الله، وإنما هو خلق كريم من مخلوقات الله، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون كما يريد الله سبحانه.

١٢ـ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم عليهما السلام:

بعد أن قص الله تعالى علينا قصة عيسى عليه السلام في آل عمران قال: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران:٥٨] ثم أعلمنا - عز وجل - أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، فإذا كان عيسى خلق من أم بلا أب، فإن آدم خلق بلا أب ولا أم، خلقه الله من تراب، ثم قال له: كن، فكان كما يريد الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران:٥٩] وقد قرر الله

لرسوله ﷺ أن هذا الذي ذكره في شأن عيسى هو الحق، ونهاه أن يكون من الشاكين ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٦٠].

١٣ـ السماوات والأرض مخلوقتان وكل من فيها مخلوق:

أخبرنا ربنا - تعالى وتقدس - أن البشر جعلوا لله شركاء من الجن، واخترعوا آلهة نسبوها إلى الله كاذبين، زاعمين أن عيسى ابن الله، وأن الملائكة بنات الله، وكل ذلك كذب على الله وافتراء عليه، وسبح نفسه عما يصفه به هؤلاء الضالون. وقرر تبارك وتعالى أنه هو الذي أبدع السماوات والأرض على غير مثال سابق، فكيف يكون له ولد، وليس هناك ما يساويه ويناظره، فكل ما في السموات والأرض مخلوق، والله وحده خالق كل شيء ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٢].

وعيسى عليه السلام جزء مما في الأرض، فهو مخلوق مربوب.

١٤ـ نهي الله أهل الكتاب عن الغلو في دينهم:

نهى الله - تبارك وتعالى - أهل الكتاب عن الغلو في الدين، ومن ذلك رفعهم عيسى عليه السلام عن مرتبة النبوة والرسالة إلى مرتبة الألوهية، فعيسى عليه السلام رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فأمرهم بالإيمان بهذه الحقيقة وعدم الغلو، ونهاهم عن الزعم بأن عيسى ثالث ثالثة، وقرر سبحانه أنه إله واحد، وسبح نفسه عن أن يكون له ولد، وقرر الله ربنا - عز وجل - أن المسيح لا يمتنع أن يكون عبداً له، ولا الملائكة المقربون يستنكفون عن عبادته، والذي يمتنع عن ذلك، ويستكبر عن عبادته فسيحشرهم إليه ويحاسبهم.

قال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ

مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن
يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ
عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

١٥- مباهلة الذين ينازعون في شأن عيسى:

أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يباهل الذين ينازعونه في شأن عيسى، ويدعون فيه كاذبين أنه الله أو ابن الله، وذلك بأن يأتي هو وأبناؤه ونساؤه، ويأتون هم وأولادهم ونساؤهم، ويقفون جميعاً في موقف واحد، ثم يدعون الله تعالى، لاعنين الكاذبين من الفريقين.

وقد أنزل الله النصف الأول من سورة آل عمران، عندما قدم وفد نجران إلى المدينة، وكانوا ستين راكباً، وجادلوا رسولنا في شأن عيسى، وبعد أن بيّن الله لهم الآيات في شأنه، وقال فيه كلمة الفصل دعاهم إلى المباهلة، فخافوا، ولم يرضوا بالمباهلة خشية أن يستأصلوا، وتحل اللعنة بهم وبقومهم وأبنائهم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

١٦- تنازع الناس في عيسى عليه السلام:

تنازع الناس في أمر عيسى عليه السلام، وانقسموا فيه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهم اليهود الذين زعموا فيه أنه ولد زنى، عليهم لعنة الله.

الثاني: النصارى الذين يزعمون أنه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وهذا كذب على الله، وكذب على عيسى رسول الله.

والثالث: الذين قالوا: هو عبد الله ورسوله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء طوائف من النصارى كانوا في الدهر الأول، وهذا قول المسلمين من أمة محمد ﷺ.

قال تعالى مخبراً عما اختلف فيه الناس من أمر عيسى عليه السلام: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [مريم:٣٧]، والذين كفروا يشمل الفريق الأول، والفريق الثاني.

وجاء في الحديث عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ، قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حقٌّ، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [البخاري: ٣٤٣٥. مسلم: ٢٨ واللفظ للبخاري].

١٧- عظم جريمة الذين قالوا: إن عيسى ابن الله أو هو الله أو ثالث ثلاثة:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الذين غلوا في عيسى أو غيره، ورفعوه إلى مرتبة الألوهية قد جاؤوا شيئاً إداً ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم:٨٨-٨٩] أي: شيئاً عظيماً منكراً، وقد بيّن الله لنا مدى عظم هذا القول ونكارته بقوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم:٩٠-٩٥].

أخبرنا الله - عز وجل - أن السماوات تكاد تنفطر، والأرض تكاد تنشق، لعظم هذا القول، وتخرُّ الجبال العظيمة الراسية هدّاً، لقولهم هذا، فهذا القول الخبيث يحدث فساداً في السماء والأرض والجبال، ويكاد يدمرها ويفسدها.

وقد أخبرنا الله - سبحانه - أنه ما ينبغي له أن يتخذ ولداً، فالله واحد في ذاته، واحد في ألوهيته، واحد في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته، وكل المخلوقات من الملائكة والجن والإنس بما فيهم الأنبياء والرسل، وفيهم عيسى عليه السلام وأمه يأتون خاضعين لله، مستجيبين لأمره، ولا يتخلف منهم أحد، فالله قد أحصاهم وعدّهم عدّاً، وكل واحد منهم يأتي يوم القيامة فرداً.

١٨- إنزال الله على عيسى ابن مريم ومن معه مائدة من السماء:

يذكر الإنجيل أن عيسى عليه السلام كثَّر الطعام حتى أكل من الأقراص المعدودة الألوف من الناس، والذي ذكره الله تعالى أن الحواريين طلبوا من عيسى عليه السلام أن يُنزل الله عليه مائدة من السماء، فلما ألحوا عليه، دعا الله فأنزلها الله عليه كما طلب، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة:١١٢-١١٥].

١٩- رفع الله عيسى عليه السلام إلى السماء:

حاول اليهود قتل نبي الله عيسى، وأحاطوا به، فألقى الله شبهه على رجل، فأُخذ ذلك الرجل وقُتل، وظن الذين أخذوه أنه عيسى عليه السلام، وقد أخبر العليم الخبير أن عيسى لم يُقتل، ولم يُصلب، ولكن القتلة شُبِّه لهم، والله رفع عيسى إلى السماء، قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النساء:١٥٧].

وأخبرنا ربنا - عز وجل - أنه رفعه إليه ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٨] وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران:٥٥].

والذين اتبعوه الذين كانوا على الدين الحق من أتباعه، ثم أتباعه بعد بعثة رسولنا ﷺ هم أمة هذا الرسول، أما الذين يزعمون كاذبين أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة فهؤلاء كفار، كالذين افتروا الكذب على عيسى وأمه من اليهود.

وسينزل عيسى آخر الزمان، ويقيم دين الله الذي جاء به محمد ﷺ ، وسيؤمن به النصارى في ذلك الزمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩].

وستتحدث عما أنبأنا به عيسى عليه السلام من نزوله في آخر الزمان في كتابنا «أشراط الساعة في الكتب السماوية».

٢٠- شهادة عيسى عليه السلام في يوم القيامة:

يوقف الله تعالى يوم القيامة عيسى أمامه، ويذكره بما أنعم عليه وعلى والدته، ويسأله هل هو الذي طلب من الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فيتبرأ من هذه المقالة، ويقول بصريح العبارة أنه ما قال للناس إلا ما أمره به، وهو ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة:١١٧] فيثني الله على مقالة عيسى، ويصدقه فيما قاله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى

ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠-١١١].

ثم ذكّر الله عيسى عليه السلام بما كان من إنعامه عليه بإنزال المائدة عليه التي طلبها منه الحواريون، والتي ذكرناها في موضع آخر، ثم قال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩].

١- دعوة الله بني إسرائيل إلى عبادته والاستقامة على أمره:

اختار الله بني إسرائيل واصطفاهم على عالمي زمانهم، وأمرهم بعبادته وحده لا شريك له، ونهاهم عن أن يعبدوا غيره معه، قال الله لموسى عليه السلام عندما كان على جبل سيناء: «٢أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. ٣لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. ٤لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. ٥لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، ٦وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. ٧لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً» [سفر الخروج، الإصحاح العشرون: ٢-٧].

وقال لموسى أيضاً: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ أَنَّنِي مِنَ السَّمَاءِ تَكَلَّمْتُ مَعَكُمْ. ٢٣لاَ تَصْنَعُوا مَعِي آلِهَةَ فِضَّةٍ، وَلاَ تَصْنَعُوا لَكُمْ آلِهَةَ ذَهَبٍ. ٢٤مَذْبَحًا مِنْ تُرَابٍ تَصْنَعُ لِي وَتَذْبَحُ عَلَيْهِ مُحْرَقَاتِكَ وَذَبَائِحَ سَلاَمَتِكَ، غَنَمَكَ وَبَقَرَكَ. فِي كُلِّ الأَمَاكِنِ الَّتِي فِيهَا أَصْنَعُ لاسْمِي ذِكْرًا آتِي إِلَيْكَ وَأُبَارِكُكَ. ٢٥وَإِنْ صَنَعْتَ لِي مَذْبَحًا مِنْ حِجَارَةٍ فَلاَ تَبْنِهِ مِنْهَا مَنْحُوتَةً. إِذَا رَفَعْتَ عَلَيْهَا إِزْمِيلَكَ تُدَنِّسُهَا. ٢٦وَلاَ تَصْعَدْ بِدَرَجٍ إِلَى مَذْبَحِي كَيْلاَ تَنْكَشِفَ عَوْرَتُكَ عَلَيْهِ» [سفر الخروج، الإصحاح العشرون ٢٢-٢٦].

٢- ما يفعله الله ببني إسرائيل إذا التزموا ما فرضه الله عليهم وأوصاهم به:

وبيّن الله لبني إسرائيل ما سيفعله بهم إذا هم أقاموا فرائضه، والتزموا وصاياه، وعملوا بما شرعه لهم، فقال: «٣ إِذَا سَلَكْتُمْ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا، ٤أُعْطِي مَطَرَكُمْ فِي حِينِهِ، وَتُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا، وَتُعْطِي أَشْجَارُ الْحَقْلِ أَثْمَارَهَا،

٥وَيَلْحَقُ دِرَاسُكُمْ بِالقِطَافِ، وَيَلْحَقُ القِطَافُ بِالزَّرْعِ، فَتَأْكُلُونَ خُبْزَكُمْ لِلشَّبَعِ
وَتَسْكُنُونَ فِي أَرْضِكُمْ آمِنِينَ. ٦وَأَجْعَلُ سَلاَمًا فِي الأَرْضِ، فَتَنَامُونَ وَلَيْسَ مَنْ
يُزْعِجُكُمْ. وَأُبِيدُ الوُحُوشَ الرَّدِيئَةَ مِنَ الأَرْضِ، وَلاَ يَعْبُرُ سَيْفٌ فِي أَرْضِكُمْ.
٧وَتَطْرُدُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَيَسْقُطُونَ أَمَامَكُمْ بِالسَّيْفِ. ٨يَطْرُدُ خَمْسَةٌ مِنْكُمْ مِئَةً، وَمِئَةٌ
مِنْكُمْ يَطْرُدُونَ رَبْوَةً، وَيَسْقُطُ أَعْدَاؤُكُمْ أَمَامَكُمْ بِالسَّيْفِ. ٩وَالتَفِتُ إِلَيْكُمْ وَأُثْمِرُكُمْ
وَأُكَثِّرُكُمْ وَأَفِي مِيثَاقِي مَعَكُمْ، ١٠فَتَأْكُلُونَ العَتِيقَ المُعَتَّقَ، وَتُخْرِجُونَ العَتِيقَ مِنْ وَجْهِ
الجَدِيدِ. ١١وَأَجْعَلُ مَسْكَنِي فِي وَسَطِكُمْ، وَلاَ تَرْذُلُكُمْ نَفْسِي. ١٢وَأَسِيرُ بَيْنَكُمْ
وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْبًا. ١٣أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ
أَرْضِ مِصْرَ مِنْ كَوْنِكُمْ لَهُمْ عَبِيدًا، وَقَطَّعَ قُيُودَ نِيرِكُمْ وَسَيَّرَكُمْ قِيَامًا» [سفر اللاويين،
الإصحاح السادس والعشرون: ٣-١٣].

٢- ما يفعله الله ببني إسرائيل إن هم رفضوا فرائضه وكرهوا أحكامه:

وبيّن الله لهم ما سيفعله بهم إنْ هم رفضوا فرائضه وكرهوا أحكامه، فقال لهم:
«١٥وَإِنْ رَفَضْتُمْ فَرَائِضِي وَكَرِهَتْ أَنْفُسُكُمْ أَحْكَامِي، فَمَا عَمِلْتُمْ كُلَّ وَصَايَايَ، بَلْ
نَكَثْتُمْ مِيثَاقِي، ١٦فَإِنِّي أَعْمَلُ هذِهِ بِكُمْ: أُسَلِّطُ عَلَيْكُمْ رُعْبًا وَسِلاًّ وَحُمَّى تُفْنِي العَيْنَيْنِ
وَتُتْلِفُ النَّفْسَ. وَتَزْرَعُونَ بَاطِلاً زَرْعَكُمْ فَيَأْكُلُهُ أَعْدَاؤُكُمْ. ١٧وَأَجْعَلُ وَجْهِي
ضِدَّكُمْ فَتَنْهَزِمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ مُبْغِضُوكُمْ، وَتَهْرُبُونَ وَلَيْسَ مَنْ
يَطْرُدُكُمْ. ١٨«وَإِنْ كُنْتُمْ مَعَ ذلِكَ لاَ تَسْمَعُونَ لِي، أَزِيدُ عَلَى تَأْدِيبِكُمْ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ
حَسَبَ خَطَايَاكُمْ، ١٩فَأُحَطِّمُ فَخَارَ عِزِّكُمْ، وَأُصَيِّرُ سَمَاءَكُمْ كَالحَدِيدِ، وَأَرْضَكُمْ
كَالنُّحَاسِ، ٢٠فَتُفْرَغُ بَاطِلاً قُوَّتُكُمْ، وَأَرْضُكُمْ لاَ تُعْطِي غَلَّتَهَا، وَأَشْجَارُ الأَرْضِ لاَ
تُعْطِي أَثْمَارَهَا. ٢١«وَإِنْ سَلَكْتُمْ مَعِي بِالخِلاَفِ، وَلَمْ تَشَاءُوا أَنْ تَسْمَعُوا لِي، أَزِيدُ
عَلَيْكُمْ ضَرَبَاتٍ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ حَسَبَ خَطَايَاكُمْ. ٢٢أُطْلِقُ عَلَيْكُمْ وُحُوشَ البَرِّيَّةِ
فَتُعْدِمُكُمُ الأَوْلاَدَ، وَتَفْرِضُ بَهَائِمَكُمْ، وَتُقَلِّلُكُمْ فَتُوحَشُ طُرُقُكُمْ. ٢٣«وَإِنْ لَمْ تَتَأَدَّبُوا
مِنِّي بِذلِكَ، بَلْ سَلَكْتُمْ مَعِي بِالخِلاَفِ، ٢٤فَإِنِّي أَنَا أَسْلُكُ مَعَكُمْ بِالخِلاَفِ،
وَأَضْرِبُكُمْ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ حَسَبَ خَطَايَاكُمْ. ٢٥أَجْلِبُ عَلَيْكُمْ سَيْفًا يَنْتَقِمُ نَقْمَةَ

الْمِيثَاقِ، فَتَجْتَمِعُونَ إِلَى مُدُنِكُمْ وَأُرْسِلُ فِي وَسَطِكُمُ الْوَبَأَ فَتُدْفَعُونَ بِيَدِ الْعَدُوِّ.
٢٦بِكَسْرِي لَكُمْ عَصَا الْخُبْزِ. تَخْبِزُ عَشْرُ نِسَاءٍ خُبْزَكُمْ فِي تَنُّورٍ وَاحِدٍ، وَيَرْدُدْنَ خُبْزَكُمْ
بِالْوَزْنِ، فَتَأْكُلُونَ وَلاَ تَشْبَعُونَ. ٢٧«وَإِنْ كُنْتُمْ بِذلِكَ لاَ تَسْمَعُونَ لِي بَلْ سَلَكْتُمْ مَعِي
بِالْخِلاَفِ، ٢٨فَأَنَا أَسْلُكُ مَعَكُمْ بِالْخِلاَفِ سَاخِطًا، وَأُؤَدِّبُكُمْ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ حَسَبَ
خَطَايَاكُمْ، ٢٩فَتَأْكُلُونَ لَحْمَ بَنِيكُمْ، وَلَحْمَ بَنَاتِكُمْ تَأْكُلُونَ. ٣٠وَأُخْرِبُ مُرْتَفَعَاتِكُمْ،
وَأَقْطَعُ شَمْسَاتِكُمْ، وَأُلْقِي جُثَثَكُمْ عَلَى جُثَثِ أَصْنَامِكُمْ، وَتَرْذُلُكُمْ نَفْسِي. ٣١وَأُصَيِّرُ
مُدُنَكُمْ خَرِبَةً، وَمَقَادِسَكُمْ مُوحِشَةً، وَلاَ أَشْتَمُّ رَائِحَةَ سُرُورِكُمْ. ٣٢وَأُوحِشُ
الأَرْضَ فَيَسْتَوْحِشُ مِنْهَا أَعْدَاؤُكُمُ السَّاكِنُونَ فِيهَا. ٣٣وَأُذَرِّيكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ، وَأُجَرِّدُ
وَرَاءَكُمُ السَّيْفَ فَتَصِيرُ أَرْضُكُمْ مُوحَشَةً، وَمُدُنُكُمْ تَصِيرُ خَرِبَةً. ٣٤حِينَئِذٍ تَسْتَوْفِي
الأَرْضُ سُبُوتَهَا كُلَّ أَيَّامِ وَحْشَتِهَا وَأَنْتُمْ فِي أَرْضِ أَعْدَائِكُمْ. حِينَئِذٍ تَسْبِتُ الأَرْضُ
وَتَسْتَوْفِي سُبُوتَهَا. ٣٥كُلَّ أَيَّامِ وَحْشَتِهَا تَسْبِتُ مَا لَمْ تَسْبِتْهُ مِنْ سُبُوتِكُمْ فِي سَكَنِكُمْ
عَلَيْهَا. ٣٦وَالْبَاقُونَ مِنْكُمْ أُلْقِي الْجَبَانَةَ فِي قُلُوبِهِمْ فِي أَرَاضِي أَعْدَائِهِمْ، فَيَهْزِمُهُمْ
صَوْتُ وَرَقَةٍ مُنْدَفِعَةٍ، فَيَهْرُبُونَ كَالْهَرَبِ مِنَ السَّيْفِ، وَيَسْقُطُونَ وَلَيْسَ طَارِدٌ.
٣٧وَيَعْثُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ كَمَا مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ وَلَيْسَ طَارِدٌ، وَلاَ يَكُونُ لَكُمْ قِيَامٌ أَمَامَ
أَعْدَائِكُمْ، ٣٨فَتَهْلِكُونَ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَتَأْكُلُكُمْ أَرْضُ أَعْدَائِكُمْ. ٣٩وَالْبَاقُونَ مِنْكُمْ
يَفْنَوْنَ بِذُنُوبِهِمْ فِي أَرَاضِي أَعْدَائِكُمْ. وَأَيْضًا بِذُنُوبِ آبَائِهِمْ مَعَهُمْ يَفْنَوْنَ. ٤٠لكِنْ إِنْ
أَقَرُّوا بِذُنُوبِهِمْ وَذُنُوبِ آبَائِهِمْ فِي خِيَانَتِهِمِ الَّتِي خَانُونِي بِهَا، وَسُلُوكِهِمْ مَعِيَ الَّذِي
سَلَكُوا بِالْخِلاَفِ، ٤١وَإِنِّي أَيْضًا سَلَكْتُ مَعَهُمْ بِالْخِلاَفِ وَأَتَيْتُ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ
أَعْدَائِهِمْ. إِلاَّ أَنْ تَخْضَعَ حِينَئِذٍ قُلُوبُهُمُ الْغُلْفُ، وَيَسْتَوْفُوا حِينَئِذٍ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، ٤٢أَذْكُرُ
مِيثَاقِي مَعَ يَعْقُوبَ، وَأَذْكُرُ أَيْضًا مِيثَاقِي مَعَ إِسْحَاقَ، وَمِيثَاقِي مَعَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَذْكُرُ
الأَرْضَ. ٤٣وَالأَرْضُ تُتْرَكُ مِنْهُمْ وَتَسْتَوْفِي سُبُوتَهَا فِي وَحْشَتِهَا مِنْهُمْ، وَهُمْ يَسْتَوْفُونَ
عَنْ ذُنُوبِهِمْ لأَنَّهُمْ قَدْ أَبَوْا أَحْكَامِي وَكَرِهَتْ أَنْفُسُهُمْ فَرَائِضِي. ٤٤وَلكِنْ مَعَ ذلِكَ
أَيْضًا مَتَى كَانُوا فِي أَرْضِ أَعْدَائِهِمْ، مَا أَبَيْتُهُمْ وَلاَ كَرِهْتُهُمْ حَتَّى أُبِيدَهُمْ وَأَنْكُثَ
مِيثَاقِي مَعَهُمْ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُهُمْ. ٤٥بَلْ أَذْكُرُ لَهُمُ الْمِيثَاقَ مَعَ الأَوَّلِينَ الَّذِينَ

أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّعُوبِ لأَكُونَ لَهُمْ إِلهًا. أَنَا الرَّبُّ» [سفر اللاويين، الإصحاح السادس والعشرون: ١٥-٤٥].

٤- وقوع بني إسرائيل في المحذور الذي نهو عنه:

ولم يطل الوقت ببني إسرائيل حتى وقعوا في المحذور الذي نهاهم الله أن يقعوا فيه، فبعد إنجاء الله لهم من فرعون، وإهلاك الله فرعون وجيشه وهم ينظرون في وضح النهار، صنع لهم السامري عجلاً من الذهب الذي حملوه معهم من مصر، وعبدوه من دون الله، يقول نحميا متحدثاً عن بني إسرائيل: «١٦وَلكِنَّهُمْ بَغَوْا هُمْ وَآبَاؤُنَا، وَصَلَّبُوا رِقَابَهُمْ وَلَمْ يَسْمَعُوا لِوَصَايَاكَ، ١٧وَأَبَوْا الاسْتِمَاعَ، وَلَمْ يَذْكُرُوا عَجَائِبَكَ الَّتِي صَنَعْتَ مَعَهُمْ، وَصَلَّبُوا رِقَابَهُمْ. وَعِنْدَ تَمَرُّدِهِمْ أَقَامُوا رَئِيسًا لِيَرْجِعُوا إِلَى عُبُودِيَّتِهِمْ. وَأَنْتَ إِلهٌ غَفُورٌ وَحَنَّانٌ وَرَحِيمٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ، فَلَمْ تَتْرُكْهُمْ. ١٨مَعَ أَنَّهُمْ عَمِلُوا لأَنْفُسِهِمْ عِجْلاً مَسْبُوكًا وَقَالُوا: هذَا إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ مِصْرَ، وَعَمِلُوا إِهَانَةً عَظِيمَةً» [سفر نحميا، الإصحاح التاسع: ١٦-١٨].

وانظر خبر عبادة بني إسرائيل العجل في [التوراة، سفر الخروج، الإصحاح الثاني والثلاثون].

وضلّ بنو إسرائيل عن دينهم عبر عصورهم، مع وجود التوراة فيهم، ومع وجود الأنبياء بينهم، فأغضبوا الله عليهم، وأنزل بهم عقابه، فبعد موت نبيهم يشوع، قام جيل لم يعرف الرب، وعند ذلك: «١١فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ. ١٢وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلهَ آبَائِهِمِ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. ١٣تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ. ١٤فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهِبِينَ نَهَبُوهُمْ، وَبَاعَهُمْ بِيَدِ أَعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ، وَلَمْ يَقْدِرُوا بَعْدُ عَلَى الْوُقُوفِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ. ١٥حَيْثُمَا خَرَجُوا كَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ لِلشَّرِّ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ. فَضَاقَ بِهِمُ الأَمْرُ جِدًّا. ١٦وَأَقَامَ الرَّبُّ قُضَاةً

فَخَلَّصُوهُمْ مِنْ يَدِ نَاهِبِيهِمْ. ١٧وَلِقُضَاتِهِمْ أَيْضًا لَمْ يَسْمَعُوا، بَلْ زَنَوْا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى وَسَجَدُوا لَهَا. حَادُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَارَ بِهَا آبَاؤُهُمْ لِسَمْعِ وَصَايَا الرَّبِّ، لَمْ يَفْعَلُوا هكَذَا. ١٨وَحِينَمَا أَقَامَ الرَّبُّ لَهُمْ قُضَاةً، كَانَ الرَّبُّ مَعَ الْقَاضِي، وَخَلَّصَهُمْ مِنْ يَدِ أَعْدَائِهِمْ كُلَّ أَيَّامِ الْقَاضِي، لأَنَّ الرَّبَّ نَدِمَ مِنْ أَجْلِ أَنِينِهِمْ بِسَبَبِ مُضَايِقِيهِمْ وَزَاحِمِيهِمْ. ١٩وَعِنْدَ مَوْتِ الْقَاضِي كَانُوا يَرْجِعُونَ وَيَفْسُدُونَ أَكْثَرَ مِنْ آبَائِهِمْ، بِالذَّهَابِ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لِيَعْبُدُوهَا وَيَسْجُدُوا لَهَا. لَمْ يَكُفُّوا عَنْ أَفْعَالِهِمْ وَطَرِيقِهِمِ الْقَاسِيَةِ. ٢٠فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَقَالَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ هذَا الشَّعْبَ قَدْ تَعَدَّوْا عَهْدِيَ الَّذِي أَوْصَيْتُ بِهِ آبَاءَهُمْ وَلَمْ يَسْمَعُوا لِصَوْتِي، ٢١فَأَنَا أَيْضًا لاَ أَعُودُ أَطْرُدُ إِنْسَانًا مِنْ أَمَامِهِمْ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ تَرَكَهُمْ يَشُوعُ عِنْدَ مَوْتِهِ ٢٢لِكَيْ أَمْتَحِنَ بِهِمْ إِسْرَائِيلَ: أَيَحْفَظُونَ طَرِيقَ الرَّبِّ لِيَسْلُكُوا بِهَا كَمَا حَفِظَهَا آبَاؤُهُمْ، أَمْ لاَ». ٢٣فَتَرَكَ الرَّبُّ أُولئِكَ الأُمَمَ وَلَمْ يَطْرُدْهُمْ سَرِيعًا وَلَمْ يَدْفَعْهُمْ بِيَدِ يَشُوعَ» [سفر القضاة، الإصحاح الثاني: ١١-٢٣].

٥- أنبياء بني إسرائيل يدركون أسباب انحطاط أمتهم:

كان أنبياء بني إسرائيل يشاهدون انحطاط أمتهم، ويدركون السبب فيما أصابها، وكانوا يدعون الله، ويستغفرونه، ويعترفون بذنوبهم، وبما أصابته أيديهم، ويدلون أمتهم على ما ارتكبوه من الذنوب والمعاصي والآثام.

٦- عزرا يقول: أخجل من أن أرفع يا إلهي وجهي نحوك:

من هؤلاء الأنبياء عزرا، فإنه قال مخاطباً ربه - تبارك وتعالى -: «اللّهُمَّ، إِنِّي أَخْجَلُ وَأَخْزَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ يَا إِلهِي وَجْهِي نَحْوَكَ، لأَنَّ ذُنُوبَنَا قَدْ كَثُرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا، وَآثَامَنَا تَعَاظَمَتْ إِلَى السَّمَاءِ. ٧مُنْذُ أَيَّامِ آبَائِنَا نَحْنُ فِي إِثْمٍ عَظِيمٍ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. وَلأَجْلِ ذُنُوبِنَا قَدْ دُفِعْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَكَهَنَتُنَا لِيَدِ مُلُوكِ الأَرَاضِي لِلسَّيْفِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَخِزْيِ الْوُجُوهِ كَهذَا الْيَوْمِ. ٨وَالآنَ كَلُحَيْظَةٍ كَانَتْ رَأْفَةٌ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ إِلهِنَا لِيُبْقِيَ لَنَا نَجَاةً وَيُعْطِيَنَا وَتَدًا فِي مَكَانِ قُدْسِهِ، لِيُنِيرَ إِلهُنَا أَعْيُنَنَا وَيُعْطِيَنَا حَيَاةً

قَلِيلَةً فِي عُبُودِيَّتِنَا. ٩لأَنَّنَا عَبِيدٌ نَحْنُ، وَفِي عُبُودِيَّتِنَا لَمْ يَتْرُكْنَا إِلهُنَا بَلْ بَسَطَ عَلَيْنَا رَحْمَةً
أَمَامَ مُلُوكِ فَارِسَ، لِيُعْطِيَنَا حَيَاةً لِنَرْفَعَ بَيْتَ إِلهِنَا وَنُقِيمَ خَرَائِبَهُ، وَلِيُعْطِيَنَا حَائِطًا فِي
يَهُوذَا وَفِي أُورُشَلِيمَ. ١٠وَالآنَ، فَمَاذَا نَقُولُ يَا إِلهَنَا بَعْدَ هذَا؟ لأَنَّنَا قَدْ تَرَكْنَا وَصَايَاكَ
١١الَّتِي أَوْصَيْتَ بِهَا عَنْ يَدِ عَبِيدِكَ الأَنْبِيَاءِ قَائِلاً: إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَدْخُلُونَ
لِتَمْتَلِكُوهَا هِيَ أَرْضٌ مُتَنَجِّسَةٌ بِنَجَاسَةِ شُعُوبِ الأَرَاضِي، بِرَجَاسَاتِهِمِ الَّتِي مَلأُوهَا
بِهَا مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ بِنَجَاسَتِهِمْ. ١٢وَالآنَ فَلاَ تُعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِبَنِيهِمْ وَلاَ تَأْخُذُوا
بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُمْ، وَلاَ تَطْلُبُوا سَلاَمَتَهُمْ وَخَيْرَهُمْ إِلَى الأَبَدِ لِكَيْ تَتَشَدَّدُوا وَتَأْكُلُوا خَيْرَ
الأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الأَبَدِ. ١٣وَبَعْدَ كُلِّ مَا جَاءَ عَلَيْنَا لأَجْلِ أَعْمَالِنَا
الرَّدِيئَةِ وَآثَامِنَا الْعَظِيمَةِ، لأَنَّكَ قَدْ جَازَيْتَنَا يَا إِلهَنَا أَقَلَّ مِنْ آثَامِنَا وَأَعْطَيْتَنَا نَجَاةً كَهذِهِ،
١٤أَفَنَعُودُ وَنَتَعَدَّى وَصَايَاكَ وَنُصَاهِرُ شُعُوبَ هذِهِ الرَّجَاسَاتِ؟ أَمَا تَسْخَطُ عَلَيْنَا
حَتَّى تُفْنِيَنَا فَلاَ تَكُونُ بَقِيَّةٌ وَلاَ نَجَاةٌ؟ ١٥أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ، أَنْتَ بَارٌّ لأَنَّنَا بَقِينَا
نَاجِينَ كَهذَا الْيَوْمِ. هَا نَحْنُ أَمَامَكَ فِي آثَامِنَا، لأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَقِفَ أَمَامَكَ مِنْ أَجْلِ
هذَا» [سفر عزرا، الإصحاح التاسع: ٦-١٥].

٧- إشعياء يبكت بني إسرائيل:

ومن أنبياء بني إسرائيل الذين وبخهم وبكتهم على ذنوبهم ومعاصيهم
إشعياء، جاء في سفر إشعياء: «١رُؤْيَا إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ، الَّتِي رَآهَا عَلَى يَهُوذَا
وَأُورُشَلِيمَ، فِي أَيَّامِ عُزِّيَّا وَيُوثَامَ وَآحَازَ وَحِزْقِيَّا مُلُوكِ يَهُوذَا: ٢اِسْمَعِي أَيَّتُهَا
السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ، لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: «رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ، أَمَّا هُمْ
فَعَصَوْا عَلَيَّ. ٣اَلثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيَهُ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ.
شَعْبِي لاَ يَفْهَمُ». ٤وَيْلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ، الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ، نَسْلِ فَاعِلِي الشَّرِّ،
أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ، اسْتَهَانُوا بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ، ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءٍ. ٥عَلَى مَ
تُضْرَبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيَغَانًا! كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ، وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ. ٦مِنْ أَسْفَلِ
الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ، بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيَّةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ

تُعْصَبْ وَلَمْ تُلَيَّنْ بِالزَّيْتِ. ٧بِلاَدُكُمْ خَرِبَةٌ. مُدُنُكُمْ مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تَأْكُلُهَا غُرَبَاءُ
قُدَّامَكُمْ، وَهِيَ خَرِبَةٌ كَانْقِلاَبِ الْغُرَبَاءِ. ٨فَبَقِيَتِ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ كَمِظَلَّةٍ فِي كَرْمٍ، كَخَيْمَةٍ
فِي مَقْثَأَةٍ، كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ. ٩لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا بَقِيَّةً صَغِيرَةً، لَصِرْنَا مِثْلَ
سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ. ١٠اِسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبِّ يَا قُضَاةَ سَدُومَ! أَصْغُوا إِلَى شَرِيعَةِ
إِلهِنَا يَا شَعْبَ عَمُورَةَ: ١١«لِمَاذَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. اتَّخَمْتُ مِنْ مُحْرَقَاتِ
كِبَاشٍ وَشَحْمِ مُسَمَّنَاتٍ، وَبِدَمِ عُجُولٍ وَخِرْفَانٍ وَتُيُوسٍ مَا أُسَرُّ. ١٢حِينَمَا تَأْتُونَ
لِتَظْهَرُوا أَمَامِي، مَنْ طَلَبَ هذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِي؟ ١٣لاَ تَعُودُوا تَأْتُونَ
بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبَخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمَحْفَلِ. لَسْتُ
أُطِيقُ الإِثْمَ وَالاعْتِكَافَ. ١٤رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ
عَلَيَّ ثِقْلاً. مَلِلْتُ حَمْلَهَا. ١٥فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرُ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ
الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيْدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَمًا. ١٦اِغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ
أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. ١٧تَعَلَّمُوا فَعْلَ الْخَيْرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا
الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ. ١٨هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ
كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ.
١٩إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ خَيْرَ الأَرْضِ. ٢٠وَإِنْ أَبَيْتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ
بِالسَّيْفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ» [سفر إشعياء: الإصحاح الأول: ١-٢٠].

٨- الله يوبخ بني إسرائيل عبر نبيه حزقيال:

جاء في سفر حزقيال: «٥ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هذِهِ أُورُشَلِيمُ. فِي وَسْطِ
الشُّعُوبِ قَدْ أَقَمْتُهَا وَحَوَالَيْهَا الأَرَاضِي. ٦فَخَالَفَتْ أَحْكَامِي بِأَشَرَّ مِنَ الأُمَمِ،
وَفَرَائِضِي بِأَشَرَّ مِنَ الأَرَاضِي الَّتِي حَوَالَيْهَا، لأَنَّ أَحْكَامِي رَفَضُوهَا وَفَرَائِضِي لَمْ
يَسْلُكُوا فِيهَا. ٧لأَجْلِ ذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ ضَجَجْتُمْ أَكْثَرَ
مِنَ الأُمَمِ الَّتِي حَوَالَيْكُمْ، وَلَمْ تَسْلُكُوا فِي فَرَائِضِي، وَلَمْ تَعْمَلُوا حَسَبَ أَحْكَامِي، وَلاَ
عَمِلْتُمْ حَسَبَ أَحْكَامِ الأُمَمِ الَّتِي حَوَالَيْكُمْ، ٨لِذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَا إِنِّي
أَنَا أَيْضًا عَلَيْكِ، وَسَأُجْرِي فِي وَسْطِكِ أَحْكَامًا أَمَامَ عُيُونِ الأُمَمِ، ٩وَأَفْعَلُ بِكِ مَا لَمْ

أفعَل، وَمَا لَنْ أفعَلَ مِثْلَهُ بَعْدُ، بِسَبَبِ كُلِّ أَرْجَاسِكِ. ١٠لأَجْلِ ذلِكَ تَأْكُلُ الآبَاءُ الأَبْنَاءَ فِي وَسْطِكِ، وَالأَبْنَاءُ يَأْكُلُونَ آبَاءَهُمْ. وَأُجْرِي فِيكِ أَحْكَامًا، وَأُذَرِّي بَقِيَّتَكِ كُلَّهَا فِي كُلِّ رِيحٍ. ١١مِنْ أَجْلِ ذلِكَ حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ قَدْ نَجَّسْتِ مَقْدِسِي بِكُلِّ مَكْرُهَاتِكِ وَبِكُلِّ أَرْجَاسِكِ، فَأَنَا أَيْضًا أَجُزُّ وَلاَ تُشْفِقُ عَيْنِي، وَأَنَا أَيْضًا لاَ أَعْفُو. ١٢ثُلُثُكِ يَمُوتُ بِالْوَبَإِ، وَبِالْجُوعِ يَفْنَوْنَ فِي وَسْطِكِ. وَثُلُثٌ يَسْقُطُ بِالسَّيْفِ مِنْ حَوْلِكِ، وَثُلُثٌ أُذَرِّيهِ فِي كُلِّ رِيحٍ، وَأَسْتَلُّ سَيْفًا وَرَاءَهُمْ. ١٣وَإِذَا تَمَّ غَضَبِي وَأَحْلَلْتُ سَخَطِي عَلَيْهِمْ وَتَشَفَّيْتُ، يَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ فِي غَيْرَتِي، إِذَا أَتْمَمْتُ سَخَطِي فِيهِمْ. ١٤وَأَجْعَلُكِ خَرَابًا وَعَارًا بَيْنَ الأُمَمِ الَّتِي حَوَالَيْكِ أَمَامَ عَيْنَيْ كُلِّ عَابِرٍ، ١٥فَتَكُونِينَ عَارًا وَلَعْنَةً وَتَأْدِيبًا وَدَهَشًا لِلأُمَمِ الَّتِي حَوَالَيْكِ، إِذَا أَجْرَيْتُ فِيكِ أَحْكَامًا بِغَضَبٍ وَبِسَخَطٍ وَبِتَوْبِيخَاتٍ حَامِيَةٍ. أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ. ١٦إِذَا أَرْسَلْتُ عَلَيْهِمْ سِهَامَ الْجُوعِ الشِّرِّيرَةَ الَّتِي تَكُونُ لِلْخَرَابِ الَّتِي أُرْسِلُهَا لِخَرَابِكُمْ، وَأَزِيدُ الْجُوعَ عَلَيْكُمْ، وَأَكْسِرُ لَكُمْ قِوَامَ الْخُبْزِ، ١٧وَإِذَا أَرْسَلْتُ عَلَيْكُمُ الْجُوعَ وَالْوُحُوشَ الرَّدِيئَةَ فَتُثْكِلُكِ، وَيَعْبُرُ فِيكِ الْوَبَأُ وَالدَّمُ، وَأَجْلِبُ عَلَيْكِ سَيْفًا. أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ» [سفر حزقيال، الإصحاح الخامس: ٥-١٧].

ثم قال حزقيال: «١وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلاً: ٢يَا ابْنَ آدَمَ، اجْعَلْ وَجْهَكَ نَحْوَ جِبَالِ إِسْرَائِيلَ وَتَنَبَّأْ عَلَيْهَا ٣وَقُلْ: يَا جِبَالَ إِسْرَائِيلَ، اسْمَعِي كَلِمَةَ السَّيِّدِ الرَّبِّ. هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِلْجِبَالِ وَلِلآكَامِ، لِلأَوْدِيَةِ وَلِلأَوْطِئَةِ: هأَنَذَا أَنَا جَالِبٌ عَلَيْكُمْ سَيْفًا، وَأُبِيدُ مُرْتَفَعَاتِكُمْ. ٤فَتَخْرَبُ مَذَابِحُكُمْ، وَتَتَكَسَّرُ شَمْسَاتُكُمْ، وَأَطْرَحُ قَتْلاَكُمْ قُدَّامَ أَصْنَامِكُمْ. ٥وَأَضَعُ جُثَثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُدَّامَ أَصْنَامِهِمْ، وَأُذَرِّي عِظَامَكُمْ حَوْلَ مَذَابِحِكُمْ. ٦فِي كُلِّ مَسَاكِنِكُمْ تُقْفِرُ الْمُدُنُ، وَتَخْرَبُ الْمُرْتَفَعَاتُ، لِكَيْ تُقْفِرَ وَتَخْرَبَ مَذَابِحُكُمْ، وَتَنْكَسِرَ وَتَزُولَ أَصْنَامُكُمْ، وَتُقْطَعَ شَمْسَاتُكُمْ، وَتُمْحَى أَعْمَالُكُمْ، ٧وَتَسْقُطُ الْقَتْلَى فِي وَسْطِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. ٨ وَأُبْقِي بَقِيَّةً، إِذْ يَكُونُ لَكُمْ نَاجُونَ مِنَ السَّيْفِ بَيْنَ الأُمَمِ عِنْدَ تَذَرِّيكُمْ فِي الأَرَاضِي. ٩وَالنَّاجُونَ مِنْكُمْ يَذْكُرُونَنِي بَيْنَ الأُمَمِ الَّذِينَ يُسْبَوْنَ إِلَيْهِمْ، إِذَا كَسَرْتُ قَلْبَهُمُ الزَّانِيَ الَّذِي حَادَ

عَنِّي، وَعُيُونَهُمُ الزَّانِيَةَ وَرَاءَ أَصْنَامِهِمْ، وَمَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ الشُّرُورِ الَّتِي فَعَلُوهَا فِي كُلِّ رَجَاسَاتِهِمْ، ١٠وَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، لَمْ أَقُلْ بَاطِلاً إِنِّي أَفْعَلُ بِهِمْ هذَا الشَّرَّ. ١١ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: اضْرِبْ بِيَدِكَ وَاخْبِطْ بِرِجْلِكَ، وَقُلْ: آهِ عَلَى كُلِّ رَجَاسَاتِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الشِّرِّيرَةِ، حَتَّى يَسْقُطُوا بِالسَّيْفِ وَبِالْجُوعِ وَبِالْوَبَإِ! ١٢البَعِيدُ يَمُوتُ بِالْوَبَإِ، وَالْقَرِيبُ يَسْقُطُ بِالسَّيْفِ، وَالْبَاقِي وَالْمُنْحَصِرُ يَمُوتُ بِالْجُوعِ، فَأُتَمِّمُ غَضَبِي عَلَيْهِمْ. ١٣فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، إِذَا كَانَتْ قَتْلاَهُمْ وَسْطَ أَصْنَامِهِمْ حَوْلَ مَذَابِحِهِمْ عَلَى كُلِّ أَكَمَةٍ عَالِيَةٍ، وَفِي رُؤُوسِ كُلِّ الْجِبَالِ، وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ، وَتَحْتَ كُلِّ بَلُّوطَةٍ غَبْيَاءَ، الْمَوْضِعِ الَّذِي قَرَّبُوا فِيهِ رَائِحَةَ سُرُورٍ لِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. ١٤وَأَمُدُّ يَدِي عَلَيْهِمْ، وَأُصَيِّرُ الأَرْضَ مُقْفِرَةً وَخَرِبَةً مِنَ الْقَفْرِ إِلَى دِبْلَةَ فِي كُلِّ مَسَاكِنِهِمْ، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ» [سفر حزقيال، الإصحاح السادس: ١-١٤].

٩- تسليط الله نبوخذ نصر على بني إسرائيل:

وبسبب ذنوب بني إسرائيل سلط الله نبوخذ نصر على بني إسرائيل، فدمر مدينتهم، وقتل رجالهم، وسبى الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، ففي سفر إرميا: «٢٦ثُمَّ صَارَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى إِرْمِيَا قَائِلَةً: ٢٧هأَنَذَا الرَّبُّ إِلهُ كُلِّ ذِي جَسَدٍ. هَلْ يَعْسُرُ عَلَيَّ أَمْرٌ مَا؟ ٢٨لِذلِكَ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَدْفَعُ هذِهِ الْمَدِينَةَ لِيَدِ الْكَلْدَانِيِّينَ وَلِيَدِ نَبُوخَذْرَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ فَيَأْخُذُهَا. ٢٩فَيَأْتِي الْكَلْدَانِيُّونَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ هذِهِ الْمَدِينَةَ، فَيُشْعِلُونَ هذِهِ الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ، وَيُحْرِقُونَهَا وَالْبُيُوتَ الَّتِي بَخَّرُوا عَلَى سُطُوحِهَا لِلْبَعْلِ وَسَكَبُوا سَكَائِبَ لآلِهَةٍ أُخْرَى لِيُغِيظُونِي. ٣٠لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَنِي يَهُوذَا إِنَّمَا صَنَعُوا الشَّرَّ فِي عَيْنَيَّ مُنْذُ صِبَاهُمْ. لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّمَا أَغَاظُونِي بِعَمَلِ أَيْدِيهِمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. ٣١لأَنَّ هذِهِ الْمَدِينَةَ قَدْ صَارَتْ لِي لِغَضَبِي وَلِغَيْظِي مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ بَنَوْهَا إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنْزِعَهَا مِنْ أَمَامِ وَجْهِي ٣٢مِنْ أَجْلِ كُلِّ شَرِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَنِي يَهُوذَا الَّذِي عَمِلُوهُ لِيُغِيظُونِي بِهِ، هُمْ وَمُلُوكُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَكَهَنَتُهُمْ وَأَنْبِيَاؤُهُمْ وَرِجَالُ يَهُوذَا وَسُكَّانُ أُورُشَلِيمَ. ٣٣وَقَدْ حَوَّلُوا لِي الْقَفَا لاَ الْوَجْهَ. وَقَدْ عَلَّمْتُهُمْ مُبَكِّرًا وَمُعَلِّمًا، وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا لِيَقْبَلُوا أَدَبًا. ٣٤بَلْ وَضَعُوا

مَكْرُهَاتِهِمْ فِي الْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي، لِيُنَجِّسُوهُ. ٣٥وَبَنَوْا الْمُرْتَفِعَاتِ لِلْبَعْلِ الَّتِي فِي وَادِي ابْنِ هِنُّومَ، لِيُجِيزُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ فِي النَّارِ لِمُولَكَ، الأَمْرَ الَّذِي لَمْ أُوصِهِمْ بِهِ، وَلاَ صَعِدَ عَلَى قَلْبِي، لِيَعْمَلُوا هذَا الرِّجْسَ، لِيَجْعَلُوا يَهُوذَا يُخْطِئُ» [سفر إرميا، الإصحاح الثاني والثلاثون: ٢٦-٣٥].

إشعياء ينوح على الديار:

هذه مرثية حزينة ناح بها إشعياء على أورشليم المدينة المهزومة المستذلة المباحة، التي أضاعها أهلها بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وبُعدهم عن الله تعالى، يقول إشعياء:

«١كَيْفَ جَلَسَتْ وَحْدَهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ! كَيْفَ صَارَتْ كَأَرْمَلَةٍ الْعَظِيمَةُ فِي الأُمَمِ. السَّيِّدَةُ فِي الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْجِزْيَةِ! ٢تَبْكِي فِي اللَّيْلِ بُكَاءً، وَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّيْهَا. لَيْسَ لَهَا مُعَزٍّ مِنْ كُلِّ مُحِبِّيهَا. كُلُّ أَصْحَابِهَا غَدَرُوا بِهَا، صَارُوا لَهَا أَعْدَاءً. ٣قَدْ سُبِيَتْ يَهُوذَا مِنَ الْمَذَلَّةِ وَمِنْ كَثْرَةِ الْعُبُودِيَّةِ. هِيَ تَسْكُنُ بَيْنَ الأُمَمِ. لاَ تَجِدُ رَاحَةً. قَدْ أَدْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَيْنَ الضِّيقَاتِ. ٤طُرُقُ صِهْيَوْنَ نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَنَتُهَا يَتَنَهَّدُونَ. عَذَارَاهَا مُذَلَّلَةٌ وَهِيَ فِي مَرَارَةٍ. ٥صَارَ مُضَايِقُوهَا رَأْسًا. نَجَحَ أَعْدَاؤُهَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَذَلَّهَا لأَجْلِ كَثْرَةِ ذُنُوبِهَا. ذَهَبَ أَوْلاَدُهَا إِلَى السَّبْيِ قُدَّامَ الْعَدُوِّ. ٦وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِنْتِ صِهْيَوْنَ كُلُّ بَهَائِهَا. صَارَتْ رُؤَسَاؤُهَا كَأَيَائِلَ لاَ تَجِدُ مَرْعًى، فَيَسِيرُونَ بِلاَ قُوَّةٍ أَمَامَ الطَّارِدِ. ٧قَدْ ذَكَرَتْ أُورُشَلِيمُ فِي أَيَّامِ مَذَلَّتِهَا وَتَطَوُّحِهَا كُلَّ مُشْتَهَيَاتِهَا الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِ الْقِدَمِ. عِنْدَ سُقُوطِ شَعْبِهَا بِيَدِ الْعَدُوِّ وَلَيْسَ مَنْ يُسَاعِدُهَا. رَأَتْهَا الأَعْدَاءُ. ضَحِكُوا عَلَى هَلاَكِهَا. ٨قَدْ أَخْطَأَتْ أُورُشَلِيمُ خَطِيَّةً، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ صَارَتْ رَجِسَةً. كُلُّ مُكَرِّمِيهَا يَحْتَقِرُونَهَا لأَنَّهُمْ رَأَوْا عَوْرَتَهَا، وَهِيَ أَيْضًا تَتَنَهَّدُ وَتَرْجعُ إِلَى الْوَرَاءِ. ٩نَجَاسَتُهَا فِي أَذْيَالِهَا. لَمْ تَذْكُرْ آخِرَتَهَا وَقَدِ انْحَطَّتِ انْحِطَاطًا عَجِيبًا. لَيْسَ لَهَا مُعَزٍّ. «انْظُرْ يَا رَبُّ إِلَى مَذَلَّتِي لأَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ تَعَظَّمَ». ١٠بَسَطَ الْعَدُوُّ يَدَهُ عَلَى كُلِّ مُشْتَهَيَاتِهَا، فَإِنَّهَا رَأَتِ الأُمَمَ دَخَلُوا مَقْدِسَهَا، الَّذِينَ أَمَرْتَ أَنْ لاَ يَدْخُلُوا فِي جَمَاعَتِكَ. ١١كُلُّ شَعْبِهَا يَتَنَهَّدُونَ، يَطْلُبُونَ خُبْزًا. دَفَعُوا مُشْتَهَيَاتِهِمْ لِلأَكْلِ لأَجْلِ رَدِّ النَّفْسِ. «انْظُرْ يَارَبُّ وَتَطَلَّعْ لأَنِّي قَدْ صِرْتُ

مُحْتَقَرَةً». ١٢«أَمَا إِلَيْكُمْ يَا جَمِيعَ عَابِرِي الطَّرِيقِ؟ تَطَلَّعُوا وَانْظُرُوا إِنْ كَانَ حُزْنٌ مِثْلَ
حُزْنِي الَّذِي صُنِعَ بِي، الَّذِي أَذَلَّنِي بِهِ الرَّبُّ يَوْمَ حُمُوِّ غَضَبِهِ؟ ١٣مِنَ الْعَلاَءِ أَرْسَلَ نَارًا
إِلَى عِظَامِي فَسَرَتْ فِيهَا. بَسَطَ شَبَكَةً لِرِجْلَيَّ. رَدَّنِي إِلَى الْوَرَاءِ. جَعَلَنِي خَرِبَةً. الْيَوْمَ
كُلَّهُ مَغْمُومَةً. ١٤شُدَّ نِيرُ ذُنُوبِي بِيَدِهِ، ضُفِرَتْ، صَعِدَتْ عَلَى عُنُقِي. نَزَعَ قُوَّتِي. دَفَعَنِي
السَّيِّدُ إِلَى أَيْدٍ لاَ أَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ مِنْهَا. ١٥رَذَلَ السَّيِّدُ كُلَّ مُقْتَدِرِيَّ فِي وَسَطِي. دَعَا
عَلَيَّ جَمَاعَةً لِحَطْمِ شُبَّانِي. دَاسَ السَّيِّدُ الْعَذْرَاءَ بِنْتَ يَهُوذَا مِعْصَرَةً. ١٦عَلَى هذِهِ أَنَا
بَاكِيَةٌ. عَيْنِي، عَيْنِي تَسْكُبُ مِيَاهًا لأَنَّهُ قَدِ ابْتَعَدَ عَنِّي الْمُعَزِّي، رَادُّ نَفْسِي. صَارَ بَنِيَّ
هَالِكِينَ لأَنَّهُ قَدْ تَجَبَّرَ الْعَدُوُّ». ١٧بَسَطَتْ صِهْيَوْنُ يَدَيْهَا. لاَ مُعَزِّيَ لَهَا. أَمَرَ الرَّبُّ عَلَى
يَعْقُوبَ أَنْ يَكُونَ مُضَايِقُوهُ حَوَالَيْهِ. صَارَتْ أُورُشَلِيمُ نَجِسَةً بَيْنَهُمْ. ١٨بَارٌّ هُوَ الرَّبُّ
لأَنِّي قَدْ عَصَيْتُ أَمْرَهُ. اسْمَعُوا يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ وَانْظُرُوا إِلَى حُزْنِي. عَذَارَايَ وَشُبَّانِي
ذَهَبُوا إِلَى السَّبْيِ. ١٩نَادَيْتُ مُحِبِّيَّ. هُمْ خَدَعُونِي. كَهَنَتِي وَشُيُوخِي فِي الْمَدِينَةِ مَاتُوا،
إِذْ طَلَبُوا لِذَوَاتِهِمْ طَعَامًا لِيَرُدُّوا أَنْفُسَهُمْ. ٢٠اُنْظُرْ يَا رَبُّ، فَإِنِّي فِي ضِيق! أَحْشَائِي
غَلَتْ. ارْتَدَّ قَلْبِي فِي بَاطِنِي لأَنِّي قَدْ عَصَيْتُ مُتَمَرِّدَةً. فِي الْخَارِجِ يُثْكِلُ السَّيْفُ، وَفِي
الْبَيْتِ مِثْلُ الْمَوْتِ. ٢١سَمِعُوا أَنِّي تَنَهَّدْتُ. لاَ مُعَزِّيَ لِي. كُلُّ أَعْدَائِي سَمِعُوا بِبَلِيَّتِي.
فَرِحُوا لأَنَّكَ فَعَلْتَ. تَأْتِي بِالْيَوْمِ الَّذِي نَادَيْتَ بِهِ فَيَصِيرُونَ مِثْلِي. ٢٢لِيَأْتِ كُلُّ شَرِّهِمْ
أَمَامَكَ. وَافْعَلْ بِهِمْ كَمَا فَعَلْتَ بِي مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذُنُوبِي، لأَنَّ تَنَهُّدَاتِي كَثِيرَةٌ وَقَلْبِي
مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ» [سفر أرميا، الإصحاح الثاني: ١-٢٢].

على الأمة الإسلامية أن تعتبر ببني إسرائيل:

حال هذه الأمة كحال بني إسرائيل من قبل، أرسل الله إليها رسوله فآمنت به، واهتدت بهداه، فأعزها الله تبارك وتعالى، ومكّن لها دينها، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولكنها عندما تبتعد عن الله يصيبها الله بالبلاء، فقد دمر الله في فترة من تاريخها عزها ومجدها على يد التتار، ثم أذن الله برحيلهم، وعودة الأصالة لهذه الأمة، ثم غزاها الصليبيون، واحتلوا قدسها وأقصاها، ولم يزل المسلمون يحاربونهم حتى طردوهم من بلادهم، ولم يبقوا فيها أحداً منهم.

وجاء اليوم دور اليهود الذين أقاموا في الأرض المباركة المقدسة دولة لهم، وهاهم يهيئون لبناء هيكلهم، ولم يعطهم الله ذلك حباً فيهم، وتكريماً لأمتهم، وإنما فعل ذلك لكوننا عصيناه وابتعدنا عن دينه، فعاقبنا بهم، مع كراهيته وبغضه لهم، كما فعل الله ببني إسرائيل قديماً عندما سلط عليهم المجوس عبّاد النيران، فدمروا دولتهم، وأهانوهم وأذلوهم، ثم بعد ذلك دمر الله المجوس.

واليوم يسري في الأمة الإسلامية تيار الإيمان، وتوشك الأمة أن تنهض من جديد، وكأني بدولة اليهود قد بادت، وتشتت شعبها من جديد، وبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قائمة المراجع

١- البداية والنهاية، لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الثانية، ١٩٩٧.

٢- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الثالثة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٣- الجامع الصحيح، لمحمد بن إسماعيل البخاري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٤- الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، دار العاصمة، الرياض، الأولى: ١٤١٤هـ.

٦- الرسل والرسالات، للمؤلف، دار النفائس، عمان - الأردن، الثانية عشرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٨- السنن لأبي داود سليمان بن الأشعث، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

٩- السنن لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

١٠- صحيح الجامع الصغير للشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الثالثة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١١- صحيح سنن أبي داود، للشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٢- صحيح القصص النبوي، للمؤلف، دار النفائس، عمان - الأردن، السادسة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٣- العهد الجديد، دار الكتاب المقدس، القاهرة، الإصدار الخامس، ٢٠٠٣.

١٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان - الأردن، الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٥- قصة المسيح الدجال، للشيخ ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان - الأردن، الأولى، ١٤٢١هـ.
١٦- قصص الأنبياء، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفيحاء، دمشق، الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
١٧- قصص الغيب في صحيح الحديث النبوي، للمؤلف، دار النفائس، عمان - الأردن، الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
١٨- القيامة الصغرى، للمؤلف، دار النفائس، عمان - الأردن، الثالثة عشرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م.
١٩- الكتاب المقدس (العهد الجديد، والعهد القديم)، دار الكتاب المقدس، القاهرة، الإصدار الخامس، ٢٠٠٣م.
٢٠- الكتاب المقدس، (العهد القديم)، دار الكتاب المقدس، القاهرة، الإصدار الخامس، ٢٠٠٣م.
٢١- لسان العرب، لابن منظور، دار لسان العرب، بيروت، الأولى.
٢٢- محمد نبي الإسلام، لمحمد عزت إسماعيل الطهطاوي، مطبعة التقدم.
٢٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٢٤- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٢٥- نبوة محمد من الشك إلى اليقين، الدكتور فاضل صالح السامرائي، مكتبة القدس، بغداد، الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٢٦- وليتبروا ما علوا تتبيرا، للمؤلف، دار النفائس، عمان - الأردن، الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م.

فهرس